من رحم الأرض

الجزء التاسع

الأديان و التحولات الدينية في بلاد الشام

إعداد و صياغة
أماني سليمان

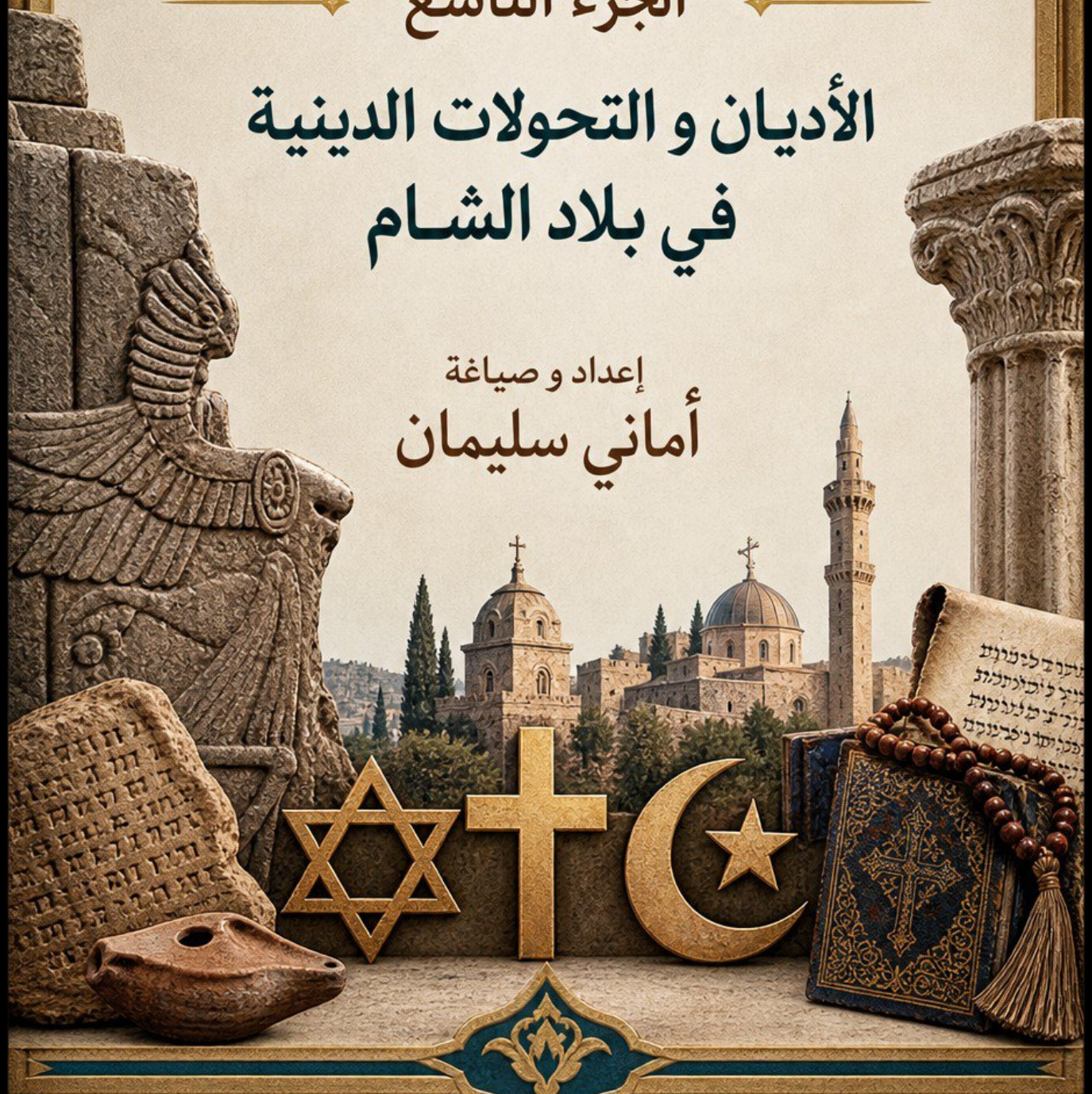

من رحم الأرض

الجزء التاسع

الأديان و التحولات الدينية في بلاد الشام

إعداد وصياغة

أماني سليمان

تنويه

لن أتوسع في ذكر الأساطير في هذا الكتاب، وليس لأن بلاد الشام كانت فقيرة بالأساطير أو الحكايات الدينية؛ بل على العكس، تزخر ممالكها وشعوبها بتراث أسطوري غني ومتنوع. لكنني تناولت جانبًا كبيرًا من هذه الأساطير في أجزاء سابقة من سلسلة من رحم الأرض، ولذلك فضّلت ألا أعيد ما سبق تقديمه، وأن أترك لهذا الجزء مساحته الخاصة للحديث عن الأديان والمعتقدات والآلهة والطقوس والنبوءات وتطور الأفكار الدينية.

وإذا وردت أسطورة في هذا الكتاب، فسأذكرها عندما تكون ضرورية لفهم إله أو معتقد أو طقس، أو عندما تحمل صلة مباشرة بالموضوع الذي نتناوله، دون إعادة سرد ما سبق أن تناولته الأجزاء السابقة.

المقدمة

لطالما كان الدين جزءًا أساسيًا من حياة الإنسان، فمنذ أقدم العصور حاول البشر أن يفهموا العالم من حولهم، وأن يجدوا تفسيرًا للقوى التي تحيط بهم، وللحياة والموت، وللخير والشر، ولما قد ينتظر الإنسان بعد رحيله عن هذه الدنيا. وفي بلاد الشام، التي كانت عبر آلاف السنين ملتقى شعوب وثقافات ومجتمعات متعددة، تركت هذه المحاولات الدينية أثرًا عميقًا في تاريخ المنطقة وحضارتها. لم تكن بلاد الشام تعرف دينًا واحدًا ثابتًا عبر تاريخها الطويل، بل شهدت تحولات دينية متتابعة ومعقدة. ظهرت فيها معتقدات متعددة وآلهة كثيرة وطقوس متنوعة، ثم تطورت أفكار دينية جديدة، وظهرت تقاليد تقوم على التوحيد، ثم جاءت المسيحية، وبعدها الإسلام، إلى جانب استمرار وجود جماعات وطوائف دينية متعددة تركت بصمتها في تاريخ المنطقة.

وهذا الكتاب لا يتعامل مع الأديان بوصفها مجرد أسماء متتابعة، بل يحاول أن يتتبع كيف تغيّر التفكير الديني نفسه؛ كيف نظر الإنسان إلى الإله، وكيف فهم علاقته بالقوى المقدسة، ولماذا قدم القرابين، وكيف أقام الطقوس، وماذا اعتقد بشأن الموت والعالم الآخر، وكيف تطورت مفاهيم الخطيئة والتوبة والشريعة والأخلاق والحساب.

سنبدأ من المعتقدات الوثنية القديمة، لا باعتبارها دينًا واحدًا، وإنما باعتبارها مجموعة واسعة من التقاليد والمعتقدات التي عرفتها بلاد الشام عبر عصور مختلفة. وسنتعرف إلى أبرز الآلهة والمعبودات، وإلى الطقوس والمعابد والكهنة، وإلى التصورات القديمة عن الموت والعالم الآخر.

ثم ننتقل إلى اليهودية، ونتتبع تطور عبادة يهوه والتحولات التي رافقت الانتقال التدريجي من البيئة الدينية متعددة الآلهة إلى ترسيخ مفهوم التوحيد، ثم نتعرف إلى الشريعة والعبادة والكهنوت والهيكل والأنبياء والتيارات اليهودية المختلفة. وبعد ذلك نتابع الرحلة مع المسيحية والإسلام، وما أحدثه ظهورهما من تحولات كبرى في الحياة الدينية والفكرية في بلاد الشام، مع التوقف عند أهم المعتقدات والعبادات والنصوص والشعائر والتقاليد التي شكلت تاريخ كل منهما. ولا يهدف هذا الكتاب إلى إصدار أحكام إيمانية على المعتقدات، ولا إلى إثبات صحة دين أو نفي صحة آخر، بل إلى فهم تاريخي للمعتقدات الدينية كما ظهرت وتطورت وانتقلت بين المجتمعات، مع التمييز قدر الإمكان بين ما تؤكده المصادر التاريخية والأثرية، وما يأتي من التقاليد الدينية، وما بقي في نطاق الروايات أو التفسيرات.

كما أننا لن نفترض أن جميع شعوب بلاد الشام آمنت بالعقيدة نفسها، أو أن التحولات الدينية حدثت فجأة. فالتاريخ أكثر تعقيدًا من ذلك؛ إذ يمكن أن تتعايش معتقدات قديمة وجديدة في الفترة نفسها، ويمكن أن تتغير صورة الإله أو الطقس أو فكرة العالم الآخر عبر الزمن، وقد تنتقل بعض الأفكار من مجتمع إلى آخر ثم تأخذ معنى جديدًا.

ومن خلال هذه الرحلة، سنحاول أن نقترب من الإنسان نفسه خلف المعتقد الإنسان الذي خاف من العاصفة، وانتظر المطر، وقدم القربان، ووقف أمام المعبد، ودفن موتاه، وسأل عن مصيرهم، ثم بحث عن معنى أعمق للوجود والعدل والخلاص. إنها رحلة في تاريخ الدين في بلاد الشام؛ رحلة تمتد من عالم الآلهة القديمة إلى الأديان التي ما زالت حاضرة في المنطقة حتى اليوم، وتكشف كيف ظل سؤال الإنسان عن الله والوجود والموت والمعنى حاضرًا عبر آلاف السنين، وإن تغيرت الإجابات من عصر إلى آخر.

ما هي الوثنية؟

كانت الوثنية من أقدم أشكال التدين التي عرفها الإنسان، وهي لا تشير إلى دين واحد محدد، ولا إلى عقيدة واحدة اتفقت عليها جميع الشعوب، بل تُستخدم لوصف مجموعة واسعة من المعتقدات الدينية التي قامت على الإيمان بتعدد الآلهة أو القوى المقدسة، وارتبطت في كثير من المجتمعات القديمة بالطبيعة والخصوبة والموت والحياة والظواهر التي أحاطت بالإنسان ولم يكن قادرًا على تفسيرها تفسيرًا علميًا.

وفي بلاد الشام القديمة، لم تكن الحياة الدينية منفصلة عن الحياة اليومية. فالإنسان كان يرى المطر سببًا للحياة، والعاصفة قوة قادرة على تدمير الزرع والبيوت، والشمس مصدرًا للضوء والدفء، والقمر علامة مرتبطة بالزمن والحساب، والخصوبة سرًا ضروريًا لاستمرار الإنسان والحيوان والنبات. ومن هنا ارتبطت القوى الطبيعية في المخيلة الدينية بآلهة امتلكت صفات وقدرات مختلفة، وأصبح لكل إله مجال أو وظيفة أو رمز يميّزه عن غيره.

ولم يكن تعدد الآلهة يعني بالضرورة أن الإنسان القديم رأى العالم مجموعة من القوى المنفصلة تمامًا؛ ففي كثير من المعتقدات كانت الآلهة ترتبط ببعضها بعلاقات أسرية، أو تدخل في صراعات وتحالفات، أو تشكل مجتمعًا إلهيًا يشبه المجتمع البشري في بعض جوانبه. وكان لكل إله مكانته ودوره، بينما ارتبطت بعض الآلهة بالسماء والعواصف، وأخرى بالخصوبة والحب، وأخرى بالشمس أو البحر أو الموت والعالم الآخر.

وكانت الآلهة حاضرة في تفاصيل الحياة اليومية. فالإنسان يلجأ إليها طلبًا للمطر والحماية والشفاء والخصوبة والنصر، ويقدم لها القرابين والنذور،

ويحتفل بأعيادها، ويطلب معرفة ما تخبئه له الأيام من خلال العرافة والتنبؤ. أما المعبد فلم يكن مجرد بناء مخصص للعبادة، بل كان المكان الذي تجري فيه طقوس دينية منظمة، ويقوم فيها الكهنة بخدمة المعبود وإدارة الطقوس والقرابين وفق التقاليد المتبعة.

وكان الموت من أكثر الأمور التي دفعت الإنسان إلى التفكير في العالم غير المرئي. فموت الإنسان لم يكن يعني بالضرورة انتهاء وجوده، بل ظهرت تصورات مختلفة عن الروح وعن مصير الميت وعن عالم يقع خلف عالم الأحياء. ولهذا ارتبط الدفن والقبور والقرابين للموتى بجانب مهم من الحياة الدينية، وأصبحت العلاقة بين الأحياء والأموات جزءًا من المعتقدات والطقوس في عدد من مجتمعات بلاد الشام القديمة.

ومع ذلك، يجب ألا ننظر إلى الوثنية باعتبارها عقيدة واحدة ثابتة امتدت بالطريقة نفسها عبر آلاف السنين. فقد تغيرت أسماء الآلهة ووظائفها وصورها، وظهرت آلهة واختفت أخرى، واختلفت الطقوس من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى آخر. كما أن بعض الآلهة حملت أسماء مختلفة أو اتخذت صفات متشابهة في مناطق متعددة، مما يجعل دراسة الدين في بلاد الشام بحاجة إلى النظر في النصوص والآثار والنقوش والمعابد واللقى الأثرية، لا إلى الاعتماد على صورة واحدة عامة عن الوثنية.

ومن هنا تبدأ رحلتنا في تتبع المعتقدات الدينية التي عرفتها بلاد الشام، قبل أن نصل لاحقًا إلى التحولات الكبرى التي غيّرت شكل التدين في المنطقة.

ومع ظهور المدن والمجتمعات المنظمة، أخذ الدين بدوره يصبح أكثر تنظيمًا. ظهرت المعابد، وتخصص أشخاص لخدمة الآلهة وإقامة الطقوس، وأصبحت للقرابين والأعياد والصلوات قواعد وتقاليد متوارثة. وهكذا انتقل التدين

تدريجيًا من الممارسات البسيطة المرتبطة بالحياة اليومية إلى أنظمة دينية أكثر تعقيدًا، تضم آلهة وطقوسًا ومعابد وكهنة وأساطير.

ومع ذلك، لا نستطيع أن نقول إن شعوب بلاد الشام جميعها مرت بالطريق نفسه أو آمنت بالمعتقدات نفسها. فالوثنية في المنطقة لم تكن دينًا موحدًا، وإنما مجموعة تقاليد دينية متداخلة، تشابهت في بعض أفكارها واختلفت في أخرى. ولذلك فإن أسماء الآلهة التي سنصل إليها لاحقًا لا تمثل قائمة واحدة مشتركة عند جميع شعوب بلاد الشام، بل تعكس عالمًا دينيًا متنوعًا تشكل عبر قرون طويلة.

ومن هذا العالم المتنوع ظهرت مجموعة من الآلهة التي أصبحت أسماؤها معروفة من خلال النصوص والنقوش والآثار. بعضها ارتبط بالطبيعة والخصوبة، وبعضها بالعواصف والحرب، وبعضها بالشمس أو البحر أو الموت. ولكل واحد منها قصة وصفات ورموز وطقوس تكشف جانبًا من الطريقة التي فهم بها الإنسان القديم العالم من حوله.

ومن هنا ننتقل إلى الآلهة الكبرى في بلاد الشام، لا باعتبارها آلهة مملكة واحدة، بل باعتبارها أبرز الشخصيات الإلهية التي تظهر في التقاليد الدينية القديمة للمنطقة.

الآلهة الكبرى في بلاد الشام

كان العالم الديني في بلاد الشام القديمة غنيًا بالآلهة والمعبودات، ولم تكن جميعها تحظى بالمكانة نفسها أو تؤدي الوظيفة نفسها. كما أن مكانة الإله الواحد قد تتغير من منطقة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر، وقد تظهر له أسماء أو صور مختلفة. ولا يمكن حصر جميع المعبودات التي عُرفت في بلاد الشام القديمة في قائمة واحدة، لكن عددًا من الآلهة تكرر ظهوره في النصوص والنقوش والأساطير، وأصبح جزءًا مهمًا من المشهد الديني في المنطقة.

إيل كان من أبرز الآلهة العليا في التقاليد الدينية القديمة في بلاد الشام، وارتبط بمفهوم الإله الأب وبالسلطة والحكمة. يظهر في عدد من النصوص بوصفه رأسًا للمجمع الإلهي وأبًا لعدد من الآلهة.

بعل ارتبط بصورة خاصة بالعاصفة والمطر والخصوبة، ولذلك كان من الآلهة المهمة في المجتمعات الزراعية. وتظهر في الأساطير الأوغاريتية قصصه وصراعه مع قوى أخرى، ومن أشهرها صراعه مع يم وموت.

عناة إلهة ارتبطت بالحرب والقوة، كما ارتبطت في بعض التقاليد بالخصوبة والحياة. تظهر بصورة قوية في أساطير أوغاريت، حيث تتميز بالشجاعة والعنف والقدرة على حماية بعل ومساندته.

عشتروت من أبرز الإلهات في المنطقة، وارتبطت في تقاليد مختلفة بالحب والخصوبة والحرب، وتظهر بأشكال متعددة بحسب المكان والعصر. ولا ينبغي افتراض أن صورتها كانت متطابقة في جميع مناطق بلاد الشام.

أدونيس إله الجمال والموت والتجدد يُعد أدونيس من أشهر الشخصيات الدينية والأسطورية في المشرق القديم، وارتبط اسمه خصوصًا بمدينة جبيل (بيبلوس) على الساحل الفينيقي، في المنطقة التي تُعرف اليوم بلبنان. وانتشرت قصته لاحقًا في مناطق أخرى، وتداخلت شخصيته مع تقاليد دينية وأساطير أقدم في الشرق الأدنى.

ارتبط أدونيس في التقاليد القديمة بالجمال والشباب والطبيعة ودورة الحياة والموت والتجدد. ولذلك أصبحت قصته من أكثر القصص ارتباطًا بفكرة موت الإله أو الشخصية المقدسة ثم عودة الحياة، وهي فكرة ارتبطت في العالم القديم بدورة الطبيعة والنبات.

وتروي أشهر الروايات أن أدونيس كان شابًا شديد الجمال، أحبته الإلهة عشتروت في التقاليد الشرقية، ثم انتقلت قصته في الرواية اليونانية إلى أفروديت. وكان أدونيس مولعًا بالصيد، وفي إحدى رحلاته خرج للصيد، فهاجمه خنزير بري وأصابه إصابة قاتلة.

وعندما مات أدونيس، حزنت عليه الإلهة حزنًا شديدًا، وارتبط دمه في بعض الروايات بالزهور التي نبتت من موضع موته، بينما ارتبطت قصته في روايات أخرى بدورة سنوية بين العالم السفلي والعالم العلوي.

وهنا ظهرت فكرة مهمة في عبادته الموت ليس نهاية القصة، بل جزء من دورة يتبعها التجدد.

وترتبط قصة أدونيس في بعض التقاليد بقصة الإلهة عشتروت، لكن علينا الانتباه إلى أن الروايات التي وصلت إلينا ليست كلها من مصدر واحد، كما أن الصورة اليونانية لأدونيس اختلطت مع التقاليد الشرقية القديمة. لذلك لا يصح

أن نضع كل تفاصيل الأسطورة اليونانية ونقول إنها كانت بالضرورة عقيدة الفينيقيين أنفسهم.

وكانت جبيل من أهم المراكز المرتبطة بعبادة أدونيس، وتذكر المصادر القديمة ارتباط عبادته بنهر أدونيس، المعروف اليوم بنهر إبراهيم، حيث ارتبط تغير لون مياهه في بعض الروايات القديمة بدم أدونيس.

وكانت تقام له طقوس ومناسبات مرتبطة بالحزن على موته ثم بعودة الحياة، وأصبحت هذه الطقوس مرتبطة بفكرة موت الطبيعة وعودتها إلى الحياة. وتذكر المصادر الكلاسيكية وجود احتفالات سنوية في جبيل ومناطق أخرى، كانت النساء يشاركن فيها بالحزن والنواح ثم الاحتفال بالتجدد.

وهنا تظهر أهمية أدونيس في دراسة أديان بلاد الشام؛ فقصته لا تتحدث فقط عن إله أو شاب جميل، وإنما تعكس سؤالًا دينيًا قديمًا شغل الإنسان لماذا تموت الطبيعة ثم تعود؟ ولماذا يتكرر الموت والحياة؟ وهل يمكن أن يتغلب التجدد على الموت؟

حدد\ هدد إله ارتبط بالعاصفة والرعد والمطر، وتظهر عبادته في مناطق مختلفة من الشرق الأدنى القديم. وفي بعض التقاليد ارتبط اسمه ووظيفته بما ارتبط به بعل من قوى العاصفة والمطر.

يم ارتبط بالبحر والمياه، ويظهر بصورة واضحة في الأساطير الأوغاريتية بوصفه قوة إلهية تنافس بعل. وتمثل قصته جزءًا من التصورات القديمة حول الصراع بين القوى الطبيعية والإلهية.

موت ارتبط بالموت والعالم السفلي، ويظهر بصورة بارزة في دورة أساطير بعل الأوغاريتية. وكان يمثل قوة الموت والجفاف في مواجهة بعل المرتبط بالمطر والحياة.

شمش إله الشمس، وارتبط بالنور والضياء، كما ارتبط في تقاليد الشرق الأدنى القديم بالعدل وإظهار الحقيقة، لأن الشمس تكشف الأشياء ولا تخفيها.

رشف إله ارتبط بالحرب والمرض والموت في بعض التقاليد، وانتشرت عبادته في مناطق متعددة من الشرق الأدنى القديم. وتظهر صورته الدينية بأشكال مختلفة بحسب المكان والفترة.

ملكارت إله ارتبط بمدينة صور، وأصبح من أبرز آلهتها، وارتبط بالحماية والسلطة والمدينة، كما انتشرت عبادته خارج موطنه مع اتساع النشاط البحري والتجاري الفينيقي.

بعل حمون من أبرز المعبودات في التقاليد الفينيقية ـ البونية، وارتبط بالخصوبة والزراعة ودورة الحياة، ثم أصبح من الآلهة الرئيسية في قرطاج والمناطق التي تأثرت بالتقاليد الفينيقية.

تانيت إلهة ارتبطت بصورة خاصة بقرطاج والتقاليد الدينية الفينيقية الغربية، وأصبحت من أشهر المعبودات هناك. ارتبطت بالخصوبة والحماية، وأصبح لها رمز ديني مميز ظهر بكثرة في الآثار والنقوش.

داجون\دغون إله قديم عُرف في مناطق من بلاد الشام وبلاد الرافدين، وتغيرت صفاته ومكانته بحسب العصر والمجتمع. ارتبط اسمه في بعض التقاليد بالزراعة والحبوب، بينما ارتبط في تقاليد أخرى بالسلطة والخصوبة.

أشيرة إلهة أمّ ارتبطت بالخصوبة والأمومة، وتظهر بوصفها قرينة لإيل في تقاليد كنعانية.

ملقرت إله مدينة صور، ارتبط بالملك والحماية والبحر والتجارة والاستعمار الفينيقي.

إشمون\أشمن إله الشفاء والصحة عند الفينيقيين، وكان معبده الرئيسي في صيدون.

ريمون إله العاصفة والرعد في التقاليد الآرامية، ويرتبط عادةً بهدد.

يارخ إله القمر في أوغاريت والتقاليد الكنعانية، وارتبط بحساب الزمن ودورات القمر.

شَحَر إله الفجر في التقاليد الأوغاريتية والكنعانية.

شَلِم إله الغروب أو المساء في التقليد الأوغاريتي، ويرتبط اسمه بدورة اليوم.

كُوثَر-وحاسِيس إله الصناعة والحرف والمعادن.

نِكّال إلهة مرتبطة بالقمر والزواج والخصوبة.

بعلات لقب بمعنى السيدة، استُخدم لبعض الإلهات وليس بالضرورة اسم إلهة واحدة في كل المواضع.

بعل شَمِين سيد السماوات، إله سماوي انتشرت عبادته في مدن ومناطق شامية.

بعلة جبيل سيدة جبيل، إلهة المدينة وحاميتها، ارتبطت بالخصوبة والأمومة.

بعلة صيدون الإلهة الحامية لمدينة صيدون.

بعلة صور لقب للإلهة الحامية لمدينة صور.

عترعتا / عتارعتا إلهة سورية كبرى ارتبطت بالخصوبة والمياه والحياة، واشتهرت عبادتها في شمال بلاد الشام، خصوصًا في هيرابوليس.

عتر إله ارتبط بالخصوبة والظواهر السماوية في تقاليد سورية وآرامية.

سين إله القمر، عُبد في بعض المدن والمناطق السورية.

نبو إله الحكمة والكتابة، وظهرت عبادته في بعض المراكز الآرامية.

عشتر إله ظهر في التقليد الأوغاريتي، وارتبط في بعض النصوص بالسلطة والعالم الإلهي.

رفائيم جماعة أو كائنات إلهية مرتبطة بالموتى الأسطوريين أو الأبطال الأموات في نصوص أوغاريت؛ وليس من الدقة معاملتهم كإله واحد.

بعل ماركود إله محلي عُرف في بعض مناطق بلاد الشام، ارتبط اسمه بالرقص أو الطقس في التقاليد المتأخرة.

شَدْرَفَا إله ارتبط بالحماية والشفاء، وعُرف اسمه من النقوش الفينيقية.

عترعتا / أتارغاتيس إلهة سورية كبرى ارتبطت بالخصوبة والمياه والحياة، واشتهرت عبادتها في شمال سوريا.

رَحْمَن اسم إله ظهر في بعض النقوش الآرامية، وترتبط هويته وسياقه الديني بتقاليد محلية مختلفة.

يرحبول إله الشمس في تدمر، ارتبط بالحماية والمدينة والسلطة.

عجلبول إله القمر في تدمر، وكان يُعبد مع يرحبول في معبد بل.

بل الإله الأعلى في تدمر في العصر الروماني، ارتبط بالكون والخلق والسلطة الإلهية.

ملكبل إله شمسي تدَمري ارتبط بالزمن والخصوبة والحماية، وظهر في الفن التدَمري مع آلهة أخرى.

ديريتيوم كانت إلهة معروفة في تقاليد ماري، وارتبط اسمها خصوصًا بمدينة توتول على الفرات

أرتميس إلهة يونانية دخلت في التقاليد الدينية التدمرية من خلال التفاعل مع العالم اليوناني والروماني.

أفروديت إلهة يونانية عُرفت في تدمر ضمن التفاعل الديني والثقافي الهلنستي.

زيوس إله يوناني عُبد في تدمر بصيغ وتأويلات محلية.

نرجال إله من أصول بلاد الرافدين، ظهرت عبادته في بعض المراكز السورية، وارتبط بالموت والعالم السفلي.

آلهة مصرية دخلت بلاد الشام

إيزيس إلهة الأمومة والسحر والحماية.

أوزيريس إله الموت والبعث والعالم الآخر.

حورس إله السماء والملكية.

آمون إله مصري عظيم ارتبط بالملكية والسلطة.

حتحور إلهة الحب والأمومة والموسيقى.

سخمت إلهة القوة والحرب والشفاء.

بس إله/كائن حامٍ ارتبط بالبيت والأطفال.

آلهة رافدية دخلت بلاد الشام

إنانا إلهة الحب والحرب والخصوبة.

مردوخ إله بابل الرئيسي.

أبولو إله الشمس والفنون والشفاء في التقليد اليوناني اللاحق.

أثينا إلهة الحكمة والحرب.

ديونيسوس إله الخمر والاحتفال والخصوبة.

هرمس إله التجارة والرسائل والرحلات.

هيرا إلهة الزواج والملكية.

بوسيدون إله البحر.

مارس إله الحرب الروماني.

جوبيتر الإله الأعلى في التقليد الروماني.

فينوس إلهة الحب والجمال.

مركوريوس إله التجارة والرحلات.

وهذه الأسماء ليست سوى جزء من عالم ديني واسع؛ فقد عُرفت في بلاد الشام القديمة آلهة ومعبودات أخرى كثيرة، وبعضها لم يكن واسع الانتشار، وبعضها ارتبط بمدينة أو منطقة أو فترة زمنية محددة. كما أن بعض الآلهة تشابهت في وظائفها أو اندمجت صفاتها مع آلهة أخرى، وهو أمر شائع في أديان الشرق الأدنى القديم.

ومن خلال هذه الآلهة يمكن ملاحظة أن الإنسان القديم لم يفصل الدين عن حاجاته اليومية؛ فالمطر والخصوبة والحرب والمرض والموت والبحر

والشمس والحماية كلها تحولت إلى مجالات دينية، وأصبح لكل منها ارتباط بمعبود أو أكثر.

لكن معرفة أسماء الآلهة وحدها لا تكشف لنا كيف كان الإنسان يعبدها أو ماذا كان يفعل عندما يتوجه إليها. فالدين لم يكن مجرد إيمان بوجود الآلهة، بل كان ممارسة يومية من الصلاة والقرابين والنذور والأعياد والتطهير والعرافة وغيرها من الطقوس.

ومن هنا نصل إلى الجانب الأكثر حضورًا في الحياة الدينية القديمة الطقوس الوثنية.

الطقوس الوثنية

كان المعبد المركز الأهم للعبادة المنظمة. يُنظر إليه باعتباره المكان الذي يقيم فيه المعبود بصورة رمزية من خلال تمثاله أو رموزه، وتقام فيه الطقوس وتُقدَّم القرابين. ولم يكن المعبد بالضرورة مكانًا يدخل إليه جميع الناس في كل الأوقات؛ فقد كانت بعض الأجزاء أكثر قداسة، وكانت هناك طقوس لا يقوم بها إلا الأشخاص المكلفون بالخدمة الدينية.

وكانت القرابين من أهم وسائل التعبد. فقد يقدم الإنسان للإله الطعام أو الشراب أو الزيت أو البخور أو الحيوانات، وأحيانًا أشياء أخرى ذات قيمة. وكان القربان يمكن أن يكون وفاءً لنذر، أو طلبًا لمساعدة إلهية، أو تعبيرًا عن الشكر، أو جزءًا من طقس ديني محدد. ولا ينبغي تصور القربان دائمًا على أنه محاولة لشراء رضا الإله، بل كان جزءًا من علاقة دينية تقوم على العطاء والطلب والنذر والوفاء.

ومن القرابين التي عُرفت في تقاليد المنطقة الحيوانات، ولا سيما الأغنام والماعز والثيران والطيور، إضافة إلى منتجات الزراعة والطعام والشراب. وكانت طريقة تقديم القربان تختلف بحسب الطقس والمعبود. وفي بعض الحالات كان جزء من القربان يُحرق، بينما يمكن أن تدخل أجزاء أخرى في طقس ديني أو وجبة مرتبطة بالمناسبة.

وكان البخور حاضرًا في عدد من الطقوس الدينية، إذ كان الدخان والرائحة جزءًا من المشهد المقدس. وكان إشعال البخور يتم في المعابد والمناسبات الدينية، وقد ارتبط بفكرة تكريم المعبود وتهيئة المكان للطقس.

كما عُرفت النذور، حيث يتعهد الإنسان بتقديم قربان أو القيام بفعل ديني إذا تحققت له أمنية أو نجا من خطر أو حصل على ما يطلبه. فإذا تحقق الأمر، كان عليه أن يفي بنذره. وهذا النوع من الممارسات يعكس طبيعة العلاقة الشخصية التي يمكن أن تنشأ بين الإنسان والمعبود.

وكانت الصلاة والدعاء وسيلة أخرى للتوجه إلى الآلهة. وقد ارتبطت بطلب الحماية أو الشفاء أو الخصوبة أو النجاح، كما يمكن أن تكون تعبيرًا عن الشكر أو التضرع. وتظهر النقوش والأدلة الأثرية أن الإنسان القديم كان يترك أحيانًا كتابات أو رموزًا مرتبطة بطلباته الدينية أو بتقديمه شيئًا للمعبود.

ولم تكن العبادة مقتصرة على المعبد. فقد ارتبطت بعض الطقوس بالبيوت والقبور والأماكن الطبيعية، بحسب التقليد الديني والمكان. وهذا يدل على أن المقدس لم يكن محصورًا دائمًا داخل بناء واحد، بل كان يمكن أن يحضر في جوانب متعددة من حياة الإنسان.

وكانت الأعياد الدينية مناسبة مهمة لممارسة الطقوس والاحتفالات. وقد ترتبط بدورة الزراعة والمواسم، أو بمعبود معين، أو بقصة أسطورية، أو

بتجدد الحياة والخصوبة. وكانت بعض الاحتفالات تتضمن المواكب والقرابين والموسيقى والرقص وتجمع الناس، فتحول الدين في هذه المناسبات إلى حدث اجتماعي واسع.

وكانت الموسيقى والغناء جزءًا من بعض الطقوس، إذ يمكن استخدام الآلات الموسيقية والأناشيد والترانيم أثناء الاحتفالات الدينية والمواكب. وكان الصوت والحركة والرقص يساعدان على خلق أجواء احتفالية مرتبطة بالمقدس. ومن الممارسات المهمة أيضًا التطهير. فقد ارتبطت بعض الطقوس بتنظيف الإنسان أو المكان قبل أداء العبادة، واستخدم الماء وغيره من الوسائل في ممارسات التطهير بحسب التقاليد المختلفة. وكان الهدف منها الانتقال من الحالة العادية إلى حالة يُنظر إليها باعتبارها أكثر ملاءمة للتعامل مع المقدس.

أما العرافة والتنبؤ فكانا جزءًا من محاولة الإنسان معرفة إرادة القوى الإلهية أو ما قد يحدث في المستقبل. وقد يبحث الإنسان عن الإشارات والعلامات في الظواهر الطبيعية أو في ممارسات دينية معينة، وكان أشخاص متخصصون يقومون بتفسير هذه العلامات وفق المعتقدات السائدة. ولم تكن هذه الممارسات متطابقة في جميع أنحاء بلاد الشام، بل اختلفت صورها وطرقها بحسب المجتمع والعصر.

وارتبطت بعض المعتقدات كذلك بالتعاويذ والممارسات السحرية، خصوصًا في مواجهة المرض والخطر والقوى الشريرة. وكان الإنسان القديم قد لا يرى حدودًا واضحة بين الدين والسحر بالمعنى الحديث؛ فقد تتداخل الدعوات والرموز والتمائم والتعاويذ مع الممارسات الدينية، بهدف الحماية أو العلاج أو إبعاد الشر.

الكاهن ودوره في الطقوس

وكان الكاهن من أهم الشخصيات المرتبطة بالعبادة المنظمة. ولم يكن دوره مجرد الوقوف أمام المعبود وإقامة الصلاة، بل كان يمكن أن تشمل مهمته رعاية المعبد، والإشراف على القرابين، وإقامة الطقوس في أوقاتها، والمحافظة على الأدوات والأماكن المقدسة، والمشاركة في الأعياد والمواكب، وفي بعض التقاليد القيام بممارسات العرافة أو تفسير العلامات.

وكانت خدمة المعبد تتطلب معرفة بالتقاليد والطقوس التي توارثها المجتمع، ولذلك لم تكن العبادة المنظمة أمرًا عشوائيًا. فهناك أوقات وطرق محددة لإقامة بعض الشعائر، وأنواع معينة من القرابين، وقواعد تتعلق بالطهارة والاستعداد للطقس. وقد شارك في خدمة المعابد أشخاص آخرون إلى جانب الكاهن، بحسب حجم المعبد وطبيعة المؤسسة الدينية.

وكان للكاهن مكانة مهمة لأنه يمثل حلقة وصل بين المجتمع والمجال المقدس، لكنه لم يكن بالضرورة صاحب سلطة مطلقة على الدين أو المجتمع في كل بلاد الشام؛ فقد اختلفت مكانته وصلاحياته بحسب المكان والعصر والنظام الديني. كما كان للحاكم في بعض المجتمعات دور ديني مهم، وقد ارتبطت شرعيته السياسية برعاية الآلهة والمعابد وإقامة الشعائر.

وهكذا كانت الطقوس الوثنية منظومة واسعة دخلت في تفاصيل الحياة اليومية قربان يُقدَّم، ونذر يُوفى، وبخور يُحرق، وصلاة تُرفع، ومعبد تُقام فيه الشعائر، وكاهن يشرف على الطقوس، واحتفال يجتمع فيه الناس، وعراف يبحث عن علامة تكشف ما تخفيه الآلهة.

لكن كل هذه الممارسات كانت مرتبطة بسؤال أعمق من العبادة نفسها ماذا يحدث للإنسان عندما تنتهي حياته؟ وهل تنتهي علاقته بالعالم المقدس عند الموت، أم أن هناك وجودًا آخر ينتظره؟

ومن هنا نصل إلى واحد من أكثر جوانب المعتقدات القديمة غموضًا وأهمية الموت والعالم الآخر.

الموت والعالم الآخر

كان الموت من أعمق الأسئلة التي واجهت الإنسان القديم. فالجسد يتوقف عن الحركة، والإنسان الذي كان يتحدث ويعمل ويأكل ويعيش بين أهله يصبح بلا حياة، لكن هذا لم يكن يعني بالضرورة في نظر الإنسان القديم أن وجوده قد انتهى تمامًا. ومن هنا ظهرت تصورات متعددة عن الروح، وعن مصير الميت، وعن العالم الذي يمكن أن تنتقل إليه قوى الإنسان أو روحه بعد الموت. ولم تكن هناك عقيدة واحدة موحدة حول الموت في جميع أنحاء بلاد الشام، بل اختلفت التصورات باختلاف المجتمعات والعصور. ومع ذلك، تكشف المدافن واللقى الأثرية والنصوص القديمة عن اهتمام واضح بالموتى، وعن اعتقاد بأن الميت يحتاج إلى معاملة خاصة بعد وفاته.

كان دفن الميت جزءًا مهمًا من هذه العلاقة. فقد عُثر في مناطق مختلفة من بلاد الشام على قبور بأشكال متعددة، ووضعت مع بعض الموتى أشياء وأوانٍ وأدوات وحلي وغيرها من المقتنيات. ولا يمكن تفسير كل هذه الأشياء على أنها دليل مؤكد على اعتقاد واحد بشأن الحياة بعد الموت، لكن وجودها يدل على أن الموت لم يكن حدثًا عاديًا في نظر المجتمعات القديمة، وأن للميت مكانة وطقوسًا خاصة.

وفي بعض التقاليد كان يُعتقد أن الميت يستمر في وجود ما بعد الموت بطريقة ما، وأن أرواح الموتى يمكن أن تبقى مرتبطة بعالم الأحياء. ولذلك ظهرت ممارسات تتعلق بتقديم الطعام أو الشراب أو القرابين للموتى، وربما كان الهدف منها الحفاظ على العلاقة بينهم وبين أفراد أسرهم الذين بقوا على قيد الحياة. وكانت القرابين الجنائزية وسيلة من وسائل تكريم الميت أو رعاية روحه وفق التصورات الدينية السائدة. وقد تتضمن الطعام والشراب أو أشياء أخرى. وكان الاعتقاد بأن الميت يحتاج إلى الرعاية بعد دفنه سببًا في استمرار بعض الطقوس المرتبطة بالقبر والموتى.

كما ظهرت في المعتقدات القديمة فكرة العالم السفلي، وهو عالم يرتبط بالموتى وتوجد فيه قوى أو آلهة مرتبطة بالموت. ومن أبرز الشخصيات الدينية التي ارتبطت بهذه الفكرة الإله موت في التقاليد الأوغاريتية، الذي يمثل قوة الموت ويظهر في الأساطير بوصفه خصمًا لبعل.

وتقدم الأساطير الأوغاريتية صورة مهمة عن تصور الموت والحياة والتجدد. ففي قصة بعل وموت، يدخل بعل في مواجهة مع موت، ويغيب ثم يعود، وترتبط القصة بدورة الطبيعة والمطر والخصوبة. ولا ينبغي فهم هذه الأسطورة على أنها وصف حرفي لعقيدة موحدة عن مصير كل إنسان بعد وفاته، لكنها تكشف كيف استخدم الإنسان القديم الأسطورة للتعبير عن الصراع بين الحياة والموت والجفاف والخصوبة والتجدد.

وكانت الروح مفهومًا معقدًا في العالم القديم، ولا يمكن اختزاله في مفهوم واحد يشبه تمامًا ما تعنيه كلمة الروح في الأديان اللاحقة. فقد استخدمت المجتمعات القديمة تصورات ومصطلحات مختلفة لوصف جوانب من وجود الإنسان وحياته بعد الموت، ولذلك يجب التعامل مع كل نص أو تقليد ضمن

سياقه الخاص كما كان هناك خوف من أن يؤدي إهمال الميت أو عدم إقامة الطقوس المناسبة إلى اضطراب العلاقة بين عالم الأحياء وعالم الموتى. ولهذا اكتسبت طقوس الدفن وتكريم الأسلاف أهمية كبيرة في بعض المجتمعات. وكان احترام الميت جزءًا من احترام الأسرة والتقاليد، وليس مجرد إجراء لدفن الجسد.

أما فكرة الحساب بعد الموت، فيجب التعامل معها بحذر شديد عند الحديث عن بلاد الشام القديمة. فالتصورات الدينية في المنطقة لم تكن واحدة، والأدلة المتوفرة لا تسمح لنا بإسناد عقيدة موحدة عن محاكمة جميع الموتى أو حسابهم على أعمالهم بالطريقة التي ستظهر بوضوح في بعض الأديان اللاحقة. لذلك من الأفضل عدم إسقاط مفاهيم دينية متأخرة على المعتقدات الأقدم. وبالمثل، لا يمكن القول إن جميع شعوب بلاد الشام آمنت بجنة وجحيم بالمعنى المعروف في الأديان اللاحقة. فقد كانت تصورات العالم الآخر متنوعة، وفي بعض التقاليد كان التركيز أكبر على عالم الموتى نفسه وعلى مصير الروح واستمرار العلاقة مع الأسلاف، بدلًا من وجود نظام واضح قائم على الثواب والعقاب الأبديين.

وكان الموت أيضًا حاضرًا في الأساطير التي تناولت الآلهة والبشر. فبعض القصص تحدثت عن موت إله أو غيابه أو عودته، واستخدمت هذه القصص للتعبير عن تغير الفصول ودورة الطبيعة وتجدد الحياة. ولذلك لم يكن الموت في المخيلة الدينية القديمة نهاية منفصلة عن الحياة، بل كان جزءًا من دورة كونية أكبر في بعض التقاليد. وهكذا تكشف لنا طقوس الموت والدفن عن جانب أساسي من التفكير الديني في بلاد الشام القديمة. فالإنسان لم يكن يواجه الموت باعتباره نهاية مجهولة فقط، بل حاول أن يمنحه معنى، وأن

يحافظ على صلته بمن رحلوا، وأن يتصور عالمًا آخر تسكنه أرواح الموتى وقوى إلهية مرتبطة بهم.

ومع مرور الزمن، لم تبقَ المعتقدات الدينية على صورتها الأولى. فقد تطورت الآلهة، وتغيرت وظائفها، واختلفت مكانتها، وأعيد تفسير بعض المعتقدات القديمة، وظهرت تصورات أكثر تعقيدًا عن الإله والإنسان والشر والموت. ومن هذه التحولات الطويلة بدأ العالم الديني في بلاد الشام ينتقل تدريجيًا إلى مراحل جديدة، ستقودنا في النهاية إلى ظهور تقاليد دينية مختلفة جذريًا عن عالم الآلهة المتعددة.

لم تقتصر معرفة إرادة الآلهة في بلاد الشام القديمة على النبوءات المباشرة، بل استُخدمت وسائل متعددة لطلب الإشارة قبل اتخاذ القرارات. كان الفأل يقوم على ملاحظة حادثة أو علامة غير متوقعة واعتبارها رسالة ذات دلالة، بينما كان الكاهن أو العرّاف يفسر ما يظهر له من علامات أو ينقل جواب الإله بعد استشارته. وكانت الأحلام من أكثر الوسائل شيوعًا، إذ عُدَّ الحلم الذي يأتي فيه الإله أو يرسل فيه رسالة وسيلة للكشف عن أمر قادم؛ وتضم أرشيفات ماري رسائل يرفع فيها أشخاص إلى الملك ما رأوه في أحلامهم وما حملته من رسائل إلهية. كما عُرفت استطلاعات القرابين، ولا سيما فحص أحشاء الحيوان المذبوح، بحثًا عن علامات يُستدل منها على قبول الآلهة أو رفضها للحرب أو القرار المزمع اتخاذه. وكان يمكن كذلك مراقبة الظواهر السماوية، مثل الكسوف وحركة الكواكب والنجوم، وتفسيرها بوصفها علامات تحمل إنذارًا أو بشارة. وهكذا لم تكن العرافة مجرد محاولة عشوائية لمعرفة المستقبل، بل كانت في نظر أصحابها وسيلة للتواصل مع العالم الإلهي وقراءة إرادته من خلال الحلم، والفأل، والقربان، والظاهرة السماوية، أو كلام الكاهن والعرّاف.

عندما كانت النبوءة تدخل في اتخاذ القرار و تحديد المصير

(١)نبوءة شَمَش للملك زمري-ليم

التاريخ: القرن الثامن عشر قبل الميلاد، في عهد الملك زمري-ليم ملك ماري.

صاحبها: نبي يُسمّى أبيلوم كان يتحدث باسم الإله شَمَش.

المصدر: رسالة محفوظة ضمن أرشيف ماري، وهي من مجموعة الرسائل التي تنقل أقوال الأنبياء إلى زمري-ليم. وتوجد عشرات الرسائل في أرشيف ماري التي تتعلق بالنبوة والأنبياء.

كانت مملكة ماري في صراع سياسي وعسكري، وكان زمري-ليم يحتاج إلى معرفة ما إذا كان يستطيع مواجهة خصومه. وفي إحدى الرسائل نُقلت إليه رسالة من الإله شَمَش تقول، بمعناها «لا تخف عندما يهاجمك حمورابي ملك قُردا، ستكون أنت المنتصر. وبعد ذلك أعفِ البلاد من ديونها، وسأعطيك البلاد كلها. وعندما تستولي على المدينة، أعلن العفو عن الديون.»

والأطرف تاريخيًا أن النبوءة لم تتحقق كما وردت. فقد توقعت لزمري-ليم الانتصار، لكن حمورابي البابلي تمكن في النهاية من تدمير ماري. أي أننا أمام مثال واضح على نبوءة سياسية قديمة يمكننا مقارنتها بالحدث التاريخي ومعرفة أنها أخطأت في النتيجة.

(٢) نبوءة بعل شمين للملك زكّور

التاريخ: نحو ٨٠٠–٧٨٥ ق.م.

صاحبها: الإله الآرامي بعل شمين، ونُقلت رسالته إلى الملك بواسطة الرائين والعرافين.

صاحب الحدث: زكّور، ملك حماة ولُعاش.

المصدر: مسلّة زكّور المكتشفة في تل أفيس قرب حماة.

كان زكّور محاصرًا في حصراخ من تحالف ضخم قاده برهدد، ملك آرام دمشق، وضم التحالف سبعة عشر ملكًا وجيوشهم. وصل الأمر إلى أن المحاصرين أقاموا حول المدينة سورًا أعلى من سورها وحفروا خندقًا أعمق من خندقها. عندها رفع زكّور يديه إلى بعل شمين، فجاءه الجواب عن طريق الرائين والعرافين «لا تخف، لأنني جعلتك ملكًا، وسأقف إلى جانبك، وسأنقذك من جميع هؤلاء الملوك الذين يحاصرونك.»

وهنا لدينا نبوءة وثنية واضحة جدًا ملك محاصر، إله يتكلم من خلال رائين، ووعد محدد بالخلاص من جيش الأعداء.

والجزء المثير أن بقية المسلّة مكسور، لذلك لا نعرف من النص نفسه كل تفاصيل كيفية انتهاء الحصار. لكن زكّور نجا من الأزمة واستمر ملكًا، وتشير الأدلة إلى تدخل آشوري في المنطقة في تلك الفترة.

(٣) رؤيا بلعام بن بعور كارثة قادمة

التاريخ: نحو القرن التاسع–الثامن قبل الميلاد، والنقش نفسه يُؤرَّخ عادةً إلى نحو ٨٤٠–٧٦٠ ق.م.

المكان: دير علّا في وادي الأردن.

صاحب الرؤيا: بلعام بن بعور، الذي يصفه النص بأنه رائي الآلهة.

المصدر: نقش دير علّا المكتوب بالحبر الأحمر والأسود على الجص.

وهذه حالة مذهلة لأن الاسم نفسه معروف لنا من سفر العدد، لكننا هنا أمام نص خارج الكتاب المقدس. يقول النص إن الآلهة جاءت إلى بلعام ليلًا، ورأى رؤيا وفق قول إيل، ثم أُعلن له «هكذا سيكون الأمر، ولن يبقى شيء.»

وفي الصباح لم يستطع بلعام أن يأكل، وبقي يومين صائمًا باكيًا، ثم جمع الناس وأخبرهم بما رآه. كانت الرؤيا تتحدث عن اضطراب كوني مخيف اجتماع الآلهة، وإغلاق السماء بالسحب، وانتشار الظلام بدل النور، ثم انقلاب النظام الطبيعي؛ فالطيور تتصارع بطريقة غريبة، والحيوانات تتصرف على نحو غير مألوف، ويظهر في النص المرض والخراب والمشقة.

والأجمل أن النص لا يكتفي بالرؤيا عندما تقع المصيبة، يلجأ الناس إلى العرافين والكاهنة والتعاويذ والقرابين في محاولة لإنقاذ الأرض والإلهة.

لكن هنا لازم نكون دقيقين جدًا النقش لا يعطينا سنة أو ملكًا نستطيع القول إن الكارثة حدثت في عهده؛ لذلك لا يجوز أن نقول «تحققت النبوءة سنة كذا». هي ببساطة واحدة من أقدم الرؤى التنبؤية المحفوظة من بلاد الشام، وفيها وصف واضح لكارثة مستقبلية.

(٤) نبوءة دَجَان وتحذير زمري-ليم من إشنونة

التاريخ: القرن الثامن عشر ق.م.

صاحبها: النبي لوباحوم، المرتبط بمعبد دَجَان في تُتّول.

المصدر: رسالة من أرشيف ماري إلى الملك زمري-ليم.

كانت مملكة إشنونة تتحرك سياسيًا وعسكريًا في المنطقة، وكان هناك حديث عن الصلح بينها وبين ماري. فجاءت الرسالة إلى زمري-ليم محذرةً من الثقة بهذا الصلح، ونقلت له كلام دَجَان. مضمون النبوءة أن الملك لا ينبغي أن يركن إلى إشنونة، وأن عليه أن يبقى مستعدًا، لأن الخطر لم ينتهِ. وتستعيد الرسالة أيضًا وعدًا إلهيًا سابقًا بالنصر على أعداء ماري. لدينا في أرشيف ماري عشرات الرسائل التي تنقل مثل هذه الرسائل النبوية إلى زمري-ليم.

وهنا النبوءة ليست تنبؤًا بعيدًا بالمستقبل، بل تحذير سياسي مباشر من قرار سيُتخذ: لا تثق بالصلح، واستعد لما سيأتي.

(٥) نبوءة شَمَش «سيكون النصر لك»

التاريخ: القرن الثامن عشر ق.م.

المتلقي: زمري-ليم ملك ماري.

المصدر: رسالة نبوية من أرشيف ماري.

في إحدى الرسائل التي وصلت إلى الملك، نُقلت رسالة من الإله شَمَش تتعلق بالحرب. ويظهر فيها الإله باعتباره صاحب القرار في مصير المعركة، ويُطلب من الملك ألا يخاف، لأن الإله سيقف إلى جانبه.

واللافت هنا أن الرسائل المارية لا تقتصر على رؤى غامضة؛ بعضها يتناول الحرب والعدو والقرار الذي ينبغي للملك اتخاذه. ولهذا يُعد أرشيف ماري من أهم الشواهد على النبوءة الملكية في الشرق الأدنى القديم.

(٦)نبوءة مجهولة من دير علّا «النار للعقاب قد ظهرت»

في الجزء الآخر من النص، تظهر عبارة شديدة الوضوح عن كارثة قادمة

«ظهرت الشعلة الأخيرة، وظهر نار العقاب.»

والنص شديد التلف، لذلك لا نستطيع إعادة بناء كل ما كانت النبوءة تتنبأ به بثقة. لكن وجود نار العقاب و«المصائب» واضح في الأجزاء المقروءة، ولذلك يمكن استخدامها بوصفها جزءًا من تقاليد الرؤى الكارثية في بلاد الشام، مع التنبيه إلى أن بقية النص مفقودة.

(٧) نبوءة دَجَان «سأجمع بابل في شبكتي»

التاريخ: القرن الثامن عشر ق.م.

المكان: ماري، على الفرات.

صاحبها: نبي دَجَان في تُتّول.

المتلقي: زمري-ليم ملك ماري.

المصدر: رسالة نبوية من أرشيف ماري.

بعد تقديم قربان للإله دَجَان، وقف النبي وأعلن كلام الإله. وكان الحديث هذه المرة موجّهًا ضد بابل «يا بابل، لماذا تفعلين الشر دائمًا؟ سأجمعك في شبكتي، وسأضع بيوت الحلفاء السبعة وكل ثرواتهم في يد زمري-ليم.»

ثم ينقطع النص، فلا نعرف بقية النبوءة كاملة. لكن العبارة المحفوظة واضحة جدًا بابل نفسها تُصوَّر كعدو سيقع في شبكة الإله، وثروات حلفائها ستؤول إلى زمري-ليم.

(٨) نبوءة أَدَد حاكم حلب

التاريخ: القرن الثامن عشر ق.م.

المكان: مملكة يمحاض، مركزها حلب.

المتلقي: زمري-ليم.

صاحبها: الإله أَدَد، رب حلب.

المصدر: رسالة نقلها نُور-سين، أحد المسؤولين في ماري.

يُذكّر أَدَد زمري-ليم بأنه هو الذي أعاده إلى عرش آبائه، ثم يضع أمامه شرطًا «إذا نفّذ رغباتي، فسأعطيه عرشًا فوق عرش، وبيتًا فوق بيت، وأرضًا فوق أرض، ومدينة فوق مدينة. وسأعطيه الأرض من شروق الشمس إلى غروبها.»

لكن الإله يهدده في الوقت نفسه ما منحه للملك يستطيع أن يسترده إذا لم يطع.

(٩) نبوءة أَدَد أخرى «لا تخرج إلى الحرب بلا نبوءة»

التاريخ: القرن الثامن عشر ق.م.

المكان: ماري/حلب.

صاحبها: أَدَد، رب حلب.

المصدر: نص نُقل على لسان نبي أَدَد.

يقول الإله للملك، بمعنى النص «عندما تشارك في حملة، لا تخرج أبدًا من دون استشارة نبوءتي. فإذا كان جوابي في النبوءة مؤاتيًا، فاخرج إلى الحرب؛ وإذا لم يكن كذلك، فلا تخرج من بوابة المدينة.»

(١٠) نبوءة ديريتوم «سأكسر رمح العيلامي»

التاريخ: القرن الثامن عشر ق.م.

المكان: ماري.

صاحبة النبوءة: الإلهة ديريتوم.

النبي: قِشتي-ديريتوم.

المتلقي: زمري-ليم.

المصدر: رسالة من الملكة شِبتو إلى زوجها.

كان الخطر هذه المرة من العيلاميين، إحدى القوى الكبرى في المنطقة. وتنقل الرسالة وعدًا إلهيًا واضحًا «سأكسر رمح العدو العيلامي.»

(١١) نبوءة أَدَد «أعطِ المظلوم حقه»

وهذه من أغرب ما وجدته، لأنها ليست نبوءة عن حرب، بل رسالة إلهية إلى الملك.

التاريخ: القرن الثامن عشر ق.م.

المكان: ماري/حلب.

صاحبها: أَدَد رب حلب.

المصدر: رسالة نُقلت عن نبي الإله.

يقول أَدَد لزمري-ليم إنه هو الذي أعاده إلى عرش آبائه، ثم يطلب منه شيئًا محددًا «عندما يصرخ رجل أو امرأة مظلوم أمامك، قف واحكم في قضيته.»

ثم يعده بأن يمنحه الأرض مقابل الاستماع إلى هذه الوصية.

(١٢) نبوءة الإلهة كيتّيتوم لملك إشنونة

التاريخ: القرن الثامن عشر ق.م.

المكان: إشنونة، في منطقة ديالى، معاصرة لماري.

صاحبتها: الإلهة كيتّيتوم، وهي مظهر محلي لعشتار.

المتلقي: الملك إيبال-بيئيل الثاني.

المصدر: لوح نبوئي من معبدها.

«أيها الملك إيبال-بيئيل، هكذا تقول كيتّيتوم: أسرار الآلهة موضوعة أمامي وبأمر أنو أُعطيت لك البلاد لتحكمها. ستستعيد بلاد الشمال والجنوب، وستجمع ثرواتهما. لن تتراجع تجارتك، وسيثبت طعام السلام في كل بلد تمتد إليه يدك. وأنا، كيتّيتوم، سأقوي أساس عرشك.»

النص محفوظ بصورة جيدة نسبيًا، ولذلك نستطيع عرضه للقارئ كـ نبوءة ملكية كاملة تقريبًا الإلهة تمنح الملك الحكم، وتتنبأ باتساع سلطته وثروته واستقرار عرشه.

(١٣) نبوءة عشتار في رؤيا المعركة

في نص من تقاليد ماري، تظهر عشتار في رؤيا مرتبطة بالحرب. تظهر وهي مسلحة، ثم تأمر الملك بألا يخرج للقتال، وتقول له إنها ستذهب هي نفسها لمواجهة العدو. وتظهر بعد ذلك متجهة إلى تُومّان ملك عيلام.

(١٤) نبوءة آمون في جبيل «هو الذي أرسله»

التاريخ: نحو القرن الحادي عشر قبل الميلاد، في الفترة الانتقالية الثالثة في مصر.

المكان: جبيل.

المصدر: تقرير ون آمون المصري.

المتلقي: زكربعل، حاكم جبيل.

صاحب الرسالة: الإله المصري آمون، عبر شاب من أهل قصر حاكم جبيل دخل في حالة نشوة دينية.

كان ون آمون قد وصل إلى جبيل للحصول على خشب الأرز، لكنه لم يلقَ استقبالًا جيدًا. بقي في الميناء مدة طويلة، وكان حاكم جبيل يرفض مقابلته ويطلب منه الرحيل ثم حدث أمر غريب.

أثناء قيام الحاكم بتقديم القرابين لآلهته، استولى الإله على أحد شباب الحاشية وأدخله في حالة من النشوة. وفي تلك الحالة بدأ الشاب يصرخ بأن عليهم إحضار الإله ورسوله، ثم أعلن أن آمون هو الذي أرسل ون آمون إلى جبيل، وأن آمون نفسه هو الذي جعله يأتي.

وكانت هذه اللحظة هي التي غيّرت موقف زكربعل؛ إذ استدعى ون آمون بعد ذلك، وبدأ التفاوض معه بدل طرده.

ملاحظة تاريخية: هذه ليست نبوءة من إله فينيقي؛ الإله هنا آمون المصري، لكن المشهد وقع في جبيل الفينيقية وبين حاكمها وحاشيته، ولذلك يمكن إدخاله ضمن مادة النبوءات في الشام، مع توضيح أصله المصري.

من عالم الآلهة المتعددة إلى تحولات دينية جديدة

لم تبقَ المعتقدات الدينية في بلاد الشام ثابتة طوال تاريخها، بل تغيرت مع تغير المجتمعات والأفكار والظروف السياسية والثقافية. فالآلهة التي كانت تحتل مكانة بارزة في فترة معينة قد تتراجع أهميتها في فترة أخرى، وقد تنتقل عبادة إله من منطقة إلى أخرى، أو تتداخل صفات إله مع صفات إله آخر، كما ظهرت تصورات جعلت بعض الآلهة أكثر أهمية من غيرها.

ومع مرور الزمن، بدأ التفكير الديني يطرح أسئلة أعمق حول طبيعة القوة الإلهية وعلاقتها بالإنسان والعالم. فإذا كانت هناك آلهة كثيرة، فهل جميعها متساوية في القوة؟ وهل توجد بينها قوة عليا؟ وما مصدر النظام في الكون؟ ولماذا تحدث الكوارث والمرض والموت؟ وما الذي يريده الإله من الإنسان؟

ولم يكن الانتقال من تعدد الآلهة إلى تصورات دينية أكثر تركيزًا على إله واحد انتقالًا مفاجئًا أو بسيطًا. فقد مرت المنطقة بمراحل طويلة من التغير الديني، واستمرت بعض المعتقدات القديمة إلى جانب معتقدات جديدة، كما احتفظت تقاليد لاحقة ببعض الأفكار والرموز والطقوس القديمة بعد أن أعادت تفسيرها ضمن أنظمتها الدينية الخاصة.

وهنا تكمن أهمية دراسة الوثنية قبل الانتقال إلى الأديان اللاحقة؛ فهي تكشف لنا البيئة الدينية والفكرية التي سبقت ظهور تلك الأديان، وتوضح كيف كان الإنسان في بلاد الشام ينظر إلى الإله والطبيعة والإنسان والموت والطقوس قبل أن تتغير الخريطة الدينية للمنطقة.

ومن هذا العالم القديم، بما حمله من آلهة وأساطير ومعابد وقرابين وطقوس وتصورات عن الحياة والموت، تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ التدين في بلاد الشام؛ مرحلة ستشهد تغيرًا كبيرًا في مفهوم الإله، وفي علاقة الإنسان به، وفي معنى العبادة والشريعة والمقدس.

وهنا نضع حدًا لعالم الوثنية، ونبدأ بالبحث في المرحلة الدينية التي ستأتي بعدها، مع الحفاظ على التسلسل التاريخي وعدم افتراض أن التغيير حدث دفعة واحدة.

من البيئة الوثنية إلى ظهور عبادة يهوه

لم تظهر اليهودية في بلاد الشام في عالم ديني خالٍ من المعتقدات السابقة، بل نشأت داخل بيئة كانت تعرف تعدد الآلهة والطقوس والمعابد والقرابين، وكانت المعتقدات الدينية جزءًا أساسيًا من حياة المجتمعات التي عاشت في المنطقة. ولهذا فإن فهم بدايات اليهودية يحتاج أولًا إلى فهم البيئة الدينية التي ظهرت فيها.

كانت الجماعات الإسرائيلية القديمة جزءًا من هذا العالم الثقافي والديني الأوسع، وتشابهت في بعض جوانب حياتها الدينية مع المجتمعات المحيطة بها، بينما بدأت في الوقت نفسه تتشكل لديها عبادة خاصة بالإله يهوه. ولم

يكن التحول من البيئة متعددة الآلهة إلى التوحيد الكامل تحولًا مفاجئًا، بل كان عملية طويلة ومعقدة امتدت عبر أجيال.

وفي المراحل المبكرة، لا تظهر الأدلة على أن مفهوم التوحيد الصارم كان قد اكتمل منذ البداية بالشكل الذي أصبح عليه لاحقًا. فقد عاشت عبادة يهوه في بيئة كانت تعرف آلهة أخرى، وظهرت عبر التاريخ الديني الإسرائيلي محاولات متكررة لمواجهة عبادة هذه الآلهة وترسيخ مكانة يهوه باعتباره المعبود الذي يجب أن يتوجه إليه بنو إسرائيل.

وهنا يجب أن نفرّق بين مرحلتين مهمتين عبادة إله واحد، أي أن يختار الإنسان إلهًا واحدًا للعبادة دون أن يعني ذلك بالضرورة إنكار وجود آلهة أخرى، وبين التوحيد، الذي يقوم على الإيمان بأن هناك إلهًا واحدًا فقط، وأن الآلهة الأخرى ليست آلهة حقيقية.

وهذا الفرق مهم لفهم تاريخ اليهودية؛ لأن فكرة التوحيد لم تظهر مكتملة في لحظة واحدة، وإنما تطورت تدريجيًا داخل الفكر الديني الإسرائيلي، ورافقتها مواجهة مع تقاليد ومعبودات كانت راسخة في البيئة المحيطة.

ومع مرور الزمن أصبحت عبادة يهوه أكثر مركزية، وأخذت صفاته ومكانته تتضحان في النصوص الدينية والتقاليد التي وصلت إلينا. وأصبح يهوه الإله الذي تُنسب إليه الخَلق والسلطة والحماية والتشريع، ثم ترسخت بصورة متزايدة فكرة أن العبادة يجب أن تكون له وحده.

لكن هذه العملية لم تكن مجرد تغير في اسم المعبود، بل كانت تحولًا في طريقة فهم العلاقة بين الإنسان والإله. ففي النظام الوثني الذي تناولناه سابقًا كان العالم الديني قائمًا على مجموعة من الآلهة ذات الوظائف المختلفة، بينما أخذت عبادة يهوه تتجه تدريجيًا نحو تصور أكثر شمولًا للإله، بحيث لا يكون

مجرد إله مرتبط بقوة طبيعية أو وظيفة محددة، بل إلهًا أعلى يرتبط به الإنسان من خلال العبادة والشريعة والطاعة.

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الدين في بلاد الشام؛ مرحلة ستتغير فيها مفاهيم العبادة والإله والشريعة والطقوس، وستتطور خلالها فكرة التوحيد حتى تصبح من أهم سمات الديانة التي نعرفها اليوم باسم اليهودية.

ولفهم هذا التحول بصورة أدق، علينا أن نبدأ من الشخصية الإلهية التي قامت حولها هذه العملية كلها يهوه، وكيف تطورت مكانته وصفاته وفكرة عبادته عبر الزمن.

يهوه وتطور فكرة الإله الواحد

يُعد يهوه محورًا أساسيًا في تاريخ الدين الإسرائيلي، لكن فهم بدايات عبادته يحتاج إلى الحذر؛ فالمصادر التي وصلت إلينا لا تقدم صورة واحدة ثابتة عن بداياته، كما أن النصوص الدينية التي جُمعت وتطورت عبر فترات طويلة تعكس مراحل مختلفة من التفكير الديني. لذلك لا يمكن اختزال تاريخ يهوه في لحظة واحدة ظهر فيها التوحيد مكتملًا، بل ينبغي النظر إليه باعتباره مسارًا دينيًا طويلًا.

يظهر اسم يهوه في النصوص العبرية بوصفه الاسم الخاص بالإله الذي عبده بنو إسرائيل. وقد ارتبط به عدد من الأسماء والصفات والألقاب، وأصبح مع مرور الزمن الإله الذي تُنسب إليه القوة والحماية والتشريع والخلق، وتطورت صورته من إله مرتبط بجماعة معينة إلى الإله الواحد الذي يحكم الكون كله في التصور اليهودي اللاحق.

وتشير بعض الشواهد الأثرية والنقوش القديمة إلى أن عبادة يهوه نشأت في بيئة كانت تعرف تعدد الآلهة، وأن تصور الإله في المراحل المبكرة لم يكن مطابقًا بالضرورة للتصور اليهودي اللاحق عن الإله الواحد. وهذا أمر مهم، لأن تاريخ الأديان لا يُفهم من خلال صورته النهائية فقط، بل من خلال تتبع التحولات التي مر بها الاعتقاد عبر الزمن.

وفي هذه البيئة كان يهوه يُعبد بوصفه الإله الذي ترتبط به جماعة إسرائيل، بينما كانت الآلهة الأخرى جزءًا من العالم الديني المحيط بها. ولذلك ظهرت في النصوص الدينية انتقادات متكررة لعبادة آلهة أخرى، مثل بعل وعشتروت وغيرها، وهو ما يكشف أن الصراع مع المعتقدات المنافسة كان جزءًا من عملية ترسيخ عبادة يهوه.

ومع تطور الفكر الديني، بدأت صفات كانت مرتبطة في العالم القديم بآلهة مختلفة تُنسب بصورة متزايدة إلى يهوه. فأصبح إله المطر والعاصفة والحرب والحماية والعدل والخلق، ولم يعد مرتبطًا بوظيفة واحدة محددة. وهذا التوسع في صفاته ساعد على انتقال صورته من إله له مكانة بين آلهة متعددة إلى إله ذي سلطة شاملة.

وكانت الوصايا والشريعة عنصرًا أساسيًا في هذا التحول. فالعلاقة بين الإنسان ويهوه لم تعد تقوم فقط على تقديم القرابين وطلب الحماية، وإنما أصبحت مرتبطة أيضًا بالطاعة والالتزام بمجموعة من القواعد الدينية والأخلاقية. وبذلك أخذ الدين يشكل نمط حياة كاملًا، وليس مجرد مجموعة من الطقوس.

كما أصبح مفهوم العهد من الأفكار المركزية في الدين الإسرائيلي. ويقوم العهد، في صورته الدينية، على علاقة خاصة بين يهوه وبني إسرائيل، ترتبط

بالطاعة والالتزام من جانب الجماعة، وبالحماية والوعود الإلهية من الجانب الآخر. وقد تطورت فكرة العهد وأخذت مكانة مهمة في النصوص الدينية اليهودية.

ومع مرور الزمن، ازداد رفض عبادة الآلهة الأخرى، وظهرت دعوات دينية تؤكد أن العبادة يجب أن تكون ليهوه وحده. وكان للأنبياء دور مهم في هذا الاتجاه، إذ لم ينتقدوا عبادة الآلهة الأخرى فحسب، بل ربطوا العبادة أيضًا بالأخلاق والعدل وحقوق الضعفاء. وهنا نقترب من التحول الأكبر لم يعد يهوه مجرد الإله الذي تتوجه إليه جماعة معينة، بل أخذ التصور الديني يتجه نحو الاعتقاد بأنه الإله الواحد لجميع البشر، وخالق السماء والأرض، ولا وجود لإله آخر يشاركه الألوهية. وهذه هي النقلة الأساسية من عبادة إله واحد إلى التوحيد الكامل.

لكن هذه النقلة لم تحدث في يوم واحد، ولم تكن كل الجماعات والأفراد في المجتمع الإسرائيلي القديم على الدرجة نفسها من الالتزام بها. فقد استمرت عبادة المعبودات الأخرى في فترات مختلفة، وهو ما تؤكده الانتقادات الكثيرة التي وجهتها النصوص الدينية نفسها إلى هذه الممارسات. ولو لم تكن هذه العبادات موجودة، لما كان هناك سبب لتكرار النهي عنها ومحاربتها. وهكذا أصبح تاريخ يهوه جزءًا من تحول ديني طويل من عبادة إله خاص بجماعة، داخل عالم ديني متعدد الآلهة، إلى ترسيخ الاعتقاد بإله واحد لا شريك له.
ومع هذا التحول تغيرت أيضًا طبيعة العبادة نفسها؛ فلم تعد القضية مجرد معرفة من هو المعبود، وإنما أصبحت مرتبطة بكيفية عيش الإنسان، وما يجب عليه فعله، وما يحرم عليه، وكيف يتعامل مع الآخرين ومع المجتمع ومن هنا ننتقل إلى الجانب الذي أعطى هذا الدين صورته العملية في حياة أتباعه الشريعة والعبادة.

الشريعة والعبادة

مع تطور عبادة يهوه، لم يعد الدين قائمًا على الإيمان بالإله وحده، بل أصبح مرتبطًا بمجموعة واسعة من القواعد التي تنظم حياة الإنسان اليومية. ولهذا احتلت الشريعة مكانة أساسية في الدين اليهودي، إذ لم تقتصر على العبادات بمعناها الضيق، وإنما تناولت جوانب متعددة من الحياة، مثل الطعام والملابس والطهارة والعلاقات الاجتماعية والقرابين والأعياد والراحة في يوم السبت.

وتحتل التوراة مكانة مركزية في اليهودية، وهي الاسم الذي يطلق على الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس العبري. وتضم هذه الأسفار مجموعة من الروايات والتشريعات والوصايا، وأصبحت مصدرًا أساسيًا للأحكام الدينية والتقاليد اليهودية. ومع مرور الزمن ظهرت تفاسير وشروحات واسعة لهذه النصوص، وأصبح فهم الشريعة وتطبيقها جزءًا أساسيًا من الحياة الدينية.

ومن أهم عناصر الشريعة الوصايا التي تحدد علاقة الإنسان بيهوه وبالآخرين. وتشمل الوصايا عبادته وحده، ورفض عبادة الآلهة الأخرى، واحترام بعض المقدسات، إلى جانب أحكام تتعلق بالأسرة والمجتمع والملكية والعدل والالتزامات بين الناس.

وكانت الصلاة وسيلة أساسية للتوجه إلى يهوه، سواء في أوقات العبادة أو في مناسبات خاصة. وتطورت الصلوات والنصوص المستخدمة فيها عبر التاريخ، وأصبحت الصلاة لاحقًا من أهم أشكال العبادة اليهودية، خصوصًا بعد تراجع الدور المركزي للهيكل والقرابين.

أما القرابين فكانت جزءًا مهمًا من العبادة في المراحل القديمة. وكانت تُقدَّم أنواع مختلفة من القرابين، منها الحيوانات والحبوب والزيت والخمر وغيرها، بحسب نوع القربان والغرض منه. وقد ارتبط بعضها بالشكر والنذر، وبعضها بالتكفير والتطهير، وبعضها بالمناسبات والأعياد.

ولم تكن جميع القرابين متشابهة؛ فقد عرفت الشريعة أنواعًا متعددة، لكل منها شروطها وهدفها. وكان اختيار الحيوان أو المادة وطريقة تقديمها ووقت تقديمها جزءًا من النظام الديني. وهذا يدل على أن العبادة كانت منظمة وفق قواعد محددة، وليست مجرد ممارسات فردية.

ومن أهم الممارسات الدينية أيضًا الطهارة والنجاسة. فقد وضعت الشريعة أحكامًا تتعلق بحالات معينة تجعل الإنسان أو الأشياء في حالة طقسية لا تسمح له بالمشاركة في بعض العبادات حتى يتم التطهر وفق القواعد المعروفة. ولم تكن النجاسة بالضرورة تعني أن الشخص ارتكب خطيئة، بل كانت في كثير من الحالات حالة دينية أو طقسية مرتبطة بأمور مثل المرض أو ملامسة الميت أو بعض وظائف الجسد.

وكان الطعام أيضًا جزءًا من النظام الديني. فقد حددت الشريعة حيوانات وأطعمة يجوز تناولها وأخرى تُعد محرمة، ووضعت قواعد تتعلق بطريقة التعامل مع بعض الأطعمة. وأصبح الالتزام بهذه الأحكام علامة مهمة على الهوية الدينية.

ومن الممارسات التي ارتبطت بالهوية الدينية كذلك الختان، الذي أصبح علامة أساسية في التقليد اليهودي وارتبط بفكرة العهد. وكان يُنظر إليه باعتباره علامة جسدية تميز الجماعة وترتبط بالعلاقة الدينية بينها وبين يهوه.

كما عرفت الشريعة النذور، حيث يتعهد الإنسان بتقديم شيء أو القيام بفعل معين أمام الله، ثم يصبح مطالبًا بالوفاء بما نذر به وفق الأحكام الدينية. وهذا يبين أن العلاقة بين الإنسان والإله لم تكن قائمة على الصلاة وحدها، بل شملت الالتزامات والتعهدات أيضًا.

وكانت الأخلاق جزءًا أساسيًا من الشريعة، وخاصة في النصوص والتقاليد التي تطورت لاحقًا. فالدين لم يتحدث فقط عن العبادة والطقوس، بل تناول أيضًا العدل والصدق واحترام الوالدين وحماية الضعفاء والأيتام والأرامل والغريب، والنهي عن الظلم والسرقة وشهادة الزور والقتل.

وهذه النقطة ستصبح أكثر وضوحًا مع ظهور الأنبياء؛ إذ سيؤكدون أن العبادة وحدها لا تكفي إذا كان الإنسان يمارس الظلم والفساد. وبذلك أخذ الدين يربط بين علاقة الإنسان بالله وسلوكه تجاه الإنسان الآخر.

ومع تطور اليهودية، أصبحت الشريعة أكثر من مجموعة قوانين دينية؛ أصبحت إطارًا ينظم حياة الجماعة ويحدد هويتها وعلاقتها بالمقدس. فحتى الأمور التي تبدو بسيطة، مثل الطعام أو الراحة في يوم معين أو طريقة التطهر، أصبحت تحمل معنى دينيًا يربط الحياة اليومية بالعقيدة.

لكن تنفيذ كثير من الطقوس الكبرى لم يكن متاحًا لكل فرد بصورة مستقلة؛ فقد ارتبطت العبادة المنظمة بمؤسسة دينية لها أماكنها وأشخاصها وقواعدها. وكان في مقدمة هذه المؤسسة الكهنة والهيكل، اللذان لعبا دورًا أساسيًا في العبادة اليهودية القديمة.

ومن هنا ننتقل إلى الكهنة والهيكل، لنرى كيف كانت العبادة تُنظم، ومن كان يملك حق أداء الطقوس، وكيف احتل الهيكل مكانة مركزية في الحياة الدينية.

الكهنة والهيكل

كان الكهنوت من أهم المؤسسات الدينية في اليهودية القديمة، لأن العبادة في مراحلها المبكرة كانت تعتمد بدرجة كبيرة على وجود أشخاص مخصصين لخدمة المقدسات وإقامة الطقوس وتقديم القرابين. ولم يكن الكاهن مجرد شخص يصلي نيابة عن الآخرين، بل كان له دور محدد داخل النظام الديني، تحكمه قواعد تتعلق بالخدمة والطهارة والقرابين والأماكن المقدسة.

وترتبط التقاليد اليهودية بالكهنوت ارتباطًا خاصًا بـهارون، الذي يُقدَّم في الرواية التوراتية بوصفه أول رئيس للكهنة، ومن نسله جاء الكهنة الذين تولوا خدمة المذبح والطقوس. أما اللاويون فكانوا جماعة مرتبطة بخدمة المقدسات، وكانت لهم مهام مختلفة داخل المؤسسة الدينية، ولم يكن كل لاوي كاهنًا بالضرورة.

وكان الكاهن مسؤولًا عن أداء عدد من الطقوس، وفي مقدمتها تقديم القرابين. وكان عليه أن يلتزم بقواعد محددة أثناء أداء خدمته، لأن التعامل مع المقدسات كان يخضع لشروط الطهارة والقداسة. كما شارك الكهنة في الأعياد والمناسبات الدينية، وكان لهم دور في بعض أعمال التعليم الديني وحفظ التقاليد.

ولم يكن الكاهن يعمل بمعزل عن بقية المؤسسة الدينية؛ فقد كان هناك تسلسل في المسؤوليات داخل المعبد، وكان رئيس الكهنة يحتل المكانة الأعلى بين الكهنة. ومع تطور المؤسسة الدينية أصبح منصب رئيس الكهنة ذا أهمية كبيرة، خصوصًا بسبب دوره في الطقوس الكبرى المرتبطة بالهيكل.

أما الهيكل، فقد أصبح المركز الأهم للعبادة اليهودية في القدس. وتروي التقاليد اليهودية أن الهيكل الأول ارتبط بالملك سليمان، ثم دُمّر في القرن السادس قبل الميلاد، وأعيد بناء المعبد لاحقًا فيما يعرف بالهيكل الثاني، الذي أصبح مركزًا دينيًا مهمًا حتى تدميره على يد الرومان في القرن الأول الميلادي.

وكان الهيكل أكثر من مجرد مبنى للعبادة؛ فقد كان يمثل المكان المقدس المركزي الذي ترتبط به القرابين والاحتفالات الدينية الكبرى. وكانت له مناطق ودرجات مختلفة من القداسة، ولم يكن مسموحًا لكل شخص بالدخول إلى جميع أجزائه.

وكانت القدس الداخلية من أكثر أجزاء الهيكل قداسة، وتروي التقاليد أن قدس الأقداس كان يحتوي في الهيكل الأول على تابوت العهد. وكان الدخول إلى هذه المنطقة محصورًا جدًا، وارتبط في التقليد اللاحق برئيس الكهنة الذي يدخلها في طقس يوم الكفارة وفق شروط محددة.

وكان المذبح عنصرًا أساسيًا في العبادة، إذ كانت عليه تقدم أنواع مختلفة من القرابين. ومن خلال المذبح كان يتم تنفيذ جانب كبير من العبادة المرتبطة بالهيكل، سواء كانت قرابين حيوانية أو قرابين من المواد الزراعية وغيرها.

وكانت القرابين تؤدى وفق نظام ديني منظم، ولم يكن بإمكان أي شخص أن يتولى هذه المهمة كيفما شاء. فقد كانت هناك أنواع مختلفة من القرابين، ولكل نوع أحكامه، كما كانت هناك شروط تتعلق بحالة القربان وطريقة تقديمه.

وكان للهيكل أيضًا ارتباط واضح بالأعياد الدينية، إذ كانت بعض المناسبات تتطلب حضورًا واحتفالات وقرابين خاصة. ولهذا كان الهيكل مركزًا دينيًا

واجتماعيًا يجتمع فيه الناس في مناسبات معينة، ويؤدي فيه الكهنة الشعائر، ويحتفظون بالأدوات والمقدسات المرتبطة بالعبادة.

ولم يكن دور الكهنة مقتصرًا على إقامة الطقوس؛ فقد ارتبطوا كذلك بتعليم الشريعة والمحافظة على التقاليد الدينية، وأصبح الدين مع مرور الزمن يعتمد على معرفة النصوص والأحكام وتفسيرها وتطبيقها.

وكانت علاقة الحاكم بالمؤسسة الدينية مهمة أيضًا. ففي مراحل مختلفة من التاريخ كان للملك دور في رعاية المعبد وتقديم القرابين وتنظيم شؤون الدولة الدينية، لكن هذا لا يعني أن السلطة السياسية والدينية كانتا شيئًا واحدًا دائمًا؛ فقد نشأت بينهما في فترات مختلفة علاقات تعاون وصراع وتأثير متبادل.

وبقي الهيكل مركز العبادة اليهودية حتى دُمّر الهيكل الثاني سنة ٧٠م خلال الحرب اليهودية الرومانية. وكان لهذا الحدث أثر بالغ في تاريخ اليهودية، لأن العبادة القائمة على القرابين لم تعد قادرة على الاستمرار بالطريقة نفسها. ومن هنا بدأت مرحلة جديدة أخذت فيها الصلاة ودراسة الشريعة والتقاليد الدينية مكانًا أكبر في الحياة اليهودية.

لكن قبل الوصول إلى هذه المرحلة، كانت السنة الدينية نفسها مليئة بالمناسبات التي تربط الإنسان بالله وبأحداث الذاكرة الدينية. وكان لكل عيد طقوسه ومعانيه، وأبرزها السبت والأعياد اليهودية، التي أصبحت جزءًا أساسيًا من هوية الجماعة الدينية.

قبل البدء بالأعياد يجب أن نعرف التقويم اليهودي وأشهره

اسم الشهر	ما يقابله تقريبًا ميلاديًا	أبرز المناسبات
نيسان (Nisan)	آذار/نيسان	الفصح يبدأ في ١٥ نيسان، وعيد الفطير
أيار (Iyar)	نيسان/أيار	—
سيوان (Sivan)	أيار/حزيران	شافوعوت، عيد الأسابيع
تموز (Tammuz)	حزيران/تموز	صوم ١٧ تموز
آب (Av)	تموز/آب	تيشا بآف، التاسع من آب
أيلول (Elul)	آب/أيلول	فترة الاستعداد لأيام التوبة
تشري (Tishrei)	أيلول/تشرين الأول	يوم التروعة/روش هاشانا، كيبور، سوكوت
حِشفان (Cheshvan)	تشرين الأول/تشرين الثاني	—
كِسليف (Kislev)	تشرين الثاني/كانون الأول	حانوكا يبدأ في ٢٥ كِسليف
طِيفِت (Tevet)	كانون الأول/كانون الثاني	صوم ١٠ طيفت
شِفاط (Shevat)	كانون الثاني/شباط	طو بِشفاط
أدار (Adar)	شباط/آذار بوريم؛ وفي السنة الكبيسة يوجد أدار أول وأدار ثانٍ	

السبت والأعياد الدينية

احتلت الأيام والمواسم المقدسة مكانة مهمة في الحياة الدينية اليهودية، فلم تكن السنة مجرد تعاقب للأيام والفصول، بل كانت تتخللها أوقات مخصصة للعبادة والراحة والاحتفال واستحضار الأحداث التي ارتبطت بتاريخ الجماعة وتقاليدها الدينية. وكان السبت في مقدمة هذه المناسبات، ثم جاءت مجموعة من الأعياد التي ارتبط بعضها بالزراعة والمواسم، وبعضها بأحداث دينية وتاريخية في الرواية اليهودية.

السبت

كان السبت يومًا مميزًا في الشريعة اليهودية، ويأتي في اليوم السابع من الأسبوع. وقد ارتبط بفكرة الراحة المقدسة والامتناع عن العمل، وأصبح من أبرز علامات الهوية الدينية اليهودية.

وتنص الشريعة على تخصيص هذا اليوم للراحة، فلا يمارس الإنسان فيه أنواعًا معينة من العمل التي تحددها الأحكام الدينية. ولم يكن الهدف من السبت مجرد التوقف عن العمل، بل جعله يومًا مخصصًا للراحة والقداسة، يتوقف فيه الإنسان عن نشاطه المعتاد ويتفرغ للحياة الدينية والأسرة.

كما شملت أحكام السبت أفراد الأسرة والخدم والغرباء والحيوانات المستخدمة في العمل، مما جعله مفهومًا يتجاوز الفرد ليشمل المجتمع كله. ومع مرور الزمن توسعت التفسيرات المتعلقة بما يجوز وما لا يجوز فعله في هذا اليوم، وأصبحت أحكام السبت من أكثر جوانب الشريعة تفصيلًا.

يُعد الفصح (بيساح) من أقدم وأهم المناسبات الدينية اليهودية، ويقع في الرابع عشر من شهر نيسان عند حلول المساء، ثم يبدأ عيد الفطير في الخامس عشر منه ويستمر سبعة أيام. يرتبط الفصح بقصة خروج بني إسرائيل من مصر، ولذلك لم يكن مجرد يوم احتفال، بل مناسبة دينية تتصل بفكرة النجاة من الموت والخروج من العبودية. في الطقس القديم كان رب الأسرة يختار حملًا سليمًا من الغنم أو الماعز، ثم يُذبح في الموعد المحدد ويُؤكل ليلًا مع الفطير والأعشاب المُرّة، ولا يجوز إبقاء شيء منه إلى الصباح. وكان الفصح في عصر الهيكل مناسبة حج إلى القدس؛ حيث تُذبح قرابين الفصح في الهيكل، ثم يتناول المشاركون اللحم في بيوتهم أو أماكن اجتماعهم. أما عيد الفطير فكان مرتبطًا بالامتناع عن الخمير وأكل الفطير طوال أيامه، حتى أصبح الفصح والفطير في التقليد اللاحق يُتعامل معهما عمليًا بوصفهما مناسبة واحدة، مع أن النصوص القديمة تميز بينهما في التوقيت والطقوس.

وترتبط هذه الممارسة في التقليد اليهودي بقصة الخروج، إذ تروي الرواية أن بني إسرائيل خرجوا على عجل ولم يكن لديهم الوقت لانتظار تخمير العجين. ولذلك أصبح الخبز غير المختمر رمزًا دينيًا مرتبطًا بتلك الذكرى.

يأتي عيد الأسابيع (شافوعوت) بعد عدّ سبعة أسابيع من الفصح، ولذلك ارتبط اسمه بفترة العدّ التي تسبق حلول اليوم الخمسين. كان في أصله عيدًا زراعيًا مرتبطًا بالحصاد؛ ففيه تُقدَّم من أول محصول القمح قربانًا، ولذلك عُرف أيضًا باسم عيد الحصاد ويوم البواكير. وكان من أعياد الحج التي يُقصد فيها المعبد أو الهيكل لتقديم العطايا لله. وفي اليهودية اللاحقة اكتسب العيد

معنى دينيًا إضافيًا، فأصبح مرتبطًا بذكرى إعطاء التوراة لبني إسرائيل في جبل سيناء، وهو معنى لم يكن هو الأساس الزراعي القديم للعيد.

يبدأ شهر تشري بسلسلة من الأيام الدينية المهمة. تشري وهو الشهر السابع في التقويم الديني التوراتي ويقع عادة في أيلول أو تشرين الأول ميلادياً، ويعرف هذا اليوم باسم **يوم التروعة** وهو يوم تُقام فيه الصلوات ويُنفخ في الشوفار، وهو بوق يُصنع عادةً من قرن الكبش ثم عرف هذا اليوم بيوم **روش هشانا، رأس السنة**، ثم تأتي الأيام العشرة المعروفة بأيام التوبة، وتنتهي في اليوم العاشر بـ**يوم الكفارة (يوم كيبور)**. ويوم الكفارة ليس عيدًا احتفاليًا، بل يوم صوم وتوبة وطلب للمغفرة؛ وفي زمن الهيكل كان للكاهن الأكبر طقس مركزي فيه، إذ يدخل إلى قدس الأقداس، وهو أقدس موضع في الهيكل، ويقدّم القرابين عن خطاياه وخطايا الكهنة والشعب. ومن الطقوس المعروفة اختيار تيسين، يُقرَع بينهما، فيُقدَّم أحدهما قربانًا، بينما يُحمَّل الآخر رمزيًا خطايا الجماعة ويُرسل إلى البرية. وبعد خراب الهيكل تغيّر مركز العبادة في هذا اليوم، فأصبحت الصلاة والصوم والتوبة محور المناسبة.

في الخامس عشر من شهر تشري يبدأ **عيد المظال (سوكوت)**، ويستمر سبعة أيام، ويُضاف إليه اليوم الثامن، شِميني عتسيرت، في التقليد اليهودي. سُمّي عيد المظال لأن اليهود كانوا يقيمون في مساكن مؤقتة تُبنى من الأغصان والنبات، في تذكير تقليدي بإقامة بني إسرائيل في مساكن مؤقتة أثناء وجودهم في البرية. لكنه كان في الوقت نفسه عيدًا زراعيًا مهمًا مرتبطًا بجمع المحاصيل في نهاية الموسم، ولذلك كان من أعياد الحج الكبرى إلى

القدس. وفي عصر الهيكل كان العيد مصحوبًا بالقرابين والمواكب وطقوس احتفالية مرتبطة بالماء والخصب، وكان من أبرز المواسم الدينية في السنة.

بعد الأيام السبعة لعيد المظال يأتي شِميني عتسيرت، أي اليوم الثامن من التجمع. وهو يوم مستقل عن أيام سوكوت، رغم مجيئه مباشرة بعدها. في عصر الهيكل كان له نظام قرابين خاص، ثم تطورت مكانته في اليهودية اللاحقة، وأصبح يومًا للصلوات الخاصة وطلب المطر. وفي تقاليد يهودية لاحقة ارتبط به سِمحات توراه، أي فرح التوراة، الذي يحتفل بإتمام دورة القراءة السنوية للتوراة والبدء بها من جديد، وإن كان هذا الاحتفال بصورته المعروفة قد تطور في العصور اللاحقة.

يختلف حانوكا، عيد الأنوار، عن أعياد التوراة لأنه لم ينشأ في العصر الكتابي، بل ظهر في القرن الثاني قبل الميلاد خلال فترة الهيكل الثاني. يرتبط بالثورة المكابية ضد الحكم السلوقي وباستعادة الهيكل في القدس وإعادة تكريسه بعد تدنيسه. يبدأ العيد في الخامس والعشرين من شهر كيسليف ويستمر ثمانية أيام، وأبرز طقوسه إشعال الشموع ليلة بعد ليلة. وتروي المصادر اليهودية اللاحقة قصة إناء صغير من الزيت كان يكفي ليوم واحد لكنه استمر، بحسب الرواية، ثمانية أيام، بينما تذكر المصادر التاريخية الأقدم، مثل سفري المكابيين الأول والثاني، إعادة تكريس الهيكل والاحتفال بها دون أن تكون قصة الزيت هي محور الرواية.

بوريم مناسبة يهودية ترتبط بقصة سفر أستير، وتدور أحداثها في البيئة الفارسية، حيث يُقال إن مؤامرة هامان لإبادة اليهود انتهت بفشلها ونجاة الجماعة اليهودية. يأتي اسم بوريم من كلمة بور، أي القرعة، لأن هامان ألقى قرعة لتحديد اليوم الذي ينفذ فيه مخططه. ولذلك تحولت المناسبة إلى

يوم فرح واحتفال، ومن طقوسها قراءة سفر أستير، وتبادل الهدايا من الطعام والشراب، وتقديم الصدقات للفقراء، وإقامة الولائم. وهي بذلك تختلف عن أعياد التوراة لأنها نشأت من ذكرى حدث يروي سفر أستير وقوعه في العصر الفارسي.

يأتي **طو بِشفاط** في الخامس عشر من شهر شفاط، وهو رأس السنة للأشجار في التقليد اليهودي. لم يكن عيدًا لإحياء حادثة تاريخية أو انتصار عسكري، بل كان موعدًا تقويميًا له علاقة بالأشجار والثمار وبالأحكام الزراعية الخاصة بأرض إسرائيل. وفي العصور اللاحقة، وخصوصًا بين قبّاليي صفد في القرن السادس عشر، تطورت له طقوس جديدة، من أشهرها تناول أنواع مختلفة من الفواكه وإقامة ترتيب خاص للمناسبة، ثم انتشرت هذه العادات في جماعات يهودية أخرى. ولذلك يجب التفريق بين أصل المناسبة الزراعي القديم وبين الطقوس الاحتفالية التي أضيفت إليها لاحقًا.

لاغ بعومر هو اليوم الثالث والثلاثون من فترة عدّ العومر الممتدة بين الفصح وشافوعوت. لم يكن في الأصل من أعياد التوراة، وإنما اكتسب مكانته في اليهودية الحاخامية والصوفية في عصور لاحقة. ارتبط في التقاليد اليهودية بانتهاء وباء قيل إنه أصاب تلاميذ الحاخام عقيبا، ثم ارتبط بصورة خاصة بالحاخام شمعون بار يوحاي وبالتقاليد الصوفية حوله. وفي القرون اللاحقة أصبح اليوم مناسبة للفرح وإقامة الاحتفالات وإشعال النيران وزيارة قبر شمعون بار يوحاي في ميرون، خصوصًا منذ انتشار التقاليد القبالية في صفد في القرن السادس عشر.

إلى جانب الأعياد، تضم السنة اليهودية أيامًا مخصصة للصوم والحداد، وأبرزها **تِيشا بِآف**، التاسع من آب، الذي أصبح يومًا لذكرى خراب الهيكلين

في القدس، ويُعد أشد أيام الحداد بعد يوم الكفارة؛ فيصوم اليهود فيه ويمتنعون عن عدد من مظاهر الراحة والسرور. وهناك أربعة أصوام عامة ارتبطت في التقليد بخراب القدس والهيكل العاشر من طِيفِت، الذي يحيي ذكرى بدء حصار القدس؛ السابع عشر من تموز، المرتبط باختراق أسوار المدينة؛ التاسع من آب، المرتبط بخراب الهيكل؛ وصوم جدليا في الثالث من تشري، المرتبط بمقتل جدليا بن أخيقام بعد سقوط مملكة يهوذا. كما يوجد صوم أستير في الثالث عشر من أدار قبل بوريم. وقد وردت الأصوام الأربعة الأولى بصيغة «صوم الشهر الرابع والخامس والسابع والعاشر» في سفر زكريا، بينما ربطتها التقاليد اليهودية اللاحقة بأحداث محددة من سلسلة سقوط القدس والهيكل.

وهكذا لم تكن الأعياد اليهودية مجرد مناسبات للاحتفال، بل كانت تحمل مجموعة من المعاني الدينية الراحة، والخلاص، والذاكرة، والشريعة، والحصاد، والتوبة، والكفارة، والاعتماد على الله.

كما تكشف هذه الأعياد عن جانب مهم من تطور الدين اليهودي؛ فقد امتزج فيها ما هو ديني بما هو موسمي وتاريخي، ثم أعيد تفسير كثير من هذه المناسبات داخل الإطار الديني اليهودي مع مرور الزمن.

وبينما كانت الأعياد والطقوس تنظم علاقة الإنسان بالمقدس، ظهر صوت ديني آخر أخذ يطالب بأن تتجاوز العبادة حدود الطقوس والقرابين إلى العدل والأخلاق وطاعة الله. وكان أصحاب هذا الصوت هم الأنبياء، الذين سيصبح لهم دور أساسي في تطور الفكر الديني اليهودي.

الأنبياء والتحول الديني

احتل الأنبياء مكانة مهمة في تاريخ الدين الإسرائيلي واليهودي، لأن دورهم لم يكن محصورًا في التنبؤ بالمستقبل كما قد يتبادر إلى الذهن، بل كان مرتبطًا بالدعوة الدينية والنقد الأخلاقي والاجتماعي، وبمحاولة إعادة الإنسان إلى ما اعتُبر طريقًا صحيحًا في علاقته بالله.

وفي النصوص العبرية يظهر النبي بوصفه شخصًا يتلقى رسالة من الله ويبلغها إلى الناس، وقد تتضمن هذه الرسالة أمرًا أو نهيًا أو تحذيرًا أو دعوة إلى التوبة. وكان النبي يتحدث أحيانًا إلى عامة الناس، وأحيانًا إلى الحكام والكهنة، ولم يكن منصبه يعني بالضرورة امتلاكه سلطة سياسية.

ومن أهم القضايا التي ركز عليها الأنبياء رفض عبادة الآلهة الأخرى. فقد انتقدوا بشدة التوجه إلى بعل وعشتروت وغيرهما من المعبودات التي كانت معروفة في البيئة المحيطة أو بين بعض الجماعات الإسرائيلية. وكان هذا الرفض جزءًا من عملية ترسيخ عبادة يهوه وحده، وهي العملية التي ساهمت تدريجيًا في ترسيخ التوحيد.

لكن نقد الأنبياء لم يكن دينيًا بمعنى عبادة الإله فقط؛ فقد ربطوا الإيمان بالله بالسلوك الأخلاقي. فكان الظلم والاستغلال والفساد والكذب واستغلال الفقراء أمورًا تستحق الإدانة، حتى لو أقام الإنسان الطقوس الدينية وقدم القرابين.

وهنا ظهر تحول مهم في مفهوم العبادة. فلم يعد المهم فقط أن يقدم الإنسان قربانًا أو يؤدي طقسًا، بل أن تكون حياته نفسها متوافقة مع ما يُطلب منه دينيًا. فالعدل والرحمة والصدق ومساعدة الضعفاء أصبحت جزءًا من الخطاب النبوي، وأصبح الدين مرتبطًا بمسؤولية الإنسان تجاه المجتمع.

ومن أبرز الأفكار التي ظهرت في هذا السياق أن الطقوس لا يمكن أن تكون بديلًا عن الأخلاق. فإذا ظلم الإنسان غيره ثم عاد ليقدم القرابين، فإن أداء الطقس وحده لا يجعله صالحًا في نظر الخطاب النبوي. وهكذا أصبح إصلاح السلوك والتوبة والعودة إلى الله جزءًا من العبادة.

كما انتقد الأنبياء أحيانًا الفساد داخل المؤسسة الدينية نفسها، فلم يكن الكاهن أو المعبد بمنأى عن النقد. وكانت هذه النقطة مهمة لأنها أظهرت أن سلطة الدين لا تعني أن الأشخاص الذين يخدمون المقدسات فوق المحاسبة الأخلاقية.

الأنبياء

يحتل إبراهيم مكانة أساسية في التقليد اليهودي بوصفه أحد الآباء الأوائل وبداية العهد بين الله والأسرة التي ستتكون منها جماعة بني إسرائيل. يروي سفر التكوين قصة دعوة الله له إلى ترك موطنه والتوجه إلى أرض كنعان، ثم إقامة عهد معه يتضمن وعدًا بالنسل والأرض. ومن أكثر القصص ارتباطًا به قصة اختباره بتقديم ابنه إسحاق، قبل أن يتدخل الله ويُمنع تقديمه. ولا يقدم النص إبراهيم بوصفه نبيًا تشريعيًا مثل موسى، لكنه يجعله في علاقة مباشرة مع الله، يتلقى منه الوعد والأوامر والرؤى؛ ولذلك أصبح شخصية محورية في الذاكرة الدينية اليهودية، ثم في المسيحية والإسلام أيضًا.

يأتي إسحاق في التقليد التوراتي بوصفه ابن إبراهيم الذي يستمر من خلاله العهد الذي قطعه الله مع أبيه. وترتبط قصته بصورة خاصة بالوعد بالنسل، وبقصة زواجه من رفقة، ثم ولادة عيسو ويعقوب. وتروي الرواية أن الله

ظهر لإسحاق وأكد له العهد الذي سبق أن قطعه مع إبراهيم، ولذلك يمثل إسحاق حلقة أساسية في انتقال الوعد والعهد من جيل إلى آخر.

كان يعقوب الشخصية التي ارتبط بها اسم «إسرائيل» في الرواية التوراتية؛ إذ يروي سفر التكوين أن رجلًا أو كائنًا إلهيًا صارعه طوال الليل، ثم أُطلق عليه اسم إسرائيل، ومن أبنائه الاثني عشر تنحدر أسباط بني إسرائيل.
وتروي الرواية كذلك سلسلة من الأحلام والرؤى التي تلقاها يعقوب، منها رؤيته سلمًا تصل إلى السماء، ثم انتقاله إلى مصر مع أسرته في نهاية حياته.
ولهذا لم يكن يعقوب مجرد أحد الآباء، بل أصبح الاسم الشخصي الذي ارتبط لاحقًا بجماعة إسرائيل كلها.

يُعد موسى الشخصية النبوية الأهم في التقليد اليهودي، وتُنسب إليه قيادة بني إسرائيل في الخروج من مصر وتلقي الشريعة وإقامة العهد مع الله. تبدأ قصته بإنقاذه من أمر فرعون بقتل الأطفال الذكور من بني إسرائيل، ثم نشأته في بيت فرعون قبل فراره إلى مدين. وهناك، بحسب سفر الخروج، ظهر له الله في العليقة المشتعلة وأمره بالعودة إلى مصر وإخراج بني إسرائيل. وبعد الخروج ارتبط اسمه بجبل سيناء، حيث تلقى الوصايا وأحكام العهد، ومنها الوصايا العشر التي تُعدّ من أهم النصوص التشريعية في اليهودية، وقد وردت في سفر الخروج ضمن رواية العهد بين الله وبني إسرائيل عند جبل سيناء.
تبدأ الوصايا بالتأكيد على عبادة الإله وحده، والنهي عن اتخاذ آلهة أخرى، ثم النهي عن صنع الأصنام وعبادتها، وعن استخدام اسم الله بطريقة باطلة.
وتدعو بعد ذلك إلى حفظ يوم السبت وتقديسه، ثم تنتقل إلى تنظيم علاقة الإنسان بأسرته والمجتمع، فتأمر بإكرام الأب والأم، وتحظر القتل والزنى والسرقة وشهادة الزور. وتختتم بالنهي عن اشتهاء ما يملكه الآخر، سواء

كان بيته أو زوجته أو عبده أو أمَته أو ثوره أو حماره أو أي شيء من ممتلكاته. وبذلك تجمع الوصايا العشر بين أحكام تتعلق بعلاقة الإنسان بالله، وأحكام تنظم سلوكه تجاه الآخرين، وقد أصبحت من أكثر النصوص تأثيرًا في التراث الديني والقانوني اليهودي والمسيحي.

وتتمثل الوصايا العشر في:

عدم عبادة آلهة أخرى - عدم صنع الأصنام وعبادتها - عدم استخدام اسم الله باطلًا - حفظ يوم السبت وتقديسه - إكرام الأب والأم - عدم القتل - عدم الزنى - عدم السرقة - عدم شهادة الزور - عدم اشتهاء ما يملكه الآخر.

وتضع الرواية موسى في موقع الوسيط بين الله والشعب؛ فهو يتلقى الكلام الإلهي وينقله إلى بني إسرائيل، ويضع لهم أحكام العبادة والقرابين والطهارة والأعياد والقوانين الاجتماعية. ولهذا بقي موسى في اليهودية معيارًا أعلى للنبي، ويصفه سفر التثنية بأنه لم يقم بعده نبي مثله، «الذي عرفه الرب وجهًا لوجه». ومع ذلك، فإن وجود موسى كما تصفه الرواية بكل تفاصيلها لا يمكن إثباته تاريخيًا من خارج النصوص الدينية، ولذلك ينبغي التفريق بين مكانته الدينية الهائلة وبين الأدلة التاريخية المتاحة.

كان هارون شقيق موسى، وتمنحه الرواية التوراتية دورًا دينيًا مختلفًا عن دور موسى؛ فهو أول كاهن أكبر لبني إسرائيل، ومنه تنحدر السلالة الكهنوتية بحسب التقليد. شارك موسى في مواجهة فرعون، ثم أصبح مسؤولًا عن الطقوس الكهنوتية وخدمة المقدس وتقديم القرابين. وترتبط به أيضًا قصة العجل الذهبي، حين صنع للشعب تمثالًا من الذهب أثناء غياب موسى على الجبل بعد أن ضغطوا عليه بني اسرائيل لطول انتظارهم، وطالبوه بأن يصنع لهم إلهاً يقودهم. طلب هارون منهم أن يأتوا بأقراط الذهب، ثم

تلقّى الذهب وشكّله بأداة وصنع منه عجلًا مسبوكًا. وبعد ذلك أقام مذبحًا أمامه وأعلن عن عيد، فقدم الشعب القرابين وأقاموا احتفالًا. وعندما نزل موسى ورأى ما حدث، غضب وكسر لوحي العهد، ثم أحرق العجل وطحنه حتى صار مسحوقًا وذرّه في الماء وأجبر بني إسرائيل على شربه. وعندما سأل موسى هارون عن سبب ارتكابه هذا الأمر، أجاب هارون بأن الشعب هو الذي طالبه بصنع إله لهم، محاولًا تفسير ما حدث والتخفيف من مسؤوليته. وتعرض الرواية هارون هنا بوصفه الشخص الذي استجاب لضغط الجماعة وصنع العجل، بينما كان موسى هو الذي واجه العبادة ورفضها بشدة. ويرد الحدث أساسًا في سفر الخروج، الإصحاح الثاني والثلاثين.

تنبيه تختلف رواية حادثة العجل بين المصادر الدينية؛ ففي الرواية القرآنية الواردة في سورة طه، يُنسب صنع العجل إلى السامري، بينما يرد في سفر الخروج أن هارون صنع العجل استجابةً لطلب بني إسرائيل. وفي هذا الكتاب أورد كل رواية بحسب مصدرها الديني، دون الخلط بين الروايتين أو إسقاط إحداهما على الأخرى.

وهي من أكثر القصص التي تكشف الصراع بين العبادة التي يفرضها العهد وبين العودة إلى عبادة صورة مادية للإله

ظهر صموئيل في مرحلة انتقالية مهمة من تاريخ بني إسرائيل، حين كانت الجماعة تنتقل من نظام القضاة إلى نظام الملكية. تروي الأسفار أنه نشأ في خدمة المعبد، وأنه تلقى نداءً إلهيًا وهو لا يزال صغيرًا. أصبح بعد ذلك نبيًا وقاضيًا، وكان له دور في اختيار شاول أول ملك على إسرائيل، بعد أن رفض الله شاول بحسب الرواية. اختار صموئيل داوود و مسحه بالزيت معلناً اختياره ملكاً رغم أنه لم يتولّ الحكم مباشرة بعد ذلك بل جاء توليه للملك في

مرحلة لاحقة وهكذا جمع صموئيل بين دور القاضي والنبي، وكان صلة أساسية بين مرحلة القضاة وقيام الملكية.

يحتل **داود** مكانة استثنائية في التقليد اليهودي؛ فهو الملك الذي جعل القدس مركزًا سياسيًا ودينيًا لمملكته، ونسب إليه التقليد لاحقًا عدد كبير من المزامير. تبدأ قصته راعيًا شابًا يواجه جليات، ثم يدخل في خدمة شاول قبل أن يصبح ملكًا. وتروي الأسفار أنه استولى على القدس وجعلها عاصمة، ثم نقل إليها تابوت العهد، مما منح المدينة مكانة دينية مركزية. وينسب إليه التقليد إقامة السلالة التي سيخرج منها الملوك اللاحقون، ولهذا أصبح «بيت داود» مفهومًا دينيًا مهمًا، كما ارتبط اسمه في النبوءات اللاحقة بالأمل في قيام ملك مستقبلي من نسله. لكن داود نفسه لا يظهر في الرواية التوراتية كشخصية مثالية؛ فالأسفار تروي خطايا خطيرة ارتكبها، أبرزها علاقته ببثشبع وتسببه في موت زوجها أوريا، ثم تذكر توبته والعقوبة التي لحقت ببيته.

خلف **سليمان** داود ملكًا، واشتهر في الرواية التوراتية بالحكمة والثراء وبناء الهيكل الأول في القدس. وتروي الأسفار أن الله ظهر له في حلم في جبعون وعرض عليه أن يطلب ما يشاء، فطلب الحكمة ليميز بين الخير والشر ويحكم الشعب، فاستجاب الله له وأضاف إليه الغنى والمجد. وتُنسب إلى عهده أعمال عمرانية واسعة وعلاقات تجارية مع مناطق مختلفة، كما ترتبط به قصة ملكة سبأ التي جاءت لاختبار حكمته. لكن الرواية نفسها تنتهي بتحذير ديني؛ إذ تذكر أن كثرة زوجاته الأجنبيات جعلته يميل إلى عبادة آلهة أخرى، وأن ذلك كان من أسباب الحكم الإلهي الذي مهّد لانقسام المملكة بعد موته. وذلك بحسب الرواية التوراتية.

كان **إيليا** من أبرز أنبياء مملكة إسرائيل الشمالية في القرن التاسع قبل الميلاد، واشتهر بمواجهته لعبادة بعل في عهد الملك أخاب والملكة إيزابل. ومن أشهر الأحداث المنسوبة إليه تحديه لأنبياء البعل على جبل الكرمل، حين اقترح أن يُظهر كل طرف قدرة إلهه على إشعال قربانه، ثم نزلت النار على قربانه بحسب الرواية. وبعد ذلك واجه إيليا أخاب بسبب استيلائه على كرم نابوت، وأعلن عليه وعلى بيته عقابًا إلهيًا. وتروي الأسفار في نهاية قصته أنه لم يمت بالطريقة المعتادة، بل صعد إلى السماء في مركبة من نار، ولذلك اكتسب مكانة خاصة في التقاليد اليهودية اللاحقة، وأصبح مرتبطًا بفكرة عودته قبل مجيء اليوم الموعود.

خلف **أليشع** إيليا في النبوة، وارتبط نشاطه بمملكة إسرائيل خلال القرن التاسع قبل الميلاد. وتروي الأسفار عنه عددًا من القصص والمعجزات، منها شفاء نعمان قائد الجيش الآرامي من مرض جلدي، وإحياء ابن امرأة من شونم، وتقديم الطعام لجماعة كبيرة بكمية محدودة. كما تدخل في أحداث سياسية وعسكرية، وأرسل من خلال تلاميذه أمرًا بمسح (دهن الزيت) ياهو ملكًا على إسرائيل. وتكشف قصته أن النبي في التقليد الإسرائيلي لم يكن منعزلًا عن السياسة، بل كان يستطيع التدخل في شؤون الملوك والحروب وتوجيهها.

كان **عاموس** من أقدم الأنبياء الذين وصلت إلينا أقوالهم في كتاب مستقل، ونشط في القرن الثامن قبل الميلاد في عهد يربعام الثاني. لم يكن من طبقة الكهنة أو البلاط، بل جاء من تقوع في يهوذا وتوجه إلى مملكة إسرائيل. ركزت رسالته على الظلم الاجتماعي والفساد، ورفض أن تكون القرابين والاحتفالات الدينية مقبولة عند الله إذا كانت مصحوبة باستغلال الفقراء.

وتضمن كتابه نبوءات محددة ضد دمشق وغزة وصور وأدوم وعمون وموآب ويهوذا وإسرائيل، ثم أعلن سقوط المملكة الشمالية ونهاية ازدهارها. ولذلك يمثل عاموس مرحلة أصبح فيها صوت النبي ناقدًا للملك والمجتمع والمؤسسة الدينية معًا.

ظهر **هوشع** في مملكة إسرائيل خلال القرن الثامن قبل الميلاد، في العقود التي سبقت سقوط السامرة على يد الآشوريين. استخدم في رسالته صورة الزواج والخيانة ليصور علاقة إسرائيل بالله؛ فجعل خيانة الزوجة رمزًا لخيانة الشعب لعبادته. وأعلن أن عبادة الآلهة الأخرى والاعتماد على القوى الأجنبية لن ينقذا المملكة من العقاب. ومع ذلك لا تنتهي رسالته بالدمار وحده، بل تجمع بين الحكم والعودة والرحمة، إذ يبقى الباب مفتوحًا أمام استعادة العلاقة بين الله وشعبه.

يُعد **إشعياء** من أعظم أنبياء يهوذا في القرن الثامن قبل الميلاد، وارتبط نشاطه بمدينة القدس وبعهد عدد من ملوك يهوذا، خصوصًا آحاز وحزقيا. يروي سفره أنه رأى في رؤيا الرب في الهيكل، فسمع النداء: «من أرسل؟ ومن يذهب من أجلنا؟»، فأجاب: «هأنذا أرسلني». ارتبطت نبوءاته بأزمات سياسية كبرى، ولا سيما التهديد الآشوري، وحذّر ملوك يهوذا من الاتكال على التحالفات السياسية بدلًا من الله. كما أعلن نبوءات ضد دمشق وبابل وموآب وصور ومصر وغيرها، وتضمن سفره وعودًا بمستقبل جديد لمدينة القدس و«غصن» يخرج من جذع يسى. وقد أصبحت بعض نصوصه لاحقًا من أهم النصوص التي فسرتها المسيحية بوصفها نبوءات عن المسيح، مع أن سياقها الأصلي في السفر يحتاج إلى دراسته ضمن ظروف يهوذا والقرن الثامن قبل الميلاد.

كان **ميخا** معاصرًا لإشعياء تقريبًا، وجاء من مورشة في يهوذا، وانتقد حكام البلاد والكهنة والأنبياء الذين يستغلون الناس. أعلن أن القدس نفسها ستتعرض للحكم والخراب بسبب فساد قادتها، لكنه تحدث أيضًا عن مستقبل مختلف، وفيه تبرز نبوءة مشهورة عن بيت لحم، حيث يقول إن منها سيخرج حاكم لإسرائيل. وقد أصبحت هذه الآيات لاحقًا من النصوص الأساسية في التفسير المسيحي لميلاد المسيح، بينما ترتبط في سياق السفر الأصلي بانتظار حاكم جديد من سلالة داود.

عاش **إرميا** في أواخر مملكة يهوذا، وشهد السنوات التي سبقت سقوط القدس على يد البابليين سنة ٥٨٦ قبل الميلاد تقريبًا. حذر الملك والشعب من أن استمرارهم في الظلم وعبادة الآلهة الأخرى سيؤدي إلى سقوط القدس، ودعاهم إلى الخضوع لحكم بابل بدلًا من مقاومته بوصفه حكمًا مؤقتًا سمح به الله. تعرض بسبب رسالته للسجن والضرب والاضطهاد، وألقى بعض خطاباته في ساحات الهيكل. وبعد سقوط القدس استمر في الحديث عن مصير البلاد والمنفيين، ومن أشهر نبوءاته إعلانه أن فترة بابل ستكون سبعين سنة قبل أن يأتي وقت الحساب عليها وعودة المنفيين.

كان **حزقيال** نبيًا من يهوذا عاش في المنفى البابلي، وارتبطت نبوءاته خصوصًا بالمجموعة التي سُبيت إلى بابل قبل سقوط القدس النهائي. بدأ سفره برؤيا هائلة لعربة سماوية وكائنات مجنحة، ثم تلقى مهمة التحدث إلى بني إسرائيل المنفيين. أعلن سقوط القدس والهيكل، لكنه لم يكتفِ بالدينونة؛ فقد تحدث عن عودة الشعب وإقامة عهد جديد وتطهير القلب، ثم قدّم في رؤاه الأخيرة صورة لمعبد مستقبلي ونظام عبادة جديد. كما خصص أجزاء واسعة من سفره لنبوءات ضد صور وصيدون ومصر وممالك أخرى في المنطقة.

يحتل دانيال مكانة مختلفة عن الأنبياء السابقين، لأن الكتاب الذي يحمل اسمه يجمع بين قصص البلاط والرؤى الرمزية. تضع الرواية دانيال في بلاط بابل ثم فارس، حيث يفسر الأحلام والرؤى ويواجه اختبارات دينية، ومن أشهر قصته نجاته من جب الأسود بعد أن رفض التوقف عن الصلاة. وفي القسم الثاني من السفر يرى رؤى عن ممالك متعاقبة وعن صراعات سياسية ودينية ومستقبلية. ويجب هنا التفريق بين الرواية الدينية والتأريخ الحديث للنص؛ فمع أن التقليد ينسبه إلى دانيال في العصر البابلي، يرى كثير من الباحثين أن القسم الرؤيوي من السفر اتخذ شكله النهائي في القرن الثاني قبل الميلاد، في زمن الاضطهاد السلوقي، وأن بعض «النبوءات» تصف أحداثًا كانت قد وقعت بالفعل من منظور زمن تأليف النص.

ظهر زكريا بعد العودة من المنفى البابلي، في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وارتبطت رسالته بإعادة بناء الهيكل في القدس. تميز سفره بالرؤى الرمزية، ومنها رؤى الفرسان والمنارة واللفافتين والمرأة داخل الإيفة، ثم رؤى تتحدث عن مستقبل القدس والشعب. وتظهر فيه أيضًا صورة الملك الآتي إلى القدس راكبًا على حمار، وهي صورة أصبحت لاحقًا ذات أهمية كبيرة في المسيحية، إذ رُبطت بدخول المسيح إلى القدس. أما في سياق السفر نفسه، فهي جزء من رؤى تتحدث عن مستقبل صهيون والملك والعودة إلى الاستقرار.

رؤيا الفرسان في زكريا ١:٧–١٧، رأى زكريا رجلًا راكبًا فرسًا أحمر بين أشجار الآس، وخلفه فرسان على خيول حمراء وشُقر وبيضاء. هؤلاء يُفهمون في سياق الرؤيا على أنهم رسل يجوبون الأرض ويقدمون تقريرًا عن أحوالها. ثم تأتي رسالة بأن أورشليم ستُرحم ويُعاد بناء المدينة والهيكل.

رؤيا المنارة في زكريا ٤، رأى منارة ذهبية وفوقها وعاء زيت، ولها سبعة سرج، وإلى جانبها زيتونتان تمدّان الزيت إليها. الرؤيا مرتبطة بإتمام بناء الهيكل، وبزربابل الحاكم الذي سيُتم العمل «لا بالقدرة ولا بالقوة، بل بروحي». والمنارة هنا رمز ديني للضوء والاستمرار، والزيتونتان ترتبطان بـ الممسوحين/المكرّسين في الرؤيا.

رؤيا اللفافة الطائرة في زكريا ٥:١ــ٤، رأى لفافة كبيرة طائرة في السماء، طولها وعرضها مذكوران في النص. وتُفسَّر بأنها تمثل الحكم على السرقة والحلف الكاذب؛ أي أن الخطايا ستُدان وتُزال من الأرض.

رؤيا المرأة داخل الإيفة في زكريا ٥:٥ــ١١ رأى النبي إيفة، وهي وحدة قياس قديمة للحبوب أو للمواد الجافة، ولذلك يمكن تخيلها كوعاء/سلة كبيرة للقياس. وكانت امرأة جالسة داخلها، وقيل لها: «هذه هي الشر». ثم تُرفع الإيفة، وتحملها امرأتان لهما أجنحة إلى أرض شنعار، أي منطقة بابل/بلاد بابل في السياق الكتابي. المعنى الرمزي العام هو إبعاد الشر من أرض الشعب.

يُعد ملاخي آخر سفر في ترتيب الأنبياء الصغار في الكتاب العبري، ويرتبط عادةً بالفترة التي أعقبت العودة من المنفى وإعادة بناء الهيكل. انتقد فساد بعض الكهنة وإهمال القرابين، واعترض على زواج اليهود من نساء أجنبيات وعلى عدم الالتزام بالعهود الدينية. ويختتم السفر بوعد بمجيء إيليا النبي قبل «يوم الرب العظيم والمخوف»، وهي النبوءة التي أصبحت لاحقًا جزءًا مهمًا من انتظار الشخصية التي تسبق مجيء العصر أو اليوم الموعود.

وكان لكل نبي أسلوبه الخاص. فبعضهم استخدم التحذير من الكوارث، وبعضهم تحدث عن مستقبل الجماعة، وبعضهم استخدم الشعر والصور

الرمزية، وبعضهم ركز بصورة قوية على الفقر والظلم والفساد. ولذلك أصبحت كتب الأنبياء جزءًا مهمًا من الأدب الديني اليهودي.

وساهم الخطاب النبوي أيضًا في تطوير مفهوم العلاقة بين الله والجماعة. فالمصائب والانتصارات لم تعد تُفسر فقط باعتبارها نتيجة لقوة عسكرية أو لرضا إله معين، بل أصبح من الممكن تفسيرها دينيًا بوصفها مرتبطة بالطاعة أو العصيان والعلاقة بالعهد.

كما أخذت فكرة العهد تكتسب بعدًا أخلاقيًا أقوى؛ فالجماعة ليست مرتبطة بالله بمجرد الانتماء، وإنما عليها مسؤولية الالتزام بالشريعة. وإذا انحرفت عن الطريق الديني، فإن الأنبياء يدعونها إلى التوبة والعودة.

ومن هنا ساعد الأنبياء في نقل الفكر الديني من التركيز على المعبد والقرابين والطقوس وحدها إلى تصور أوسع للعبادة يشمل القلب والسلوك والمجتمع. وهذا لا يعني أن الطقوس اختفت أو فقدت أهميتها، وإنما أصبحت جزءًا من منظومة أكبر تجمع بين العبادة والشريعة والأخلاق.

وكان لهذه التحولات أثر طويل في الفكر الديني اللاحق، خصوصًا في تطور مفاهيم التوبة والعدل والرحمة والخطيئة والمسؤولية الفردية والجماعية. ومع تطور الفكر الديني ظهرت أيضًا أسئلة أخرى لم تكن مرتبطة فقط بالحياة اليومية ماذا يحدث للإنسان بعد موته؟ وهل تنتهي حياة الإنسان بالموت؟ وهل هناك قيامة أو حساب أو ثواب وعقاب؟

هذه الأسئلة لم تكن الإجابات عنها ثابتة طوال التاريخ اليهودي، بل تطورت تصورات الموت والعالم الآخر عبر مراحل مختلفة، ولذلك تحتاج إلى دراسة مستقلة.

الموت والعالم الآخر

لم تكن النظرة اليهودية إلى الموت والعالم الآخر ثابتة منذ بداية التاريخ الديني، بل مرت بتطورات طويلة. ولهذا فإن الحديث عن العقيدة اليهودية في هذا الموضوع يحتاج إلى التمييز بين التصورات القديمة والتصورات التي ظهرت أو ترسخت في فترات لاحقة.

في أقدم التصورات التي تظهر في النصوص العبرية، يرتبط الموت بمفهوم شيول، وهو عالم الموتى الذي يُصوَّر باعتباره مكانًا أو حالة ينزل إليها الموتى. ولم يكن شيول في صورته الأولى مطابقًا لفكرة الجنة والجحيم التي أصبحت معروفة في تقاليد دينية لاحقة، كما لم يكن قائمًا بصورة واضحة على تقسيم الموتى بحسب صلاحهم وطلاحهم.

وكان الموتى في هذا التصور بعيدين عن عالم الأحياء، ويُنظر إلى الموت باعتباره انتقالًا إلى عالم مظلم وصامت لا يمارس فيه الإنسان الحياة بالطريقة التي يعرفها في الدنيا. ولذلك كان الموت أمرًا مخيفًا، وكانت الحياة نفسها تُعد نعمة ينبغي للإنسان أن يتمسك بها.

ومع ذلك، لم تكن العلاقة بين الأحياء والموتى تنقطع تمامًا في المخيلة الدينية. فقد بقي الدفن وتكريم الموتى جزءًا مهمًا من التقاليد، وظهرت أحكام وطقوس تتعلق بالجثث والقبور والنجاسة الطقسية الناتجة عن ملامسة الميت.

كما كان يُنظر إلى الموت باعتباره نهاية الحياة الدنيوية، لكن فكرة القيامة لم تكن واضحة بالشكل نفسه في جميع المراحل المبكرة. ومع مرور الزمن بدأت

تظهر تصورات أكثر وضوحًا عن عودة الموتى إلى الحياة، وعن مستقبل الإنسان بعد الموت.

وقد ساهمت التحولات التاريخية والفكرية التي مرت بها الجماعات اليهودية في تطور هذه الأفكار. فخلال الفترات المتأخرة من العصر الكتابي، وخصوصًا في القرون التي سبقت العصر المسيحي، أصبحت مفاهيم مثل القيامة والحساب والثواب والعقاب أكثر حضورًا في بعض التيارات والتقاليد اليهودية.

وظهر الاعتقاد بأن الموت ليس بالضرورة النهاية الأخيرة، وأن الله قادر على إعادة الموتى إلى الحياة. ومع هذا التطور أصبح السؤال عن مصير الإنسان بعد الموت مرتبطًا بصورة أكبر بأعماله وسلوكه في الحياة.

وهنا بدأ يظهر بصورة أوضح مفهوم الحساب. فالإنسان لا يعيش فقط ثم يموت، بل يمكن أن تكون لأعماله نتيجة في المستقبل، وأن يخضع البشر لحكم إلهي يميز بين الصالح والشرير.

لكن هذه الأفكار لم تكن متطابقة بين جميع اليهود. فقد ظهرت تيارات دينية مختلفة، وكان بينها اختلاف حول القيامة والعالم الآخر والملائكة والأرواح وغيرها من المسائل. وهذا الاختلاف سيصبح أكثر وضوحًا في الفترة التي ظهرت فيها التيارات اليهودية الكبرى.

كما تطور مفهوم الخطيئة والتوبة بصورة مهمة. فالإنسان يمكن أن يخطئ، لكنه يستطيع الرجوع إلى الله والتوبة وطلب المغفرة. وأصبحت التوبة عنصرًا أساسيًا في العلاقة بين الإنسان والله، ولم تعد الخطيئة مجرد مخالفة لطقس معين، بل يمكن أن تكون أيضًا انحرافًا أخلاقيًا ودينيًا.

أما الثواب والعقاب، فقد أخذت فكرتهما تتطور مع تطور مفهوم الحساب. وأصبح من الممكن تصور عدالة إلهية لا تنتهي بالضرورة مع الحياة الدنيا؛ فإذا لم يحصل المظلوم على حقه في الدنيا، يمكن أن تتحقق العدالة الإلهية في مرحلة أخرى.

وفي المراحل اللاحقة ظهرت أيضًا تصورات أكثر تفصيلًا عن الملائكة والقوى الروحية والشر، وأصبح العالم غير المرئي أكثر تعقيدًا في بعض التقاليد اليهودية. وهذا التطور مهم لأنه سيمهد لفهم قسم آخر من الفكر الديني اليهودي.

ومن المهم هنا ألا ننسب إلى اليهودية القديمة جميع التصورات التي أصبحت شائعة في اليهودية اللاحقة. فبعض الأفكار التي يعرفها الناس اليوم عن الجنة والجحيم والقيامة والشيطان والملائكة تشكلت عبر مراحل طويلة من التطور الديني، وتأثرت أيضًا بالظروف الفكرية والثقافية التي عاشتها الجماعات اليهودية في فترات مختلفة.

وهكذا انتقلت النظرة إلى الموت تدريجيًا من تصور بسيط لعالم الموتى إلى تصورات أكثر تعقيدًا تتحدث عن القيامة والحساب والجزاء، وأصبح الموت جزءًا من سؤال أكبر يتعلق بعدالة الله ومصير الإنسان.

لكن العالم غير المرئي في اليهودية لم يكن يقتصر على الموتى وحدهم؛ فقد ظهرت أيضًا تصورات عن كائنات وقوى روحية تؤدي أدوارًا مختلفة بين الله والإنسان، ومنها الملائكة والشياطين والشيطان، وهي أفكار تطورت بدورها عبر التاريخ الديني.

الملائكة والشياطين والقوى غير المرئية

لم يكن العالم الديني اليهودي مقتصرًا على الله والإنسان، بل تضمن أيضًا تصورًا لعالم غير مرئي يضم كائنات روحية تؤدي أدوارًا مختلفة. وقد تطورت هذه التصورات عبر مراحل طويلة، ولذلك لا تظهر الملائكة والشياطين والشيطان بالصورة نفسها في أقدم النصوص كما تظهر في التقاليد اليهودية اللاحقة.

كانت الملائكة في التصور الديني كائنات مرتبطة بالعالم الإلهي، وتظهر بوصفها رسلًا أو خدمًا لله، تنقل أوامره وتنفذ مهماته. وكلمة «ملاك» نفسها ترتبط بمعنى الرسول أو المبعوث، ولذلك لم يكن الملاك إلهًا مستقلًا ينافس الله، بل كائنًا تابعًا له.

وتظهر الملائكة في عدد من القصص والنصوص بوظائف مختلفة؛ فقد يأتي الملاك برسالة، أو يحمي إنسانًا، أو ينفذ أمرًا إلهيًا، أو يشارك في حدث ذي أهمية دينية. ومع مرور الزمن أصبحت بعض الملائكة أكثر وضوحًا من حيث الأسماء والصفات والوظائف.

ومن أشهر الملائكة في التقاليد اليهودية ميخائيل وجبرائيل، ثم ظهرت في الأدبيات اللاحقة أسماء أخرى، لكن ليس كل ما نعرفه عن عالم الملائكة اليوم ينتمي إلى المرحلة اليهودية القديمة نفسها.

أما الشياطين، فقد ظهرت حولها تصورات متعددة. ففي بعض النصوص القديمة لا نجد عالمًا شيطانيًا منظمًا بالمعنى الذي ظهر في التقاليد اللاحقة، وإنما تظهر كائنات أو قوى يمكن أن ترتبط بالشر أو المرض أو الإغواء أو الأذى.

أما مفهوم الشيطان نفسه فقد مر بتطور مهم. ففي بعض أقدم النصوص، تظهر كلمة الشيطان بمعنى الخصم أو المعارض أو المتهم، وليس بالضرورة باعتباره قوة شر مطلقة مستقلة تقف في مواجهة الله. ومن أشهر الأمثلة على ذلك سفر أيوب، حيث يظهر الشيطان ضمن المشهد السماوي بوصفه شخصية تختبر الإنسان وتتهمه، وتتمحور مهمته حول اختبار إخلاصه.

ومع تطور الفكر الديني اليهودي، أصبح مفهوم الشيطان أكثر ارتباطًا بالشر والإغواء ومقاومة الإنسان، ثم اتخذ في التقاليد اللاحقة صورة أكثر وضوحًا باعتباره قوة شريرة.

وهذا التطور مهم جدًا؛ لأن فكرة وجود قوة شر مطلقة تقابل إله الخير ليست هي الصورة التي تظهر منذ البداية في الدين الإسرائيلي القديم. بل إن مفهوم الشر والقوى الشريرة تطور تدريجيًا، وأخذ أشكالًا مختلفة بحسب الفترة والنص والتقليد.

كما ظهرت تصورات عن الأرواح والقوى المؤذية، وربطت بعض الممارسات الدينية بالحماية منها. ولذلك عُرفت التعاويذ والتمائم في بعض الفترات والتقاليد، كما ظهرت نصوص تتحدث عن طرد الأرواح أو الحماية من الشر.

لكن الموقف الديني من السحر والعرافة كان في كثير من النصوص التشريعية رافضًا لهذه الممارسات، خصوصًا عندما تكون محاولة للتنبؤ بالمستقبل أو طلب القوة من غير الله. وهذا يعكس التمييز الذي حاولت الشريعة إقامته بين العبادة المقبولة والممارسات التي اعتبرتها محرمة.

ومع مرور الزمن أصبح العالم غير المرئي أكثر تعقيدًا، وظهرت أفكار عن مراتب للملائكة وأسماء متعددة للكائنات الروحية، وعن قوى شريرة

ومسؤوليتها عن بعض الشرور التي تصيب الإنسان. وقد ازداد هذا التطور وضوحًا في الأدبيات اليهودية التي ظهرت في الفترات المتأخرة.

كما ارتبطت هذه التصورات بفكرة الحماية الإلهية. فالإنسان الذي يؤمن بالله لا يمكن أن يطلب حمايته من القوى الشريرة، وأصبحت الملائكة في بعض التقاليد رمزًا للحراسة والرعاية، بينما أصبحت الشياطين رمزًا للأذى والإغواء.

وبذلك أصبح العالم الديني يضم مستويين مترابطين عالم الإنسان الذي يعيش فيه ويواجه المرض والموت والشر، وعالم غير مرئي يضم الله والملائكة والقوى الروحية. ومع ذلك بقي الله في مركز العقيدة اليهودية، ولم تُعامل الملائكة بوصفها آلهة مستقلة تستحق العبادة.

وهذه التصورات ستساعدنا أيضًا على فهم الاختلافات التي ظهرت داخل المجتمع اليهودي نفسه؛ فمع مرور الزمن لم يعد جميع اليهود يتفقون على تفسير مسائل مثل القيامة والملائكة والروح والعالم الآخر. وظهرت تيارات دينية مختلفة، لكل منها مواقفها الخاصة تجاه هذه القضايا.

وهنا نصل إلى مرحلة مهمة من تاريخ اليهودية الطوائف والتيارات اليهودية، التي ستكشف لنا كيف أصبح الدين نفسه أكثر تنوعًا في تفسير العقيدة والشريعة والعالم الآخر.

الطوائف والتيارات اليهودية

لم تكن اليهودية في الفترات المتأخرة من تاريخها تيارًا دينيًا واحدًا متطابقًا في جميع تفاصيله، بل ظهرت داخل المجتمع اليهودي جماعات وتيارات اختلفت في تفسير الشريعة، وفي مكانة الهيكل والكهنوت، وفي بعض مسائل العقيدة، ولا سيما القيامة والملائكة والعالم الآخر.

ومن أشهر هذه التيارات **الصدوقيون**، وهم جماعة ارتبطت بصورة قوية بالهيكل والكهنوت والطبقات العليا في المجتمع. وكانوا أكثر تمسكًا بالشريعة المكتوبة، ورفضوا بعض المعتقدات التي قبلتها جماعات يهودية أخرى، ومن أبرزها الإيمان بالقيامة والملائكة والأرواح بحسب ما تنقله المصادر القديمة عنهم.

وكان هناك أيضًا **الفريسيون**، الذين أعطوا أهمية كبيرة للشريعة وتفسيرها وتطبيقها في الحياة اليومية. ولم تقتصر اهتماماتهم على العبادة داخل الهيكل، بل سعوا إلى جعل أحكام الشريعة حاضرة في تفاصيل حياة الإنسان، وارتبطوا بتقليد شفهي لتفسير الأحكام وتطبيقها.

وكان الفريسيون يؤمنون، بخلاف الصدوقيين، بالقيامة وبوجود الملائكة، وفق ما تنقله المصادر القديمة عن معتقداتهم. وأصبح تأثيرهم مهمًا بصورة خاصة في تطور اليهودية اللاحقة.

أما **الأسينيون**، فيرتبط اسمهم بجماعة دينية اتسمت بالتشدد في بعض مسائل الطهارة والالتزام الديني، وعاش بعض أفرادها في جماعات منفصلة عن المجتمع السائد. وقد ارتبطت بهم مخطوطات البحر الميت، وإن كان

تحديد العلاقة المباشرة بين الأسينيين وهذه المخطوطات موضع نقاش بين الباحثين.

الغيورون (الزِّيلوت) كان الغيورون تيارًا دينيًا وسياسيًا يهوديًا ظهر في القرن الأول الميلادي في بلاد الشام، ولا سيما في يهودا، في ظل الحكم الروماني. انطلق فكرهم من التشدد في الالتزام بالشريعة ورفض الخضوع لسلطة أجنبية، وعدّوا الاعتراف بسيادة روما على اليهود نوعًا من مخالفة الولاء لله. ولذلك جمع تيارهم بين الحماسة الدينية والموقف السياسي الرافض للاحتلال الروماني.

ارتبط ظهور الغيورين بأجواء التوتر التي شهدتها يهودا خلال القرن الأول الميلادي، ولا سيما بعد فرض الضرائب وتزايد التدخل الروماني في شؤون البلاد. وكان من الشخصيات التي ارتبطت بالبدايات الأولى لهذا الاتجاه يهوذا الجليلي، الذي عارض التعداد السكاني والضرائب في عهد الوالي كيرينيوس في مطلع القرن الأول الميلادي.

ومع تصاعد الصراع مع روما، أصبح الغيورون من القوى البارزة في الثورة اليهودية الكبرى سنة ٦٦م، وشاركوا في القتال ضد الرومان وفي الدفاع عن القدس. وبعد سقوط المدينة وتدمير الهيكل سنة ٧٠م، استمرت جماعات من المتمردين في المقاومة، وكان آخر معاقلهم البارزة مسعدة التي سقطت أمام الجيش الروماني نحو سنة ٧٣ أو ٧٤م.

ولم يكن الغيورون جماعة دينية منفصلة عن اليهودية مثلما يمكن الحديث عن طائفة مستقلة، بل كانوا تيارًا يهوديًا يجمع بين التشدد الديني والمقاومة السياسية. ولهذا كان حضورهم جزءًا من التحولات التي شهدتها اليهودية في

العصر الروماني، قبل أن تؤدي الحروب وسقوط الهيكل إلى تغير عميق في المشهد الديني اليهودي.

وكانت هذه الجماعات تختلف في نظرتها إلى الهيكل والكهنوت والشريعة. فالهيكل كان بالنسبة إلى بعض الجماعات مركزًا أساسيًا للحياة الدينية، بينما انتقدت جماعات أخرى المؤسسة الدينية القائمة ورأت أن هناك انحرافًا عن الطريق الصحيح.

كما اختلفت التيارات اليهودية في العالم الآخر والقيامة والملائكة. فبينما رفض الصدوقيون بعض هذه المعتقدات، قبلها الفريسيون، وكانت لدى جماعات أخرى تصورات أكثر تفصيلًا عن العالم الروحي والمستقبل.

ولم تكن هذه الاختلافات مجرد خلافات فكرية بسيطة، بل كانت تعكس أسئلة عميقة حول معنى الدين نفسه هل تكفي الشريعة المكتوبة، أم تحتاج إلى تفسير وتقليد شفهي؟ ما مكانة الهيكل؟ من يملك حق تفسير الشريعة؟ هل هناك قيامة بعد الموت؟ وكيف تكون علاقة الإنسان بالله؟

ومن المهم ألا ننظر إلى هذه التيارات باعتبارها أديانًا منفصلة، فهي كانت جماعات وتيارات داخل البيئة اليهودية، تشترك في أساس ديني واسع، لكنها تختلف في تفسير عدد من المسائل.

وفي هذه البيئة المتنوعة ظهرت شخصيات وحركات دينية جديدة، وكان من بينها حركة يسوع الناصري، الذي ظهر داخل المجتمع اليهودي في القرن الأول الميلادي. ولذلك فإن فهم ظهور المسيحية لاحقًا يحتاج إلى معرفة هذا التنوع الديني الذي كان موجودًا أصلًا داخل اليهودية.

لكن قبل أن ننتقل إلى المسيحية، يجب أن نفهم كيف تطورت اليهودية نفسها بعد التحولات الكبرى التي أصابت المؤسسة الدينية، وخاصة تدمير الهيكل الثاني سنة ٧٠م.

فقد أدى سقوط الهيكل إلى تغير جذري في الحياة الدينية اليهودية. لم يعد من الممكن استمرار العبادة القائمة على تقديم القرابين بالطريقة نفسها، ولم يعد الهيكل مركز الحياة الدينية كما كان من قبل. وهنا بدأت مرحلة جديدة ستعيد فيها الجماعات اليهودية تنظيم حياتها الدينية حول الشريعة والصلاة والتعليم والتفسير.

ومن هذه المرحلة ظهر الدور المتزايد للعلماء والحاخامات، وتطورت تقاليد التفسير الشفهي، ثم ظهرت لاحقًا أعمال دينية ضخمة ستصبح أساسًا لليهودية الحاخامية. وهذا يقودنا إلى المرحلة الأخيرة من هذا المحور اليهودية في صورتها المتأخرة، وكيف انتقلت من دين يتمحور حول الهيكل والقرابين إلى تقليد ديني يتمحور حول الشريعة والتفسير والصلاة.

السامريون

ظهر السامريون كجماعة دينية مرتبطة بتاريخ بني إسرائيل ومنطقة السامرة في وسط بلاد الشام، لكنهم حافظوا على تقليد ديني خاص بهم، يختلف في جوانب أساسية عن اليهودية التي استقرت لاحقًا. ويربط السامريون أصلهم ببني إسرائيل القدماء، ولا سيما بقبائل المنطقة الشمالية، بينما قدّم التقليد اليهودي رواية مختلفة عن أصولهم وربطهم بالسكان الذين استوطنوا السامرة بعد سقوط مملكة إسرائيل. ومن هنا نشأ خلاف قديم حول هويتهم وأصل جماعتهم، استمر أثره في العلاقات بينهم وبين اليهود.

كان جبل جرزيم قرب نابلس مركزهم الديني الأهم، إذ اعتقد السامريون أن هذا الجبل هو المكان الذي اختاره الله للعبادة، وأنه الموضع الصحيح لإقامة المذبح، في حين جعل اليهود القدس ومعبدها مركز عبادتهم. وأقام السامريون على جبل جرزيم معبدًا أصبح محور حياتهم الدينية، وتشير المصادر التاريخية إلى وجوده منذ العصر الفارسي أو في بدايات العصر الهلنستي، ثم تعرض للتدمير في القرن الثاني قبل الميلاد خلال الصراع بين السامريين والحشمونيين.

يعتمد السامريون على التوراة السامرية، وهي نص للتوراة مكتوب بالخط السامري، ويختلف عن النص العبري اليهودي في عدد من المواضع، ومن أبرزها المواضع التي تؤكد قداسة جبل جرزيم. وكانوا يحتفظون بتقاليدهم الدينية وطقوسهم الخاصة، ومن أهمها الاحتفال بعيد الفصح على جبل جرزيم، حيث ظل ذبح القربان تقليدًا دينيًا مميزًا لديهم.

وشهدت العلاقة بين السامريين واليهود توترات وصراعات متكررة، خصوصًا بسبب الخلاف حول الشرعية الدينية ومكان العبادة، وازدادت حدتها في بعض الفترات الرومانية والبيزنطية. ومع مرور القرون تراجعت أعداد السامريين بصورة كبيرة، حتى أصبحت جماعتهم في العصر الحديث من أصغر الجماعات الدينية في العالم. وما زال أحفادهم يعيشون اليوم، بصورة أساسية، بين جبل جرزيم ونابلس ومجتمع سامري في حولون، محافظين على تقاليدهم ولغتهم وطقوسهم الدينية القديمة.

اليهودية في صورتها المتأخرة

أدى تدمير الهيكل الثاني في القدس سنة ٧٠م إلى تحول كبير في الحياة الدينية اليهودية. فقد كان الهيكل مركزًا أساسيًا للعبادة، وكانت القرابين من أهم الشعائر التي تُقام فيه، ولذلك شكّل فقدانه تحديًا دينيًا كبيرًا كيف تستمر الحياة الدينية عندما لم يعد المعبد الذي كانت تتم فيه العبادة المركزية قائمًا؟

تدريجيًا أصبحت الشريعة والصلاة ودراسة النصوص أكثر أهمية في الحياة اليهودية، ولم تعد العبادة تعتمد على القرابين الحيوانية كما كانت في عصر الهيكل. وأخذت المجتمعات اليهودية تنظم حياتها حول أماكن العبادة والتعليم، وبرز دور العلماء الذين حفظوا التقاليد الدينية وفسروا الأحكام.

ومن هنا ازداد نفوذ الحاخامات، وهم علماء ومتخصصون في دراسة الشريعة والتقاليد اليهودية. ولم يكن الحاخام كاهنًا بالمعنى القديم؛ فوظيفته الأساسية أصبحت مرتبطة بالتعليم والتفسير وإصدار الأحكام الدينية وتوجيه المجتمع. وكان من أهم ما تطور في هذه المرحلة التقليد الشفهي، أي مجموعة التفسيرات والقواعد التي تناقلها العلماء لفهم الشريعة وتطبيقها على الحالات المختلفة. ومع مرور الزمن جُمعت أجزاء كبيرة من هذه التقاليد في مؤلفات أصبحت أساسًا للفقه اليهودي. ومن أبرز هذه المؤلفات المِشناه، التي جُمعت في أواخر القرن الثاني الميلادي، ثم جاءت الجِمارا ومناقشات العلماء حولها، ومعًا شكلا التلمود في نسختيه الرئيسيتين التلمود البابلي والتلمود الأورشليمي. ولم يكن التلمود مجرد كتاب للقوانين الدينية، بل احتوى على مناقشات وأسئلة وأجوبة وقصص وتفسيرات ونقاشات بين العلماء حول كيفية فهم النصوص وتطبيقها. ولذلك أصبح عنصرًا أساسيًا في تطور اليهودية الحاخامية. ومع تراجع دور الهيكل، أصبحت الكنيس أو أماكن

اجتماع اليهود للعبادة والتعليم أكثر أهمية. وأصبحت الصلاة وقراءة النصوص ودراسة الشريعة من أبرز مظاهر الحياة الدينية، إلى جانب الالتزام بالسبت والأعياد وقوانين الطعام والطهارة وغيرها من الأحكام.

كما استمرت الأعياد اليهودية، لكن بعض طقوسها تغيرت نتيجة غياب الهيكل. فأصبح الاحتفال داخل الأسرة والمجتمع أكثر أهمية، وتحولت بعض الممارسات التي كانت مرتبطة بالمعبد إلى طقوس منزلية أو جماعية.
وأصبحت دراسة الشريعة في حد ذاتها شكلًا مهمًا من أشكال العبادة. ففهم النصوص ومناقشة الأحكام ومحاولة تطبيقها على الحياة اليومية أصبحت جزءًا من هوية المجتمع الديني. وفي هذه المرحلة أخذت اليهودية تنتشر أكثر بين جماعات تعيش خارج بلاد الشام، وظهرت مجتمعات يهودية في مناطق مختلفة من العالم. ومع اختلاف البيئات ظهرت تقاليد وأساليب مختلفة في النطق والعبادة والعادات، مع بقاء عناصر أساسية مشتركة في الدين. كما استمر تطور التفكير اليهودي حول الله والإنسان والخطيئة والتوبة والموت والعالم الآخر، وظهرت تفسيرات فلسفية وصوفية ولاهوتية مختلفة في الفترات اللاحقة. ومع مرور القرون ظهرت داخل اليهودية اتجاهات جديدة، وخصوصًا في العصور الوسطى والعصر الحديث، وتطورت مدارس فكرية وحركات دينية متعددة. لكن هذه التحولات تقع في مراحل تاريخية لاحقة، ولا ينبغي أن نخلط بينها وبين اليهودية القديمة التي ندرسها في هذا الجزء.

وهكذا انتقلت اليهودية من مرحلة كان فيها الهيكل والمذبح والقرابين في مركز العبادة، إلى مرحلة أصبح فيها النص والشريعة والصلاة والتعليم في قلب الحياة الدينية. ولم يكن هذا التحول إلغاءً للدين القديم، بل إعادة تنظيم له في ظروف تاريخية جديدة.

النبوءات

نبوءات عاموس

كان عاموس من أنبياء مملكة إسرائيل الشمالية في القرن الثامن قبل الميلاد، وتدور نبوءاته بصورة كبيرة حول الدينونة والخراب الذي سيصيب إسرائيل والأمم المحيطة بها، ثم ينتهي سفره بوعد بالاستعادة والازدهار.

١. نبوءة خراب دمشق وآرام

تنبأ عاموس بأن دمشق ستنال عقابًا بسبب ما ارتكبته من أعمال عنيفة ضد جلعاد، وقال إن النار ستُرسل إلى بيت حزائيل وتلتهم قصور بن هدد (عاموس ١:٣–٥)

٢. نبوءة خراب غزة والفلسطينيين

تنبأ عاموس بعقاب غزة بسبب أسر جماعات كاملة وتسليمها إلى أدوم، وذكر أن النار ستلتهم أسوار غزة وقصورها. ثم امتد الحكم إلى مدن فلسطينية أخرى هي أشدود وأَسْقَلون وعَقرون (عاموس ١:٦–٨).

٣. نبوءة عقاب صور

تنبأ عاموس بأن صور ستُعاقب بسبب تسليمها جماعات من الأسرى إلى أدوم وعدم حفظها عهد الأخوة، وقال إن النار ستلتهم أسوارها وقصورها (عاموس ١:٩–١٠).

٤. نبوءة عقاب أدوم وعمون وموآب

تتوالى في السفر نبوءات ضد أدوم وعمون وموآب بسبب أعمال عنيفة نسبت إليها، ويتنبأ عاموس بنار تلتهم مدنها وقصورها (عاموس ١:١١–٢:٣). ثم ينتقل من الأمم المحيطة إلى يهوذا وإسرائيل.

٥. نبوءة خراب يهوذا

يتنبأ عاموس بأن النار ستلتهم أورشليم وقصورها بسبب رفضهم شريعة الرب وعدم حفظ فرائضه (عاموس ٢:٤–٥).

٦. النبوءة الكبرى ضد إسرائيل

وهذه من أهم نبوءات عاموس. فهو لا يكتفي بإدانة الخطايا الدينية، بل يركز بصورة واضحة على الظلم الاجتماعي واستغلال الفقراء والفساد. ويتنبأ بأن إسرائيل ستُسلَّم للمصير الذي تستحقه، وأن يوم الحساب سيأتي عليها (عاموس ٦:٢–١٦؛ ٩:٣–١٥؛ ١:٥–١٧).

٧. «يوم الرب» لن يكون كما يتوقعون (اليوم الموعود)

من أشهر نبوءات عاموس قوله إن بعض الناس ينتظرون «يوم الرب» باعتباره يوم انتصار، لكنه يحذر من أنه سيكون بالنسبة لهم يوم ظلمة لا نور، أي يوم دينونة وعقاب (عاموس ١٨:٥–٢٠). وهذه فكرة نبوئية مهمة جدًا في تطور مفهوم «يوم الرب» في الأدب النبوي.

٨. نبوءة السبي يعلن عاموس أن إسرائيل ستذهب إلى السبي، ويربط ذلك بالدينونة الإلهية على المملكة، ويقول إن الرب سيقيم أمة عليها من مدخل حماة إلى وادي العربة (عاموس ١٤:٦؛ ٢٧:٥).

٩. رؤى الجراد والنار والسلة

يعرض عاموس سلسلة من الرؤى الرمزية رؤيا الجراد، ورؤيا النار، ورؤيا الفادن/الميزان، ورؤيا سلة الفاكهة الصيفية. وفيها يرى رموزًا للدينونة الوشيكة على إسرائيل، وفي الرؤيا الأخيرة خصوصًا يأتي إعلان أن النهاية قد اقتربت (عاموس ١:٧–٩؛ ١:٨–٣).

١٠. نبوءة المجاعة التي ليست مجاعة خبز

يتنبأ عاموس بمجيء أيام يرسل فيها الرب جوعًا وعطشًا، لكن ليس إلى الطعام والماء، بل إلى سماع كلام الرب، فيبحث الناس عن كلمة الرب ولا يجدونها (عاموس ١١:٨–١٢).

١١. سقوط إسرائيل وعدم الإفلات من الدينونة

في ختام أحكامه يؤكد عاموس أن إسرائيل لن تستطيع الهرب من الدينونة، حتى لو حاول أهلها الاختباء في أعالي الجبال أو أعماق البحر؛ فالرب سيصل إليهم (عاموس ١:٩–٤).

١٢. نبوءة استعادة «خيمة داود»

بعد سلسلة طويلة من نبوءات الخراب، يختم السفر بنبوءة مختلفة «في ذلك اليوم» سيُقام «بيت داود» الساقط وتُصلح خرابه، وتُبنى مدنه من جديد. ثم يصف زمنًا من الوفرة الزراعية، حيث تتتابع أعمال الحرث والحصاد وقطاف العنب بصورة تكاد تتداخل، ويعود الشعب إلى أرضه ولا يُقتلع منها من جديد (عاموس ١١:٩–١٥).

سفر عاموس يبدأ بسلسلة أحكام على الأمم وينتهي بوعد إعادة بناء بيت داود، وعودة إسرائيل إلى أرضها، وازدهارها.

نبوءات هوشع

١. نبوءة سبي إسرائيل بسبب خيانتها

حذّر هوشع مملكة إسرائيل من أن استمرارها في عبادة الآلهة الأخرى والاعتماد على القوى الأجنبية سيقود إلى سقوطها. ويصور إسرائيل وإفرايم بصورة خاصة بوصفهما متجهين نحو الدمار، ويذكر آشور باعتبارها القوة التي ستصبح أداة للعقاب؛ حتى إن إسرائيل ستدرك لاحقًا أن آشور لا تستطيع إنقاذها.

٢. نبوءة سقوط السامرة

تنبأ هوشع بسقوط السامرة، عاصمة مملكة إسرائيل، وربط سقوطها بعبادة الأصنام والابتعاد عن الإله. وفي ختام السفر يصف السامرة بأنها ستتحمل نتيجة تمردها، وأن أهلها سيسقطون بالسيف.

٣. نبوءة الذهاب إلى آشور

من الصور المتكررة عند هوشع أن إسرائيل ستذهب إلى آشور، لا باعتبارها حليفة تنقذها، بل باعتبارها جزءًا من الحكم الواقع عليها. ويؤكد أن اللجوء إلى آشور أو مصر لن ينقذ إسرائيل من مصيرها.

٤. نبوءة نهاية عبادة الأصنام

يتنبأ هوشع بمرحلة يعود فيها إسرائيل إلى الإله ويتخلى عن الأصنام، ويقول في خاتمة السفر إن إفرايم سيبتعد عن الأصنام، في سياق وعد بالشفاء والاستعادة. (إفرايم اسم سبط من أسباط إسرائيل أصبح يستخدم في النصوص النبوية للدلالة على مملكة إسرائيل الشمالية)

٥. نبوءة استعادة إسرائيل وازدهارها

لا تنتهي نبوءات هوشع بالخراب. ففي الفصل الأخير يأتي وعد بأن الله سيشفي ارتداد إسرائيل ويحبه، وأن إسرائيل سيزدهر مثل الزهرة، وتنتشر أغصانه وتعود أرضه إلى الخصوبة، ويعود شعبه إلى الاستقرار.

نبوءات يوئيل

١. نبوءة اجتياح الجراد

يصف يوئيل جيشًا هائلًا من الجراد يجتاح الأرض ويدمر الزرع والكروم والأشجار، حتى تصبح الأرض في حالة خراب. ويصور هذا الاجتياح كعلامة على اقتراب «يوم الرب»، مع دعوة الشعب إلى التوبة والصوم والرجوع إلى الله (يوئيل ١:٤–٢٠؛ ٢:١–١١).

٢. نبوءة التوبة ورفع الكارثة

يدعو يوئيل الشعب إلى الرجوع إلى الله بالقلب والصوم والبكاء، ويَعِد بأنه إذا عادوا إليه فقد يرفع عنهم الكارثة ويعيد إلى الأرض خصوبتها (يوئيل ٢:١٢–١٤).

٣. نبوءة عودة الخصوبة

بعد الخراب، يتنبأ يوئيل بأن الأرض ستُثمر من جديد، وتمتلئ المعاصر بالزيت والخمر، ويعوّض الله الشعب عن السنوات التي أكلها الجراد، فيعود الخير والوفرة إلى الأرض (يوئيل ٢:١٨–٢٧).

٤. نبوءة سكب الروح

من أشهر نبوءات يوئيل قوله إن الله سيسكب روحه على البشر، فيتنبأ الأبناء والبنات، ويحلم الشيوخ أحلامًا، ويرى الشباب رؤى، بل ويُسكب الروح على العبيد والإماء. وترتبط هذه النبوءة بعبارة «بعد ذلك» وباقتراب «يوم الرب» (يوئيل ٢:٢٨–٣١).

٥. نبوءة العلامات السماوية ويوم الرب

يتنبأ يوئيل بحدوث ظواهر كبرى في السماء والأرض قبل مجيء يوم الرب، ومنها تحول الشمس إلى ظلمة والقمر إلى دم، ويصف ذلك بأنه يوم عظيم ومخيف (يوئيل ٢:٣٠–٣١).

٦. نبوءة نجاة من يدعو باسم الرب

في وسط هذه النبوءات المرعبة يأتي وعد بأن «كل من يدعو باسم الرب ينجو»، وأن الناجين سيكونون في جبل صهيون وأورشليم وفق النص (يوئيل ٢:٣٢).

٧. اجتماع الأمم في وادي يهوشافاط

يتنبأ يوئيل بأن الأمم ستجتمع للدينونة بسبب ما فعلته بشعب يهوذا وأورشليم، ويصور الله وكأنه يجمعها إلى «وادي يهوشافاط» للمحاكمة والدينونة (يوئيل ٣:١–٨).

٨. نبوءة الدينونة والحرب بين الأمم

يدعو النص الأمم إلى الاستعداد للحرب، ويصور اجتماع جيوشها ثم دينونتها. ويعلن أن يوم الرب قريب، وأن الشعوب ستصل إلى الوادي من أجل الدينونة (يوئيل ٣:٩–١٤).

٩. نبوءة اضطراب الشمس والقمر والنجوم

يعود يوئيل في مشهد الدينونة إلى وصف اضطراب الأجرام السماوية الشمس والقمر يظلمان، والنجوم تحجب نورها، بينما يصدر صوت الرب من صهيون وتهتز السماء والأرض (يوئيل ١٥:٣–١٦).

١٠. نبوءة قداسة أورشليم وازدهارها

ينتهي السفر بصورة مختلفة تمامًا عن مشهد الخراب تصبح أورشليم موضعًا مقدسًا، وتفيض الجبال بالعصير، والتلال باللبن، وتكثر المياه، ويخرج ينبوع من بيت الرب، بينما تبقى يهوذا وأورشليم إلى الأبد بحسب النص (يوئيل ١٧:٣–٢١).

نبوءات ميخا

١. نبوءة خراب السامرة

يفتتح ميخا نبوءاته بإعلان دينونة على السامرة وأورشليم، ويقول إن السامرة ستصبح «خرِبة في الحقل»، وتُهدم أساساتها وتُكشف أحجارها، بسبب خطايا مملكة إسرائيل (ميخا ٢:١–٧). وهي نبوءة مرتبطة بعاصمة مملكة إسرائيل الشمالية بشكل مباشر.

٢. نبوءة خراب مدن يهوذا

لا يقتصر الحكم على السامرة؛ فيعدد ميخا عددًا من مدن يهوذا، ويربط أسماءها بمصيرها في سلسلة من الصور البلاغية، مثل بيت لعفرة وصفير ومريشة وغيرها، في سياق اقتراب العدو من أورشليم (ميخا ٨:١–١٦).

٣. نبوءة سقوط أورشليم وهيكلها

من أشهر نبوءات ميخا قوله إن صهيون ستُحرث كحقل، وتصير أورشليم خِرَبًا، وجبل البيت كمرتفعات وعرة بسبب فساد القادة والكهنة والأنبياء (ميخا ٣:٩–١٢).

٤. نبوءة ارتفاع جبل بيت الرب

بعد إعلان الخراب، ينتقل ميخا إلى صورة مستقبلية مختلفة يكون جبل بيت الرب ثابتًا في رأس الجبال، وتتجه إليه الشعوب، ويأتي كثير من الأمم قائلين إنهم سيصعدون إلى جبل الرب ليتعلموا طرقه (ميخا ٤:١–٢).

٥. نبوءة السلام بين الأمم

في المشهد نفسه يقول ميخا إن الشعوب ستصنع سيوفها سِككًا ورماحها مناجل، ولا تتعلم الحرب بعد ذلك، ويجلس كل إنسان تحت كرمته وتينته دون خوف (ميخا ٤:٣–٤).

٦. نبوءة جمع المنفيين

يتنبأ ميخا بأن الرب سيجمع العرج والمطرودين والمتألمين، ويجعل منهم شعبًا، ويعيد لهم القوة، في إشارة إلى استعادة الجماعة بعد فترة من المصائب والتشتت (ميخا ٤:٦–٨).

٧. نبوءة الحاكم الخارج من بيت لحم

من أشهر نصوص ميخا: «أما أنت يا بيت لحم أفراتة»، حيث يتنبأ بأن من بيت لحم سيخرج حاكم لإسرائيل، ويربط ظهوره بأصل قديم، ثم يصفه بأنه يرعى الشعب بقوة الرب ويكون عظيمًا حتى أقاصي الأرض (ميخا ٥:٢–٤

بحسب ترقيم بعض الترجمات). وهذا النص أصبح لاحقًا من أهم النصوص التي فسرتها المسيحية على أنها نبوءة عن ميلاد المسيح.

٨. نبوءة هزيمة أعداء إسرائيل

يتنبأ ميخا بأن شعب إسرائيل سيعود إلى القوة وأنه سيكون بين الأمم مثل الأسد، بينما تُزال منه الأدوات والوسائل المرتبطة بالسحر والعرافة والأصنام (ميخا ٥:٧–١٥).

٩. نبوءة محاكمة إسرائيل

يصور ميخا الله وهو يدخل في دعوى مع شعبه، ويستدعي الجبال والتلال كشهود، ثم يذكّر إسرائيل بما فعله لأجلها منذ الخروج من مصر، ويسأل عمّا يطلبه منها، لينتهي إلى التأكيد على العدل والرحمة والتواضع (ميخا ١:٦–٨). وهي ليست نبوءة عن حدث عسكري محدد، لكنها جزء أساسي من الرسالة النبوئية التي تفسر سبب العقاب.

١٠. نبوءة خراب المدن بسبب الظلم

يتنبأ ميخا بعقوبات تشمل خراب المدن وفقدان المحاصيل والممتلكات، وأن الشعب سيزرع ولا يحصد، ويعصر الزيتون ولا يدهن بالزيت، ويصنع الخمر ولا يشربه، بسبب الظلم والفساد (ميخا ٩:٦–١٦).

١١. نبوءة سقوط الأعداء واستعادة إسرائيل

في خاتمة السفر، يظهر وعد بأن إسرائيل ستعود من حالة الضعف، وأن أعداءها سيخجلون ويسألون «أين هو الرب إلهك؟»، بينما يعلن ميخا ثقته بأن الله سيغفر لشعبه ويعيده ويثبت رحمته له (ميخا ٨:٧–٢٠).

نبوءات إشعياء

١. نبوءة خراب مملكة إسرائيل

يتنبأ إشعياء بسقوط مملكة إسرائيل الشمالية، ويصف زوال مجدها وذهاب سكانها إلى السبي، في سياق صعود آشور. ويرتبط ذلك تاريخيًا بسقوط السامرة سنة ٧٢٢ ق.م. (إشعياء ٨:٧؛ ٤:٨؛ ٥:١٠–١١).

٢. نبوءة سقوط دمشق وإفرايم

يعلن إشعياء أن دمشق ستزول من بين المدن، وأن مجد بني إسرائيل يضعف، في إشارة إلى التحالف بين آرام دمشق ومملكة إسرائيل في زمن الحرب الآرامية-الإفرايمية (إشعياء ١:١٧–٦). وهذه من النبوءات المحددة جدًا لأنها تسمي دمشق وإفرايم.

٣. نبوءة خراب آشور

مع أن آشور هي أداة العقاب في جزء كبير من السفر، فإن إشعياء يتنبأ أيضًا بسقوطها. ويعلن أن الله سيعاقب ملك آشور بسبب كبريائه، وأن مجد آشور سيزول (إشعياء ١٢:١٠–١٩، ٢٤–٢٧).

٤. نبوءة سقوط بابل

يحتوي إشعياء على نبوءة طويلة ضد بابل، يصورها فيها كمدينة ستسقط ويزول مجدها، ويصف خرابها بأنها ستصبح مثل سدوم وعمورة. ويذكر أن الماديين سيهاجمونها (إشعياء ١:١٣–٢٢). ثم يعود في الفصل ١٤ إلى الحديث عن سقوط ملك بابل وانكسار سلطانه.

٥. نبوءة سقوط موآب

يخصص إشعياء فصولًا لنبوءة ضد موآب، فيذكر مدنًا موآبية بالاسم، منها عر وقيرِ وميدبة وحشبون ويعزير وصوغر، ويصف النواح والخراب الذي سيحل بالبلاد (إشعياء ١٥–١٦).

٦. نبوءة خراب دمشق وإسرائيل ثم بقاء بقية

يعود إشعياء إلى دمشق وإسرائيل، ويصف زوال الحصون والمدن، لكنه يترك صورة بقية قليلة تتذكر خالقها بعد الكارثة (إشعياء ١٧:٧–٩).

٧. نبوءة مصر

يتنبأ إشعياء باضطراب مصر وانقسامها الداخلي، وبأن المصريين سيستشيرون الأصنام والعرافين والسحرة، ثم يتحدث عن حكم قاسٍ عليها، لكنه ينتهي بصورة مختلفة مصر وآشور وإسرائيل تصبح معًا في مشهد بركة، ويقول النص إن الرب سيبارك مصر وآشور مع إسرائيل (إشعياء ١٩:١–٢٥).

٨. نبوءة سقوط صور

يتنبأ إشعياء بسقوط صور وتوقف تجارتها، ويصف خرابها لمدة محددة، ثم يقول إنها بعد ذلك ستعود إلى نشاطها التجاري، ويخصص بعض ثروتها للرب (إشعياء ٢٣:١–١٨). وهذه من أهم نبوءات السفر المتعلقة بمدن الساحل الفينيقي.

٩. نبوءة اجتياح أرض يهوذا

في سياق الحديث عن الخطر الآشوري، يصور إشعياء زحف الجيوش واقترابها من أورشليم، ويذكر مدنًا ومواقع في يهوذا، ثم يصل الخطر إلى أورشليم نفسها (إشعياء ٢٨: ١٠–٣٢).

١٠. نبوءة إنقاذ أورشليم من آشور

أثناء حصار سنحاريب لأورشليم، يعلن إشعياء أن ملك آشور لن يدخل المدينة ولن يطلق عليها سهمًا، وأن الرب سيدافع عنها، ثم يرحل جيش آشور. ويرتبط هذا السرد بحملة سنحاريب سنة ٧٠١ ق.م. (إشعياء ٣٦–٣٧).

١١. نبوءة مرض حزقيا ثم إطالة عمره

يعلن إشعياء للملك حزقيا أنه سيموت بسبب مرضه، ثم بعد صلاة حزقيا يعود النبي ويخبره بأن حياته ستُزاد خمس عشرة سنة، ويعطيه علامة مرتبطة برجوع الظل إلى الوراء (إشعياء ١: ٣٨–٨).

١٢. نبوءة السبي البابلي

بعد أن أظهر حزقيا للرسل البابليين خزائن مملكته، يتنبأ إشعياء بأن كل ما في القصر سيُحمل إلى بابل، وأن بعض أبناء الملك سيُؤخذون ويصبحون في قصر ملك بابل (إشعياء ٥: ٣٩–٧).

١٣. نبوءة عودة المنفيين من بابل

يعلن إشعياء أن بابل ستسقط وأن شعب يهوذا سيخرج من السبي ويعود إلى أرضه. وتظهر في هذه الأقسام صور الطريق الممهد في البرية، وتحولها إلى

طريق للعودة، وتعزية أورشليم (إشعياء ٤٠:١–١١؛ ٤٨:٢٠–٢١؛ ٥٢:٧–١٢).

١٤. نبوءة كورش ملك فارس

من أكثر نبوءات إشعياء تحديدًا أن النص يذكر كورش بالاسم ويصفه بأنه الشخص الذي سيستخدمه الرب لتحقيق مشيئته، ويفتح أمامه الأبواب ويخضع الأمم، ثم يقول إن كورش سيأمر بإعادة بناء أورشليم ووضع أساس الهيكل (إشعياء ٤٤:٢٨؛ ٤٥:١–٧). ويُنسب هذا النص في التقليد إلى إشعياء، مع وجود نقاش أكاديمي واسع حول تأليف الأقسام المتأخرة من السفر وتاريخ صياغتها.

١٥. نبوءة أورشليم الجديدة ومجد صهيون

يتنبأ إشعياء بمستقبل تُرفع فيه مكانة أورشليم، وتأتي إليها الأمم والملوك، ويصفها بأنها ستلبس المجد ويأتي إليها الغنى من الشعوب (إشعياء ٦٠).

١٦. نبوءة «عمانوئيل»

في سياق الحرب الآرامية-الإفرايمية، يعطي إشعياء لآحاز علامة عن ولادة طفل يسمى عمانوئيل، ويقول إن الأرض التي يخشى منها ستُترك قبل أن يعرف الطفل أن يرفض الشر ويختار الخير (إشعياء ٧:١٠–١٧). وهذا النص له تفسير تاريخي في سياقه الأصلي، ثم أصبح من أهم النصوص التي فسرتها المسيحية لاحقًا باعتبارها مرتبطة بالمسيح.

١٧. نبوءة الطفل الملكي

يتحدث إشعياء عن طفل يولد ويُعطى له الحكم، ويصفه بألقاب عظيمة، ويتنبأ باتساع سلطانه وإرساء العدل والسلام على كرسي داود (إشعياء ٩:١–٧).

وأصبح هذا النص أيضًا من النصوص التي قرأتها المسيحية لاحقًا باعتبارها نبوءة مسيانية.

١٨. نبوءة «الغصن» من جذع يسى

يتنبأ إشعياء بخروج غصن من جذع يسى، والد داود، ويصف حاكمًا يتمتع بروح الرب ويحكم بالعدل، ثم يصور زمنًا من السلام تتعايش فيه الحيوانات المفترسة مع الضعيفة، ويقول إن الأرض تمتلئ من معرفة الرب (إشعياء ١١:١-١٠). وهذا من أشهر النصوص المسيانية في الكتاب العبري.

١٩. نبوءة جمع الشعوب وبقية إسرائيل

يتحدث إشعياء عن عودة بقية إسرائيل من الجهات المختلفة، واجتماع المنفيين، وعودة الجماعة إلى أرضها تحت راية جديدة (إشعياء١١:١١-١٦)

٢٠. نبوءة «عبد الرب» المتألم

في إشعياء ٥٢:١٣-٥٣:١٢ يظهر وصف لعبد يتألم ويُرفض ويحمل آثام الآخرين، ثم يُرفع ويُعطى نصيبًا بعد معاناته. هذا النص من أكثر النصوص التي أصبحت محورًا للخلاف بين التفسير اليهودي والتفسير المسيحي؛ فالمسيحية قرأته بوصفه نبوءة عن المسيح، بينما تتعدد التفسيرات اليهودية له، ومنها تفسيره بالجماعة أو بإسرائيل أو بشخصية أخرى.

٢١. نبوءة خلق سماء جديدة وأرض جديدة

في نهاية السفر تظهر صورة مستقبلية لخلق «سماء جديدة وأرض جديدة»، حيث لا يعود الموت المبكر كما كان، ويعيش الناس في بيوتهم ويأكلون ثمار ما زرعوه، وتختفي صور الظلم والخراب (إشعياء ٦٥:١٧-٢٥).

نبوءات عوبديا

١. نبوءة سقوط أدوم

يعلن عوبديا أن الرب سيجعل أدوم «صغيرة بين الأمم» وأنها ستصبح محتقرة، بسبب كبريائها وثقتها بموقعها الحصين في الجبال. ويصور الأدوميين وهم يظنون أن لا أحد يستطيع الوصول إليهم، ثم يعلن أن الرب سينزلهم من موضعهم المرتفع (عوبديا ١:١–٤).

٢. نبوءة نهب أدوم وتدمير ثروتها

يتنبأ بأن اللصوص والناهبين سيأتون على أدوم، وأن ما تختزنه من ثروات سيُنهب، بل إن حلفاءها وأصدقاءها سيخدعونها ويتخلون عنها (عوبديا ١:٥–٧).

٣. نبوءة سقوط حكماء أدوم

يعلن عوبديا أن الحكمة ستزول من أدوم، وأن رجالها الأقوياء سيُهزمون، بحيث يُقتل الرجال في جبل أدوم وتُقطع حكمة البلاد وقوتها (عوبديا١:٨–٩)

٤. سبب العقاب موقف أدوم من أورشليم

وهنا تظهر نقطة مهمة جدًا عوبديا لا يقدم سقوط أدوم باعتباره مجرد هزيمة عسكرية، بل يربطه بما فعلته بأورشليم. فعندما تعرضت يهوذا للكارثة، وقف الأدوميون موقفًا عدائيًا، وفرحوا بسقوطها، ودخلوا أبوابها، ونهبوا ممتلكاتها، واعترضوا طريق الناجين وسلّموهم لأعدائهم (عوبديا١٠:١–١٤)

٥. نبوءة «يوم الرب» على الأمم

يعلن عوبديا أن يوم الرب قريب على جميع الأمم، وأن ما فعلته أدوم بغيرها سيرتد عليها «كما فعلت يُفعل بك». وهنا تتحول نبوءة أدوم من حكم على مملكة واحدة إلى جزء من تصور أوسع لدينونة الأمم (عوبديا ١٥:١–١٦).

٦. نبوءة استعادة جبل صهيون

بعد خراب أدوم، يتنبأ عوبديا بأن النجاة ستكون في جبل صهيون، وأن بيت يعقوب سيستعيد أرضه وممتلكاته (عوبديا ١٧:١).

٧. نبوءة انتصار إسرائيل على أدوم

يصور السفر بيت يعقوب ويوسف كالنار التي تحرق أدوم، ويذكر أن بني إسرائيل سيستعيدون مناطق كانت خاضعة لأعدائهم. ويظهر في النهاية أن الملك يكون للرب (عوبديا ١٨:١–٢١).

نبوءات يونان

١. نبوءة خراب نينوى

أرسل الله يونان إلى نينوى، عاصمة الإمبراطورية الآشورية، ليعلن لها أن شرها قد بلغ حدًا يستوجب العقاب، وأنها ستتعرض للخراب. وكانت الرسالة مختصرة ومباشرة: «بعد أربعين يومًا تنقلب نينوى» (يونان ٤:٣).

٢. توبة أهل نينوى

بعد إعلان النبوءة، صدّق أهل نينوى الرسالة، وأعلنوا صومًا ولبسوا المسوح، من الملك إلى عامة الناس، وأعلنوا الرجوع عن الشر والعنف. ثم تراجع الله عن إنزال الكارثة التي أعلنها عليهم عندما رأى توبتهم (يونان

٥:٣–١٠). ولذلك يُستخدم سفر يونان أيضًا لتوضيح أن بعض النبوءات التحذيرية كانت تؤدي وظيفة إنذار ودعوة إلى التوبة، وليس بالضرورة إعلان حدث لا يمكن تغييره.

٣. دلالة نبوءة يونان

يُظهر السفر أن الرحمة الإلهية، بحسب روايته، لا تقتصر على بني إسرائيل؛ فأهل نينوى، وهم من الآشوريين، يحصلون على فرصة للنجاة عندما يتراجعون عن الشر. ولهذا كان اعتراض يونان نفسه على عدم وقوع العقوبة جزءًا أساسيًا من القصة (يونان ١:٤–١١).

نبوءات ناحوم

١. نبوءة سقوط نينوى

يعلن ناحوم أن الرب سيقضي على نينوى، ويصف المدينة بأنها ستتعرض للهجوم والاقتحام والخراب، بعد أن كانت قوة عظمى تفرض سلطانها على الشعوب (ناحوم ٨:١–١٤؛ ١:٢–١٠).

٢. نبوءة اقتحام المدينة

يقدم السفر مشهدًا حربيًا واضحًا المهاجمون يتقدمون نحو المدينة، والدروع والخيول والعربات في حالة استعداد، وتُفتح أبواب الأنهار، ويهرب السكان، وتُنهب خزائن المدينة. ويصف ناحوم نينوى بأنها كانت مثل عرين للأسود مليئًا بالغنائم، ثم يعلن أن هذا العرين سيُدمَّر (ناحوم ١:٢–١٣).

٣. نبوءة خراب نينوى بسبب عنفها

يذكر ناحوم أن نينوى امتلأت بالقتل والخداع والنهب، ولذلك ستكون نهايتها علنية ومهينة، ويقول إن الجميع سيرى عريها وخرابها (ناحوم ١:٣–٧).

٤. نبوءة مقارنة نينوى بسقوط نو-آمون

يذكّر ناحوم بسقوط نو-آمون (طيبة المصرية)، التي كانت مدينة قوية ومحاطة بالمياه وحلفائها، ومع ذلك سقطت وأُخذ سكانها إلى السبي. ثم يسأل إذا كانت طيبة القوية قد سقطت، فكيف ستنجو نينوى؟ (ناحوم ٨:٣–١٠).

٥. نبوءة احتراق نينوى وانتهاء قوتها

يصف ناحوم نهاية المدينة بالنار والسيف والنهب، ويعلن أن تحصيناتها لن تنقذها، وأن قوتها العسكرية ستنهار، حتى يصبح مصيرها عبرة للأمم (ناحوم ١١:٣–١٩).

نبوءات حبقوق

١. نبوءة صعود الكلدانيين

يعلن الرب لحبقوق أنه سيقيم الكلدانيين، وهم البابليون، كقوة عسكرية شديدة القسوة، ويصفهم بأنهم أمة سريعة ومخيفة، تجتاح الأراضي وتستولي على المدن والحصون (حبقوق ١:٥–١١). وهذه من أهم نبوءاته لأنها تحدد القوة التي ستأتي بالعقاب.

٢. نبوءة غزو الأمم

يصف حبقوق الجيش الكلداني بأنه يتقدم بسرعة، ويجمع الأسرى كالرمل، ويستهزئ بالملوك والحصون، ويعبر الأرض ليأخذ ما ليس له (حبقوق ١:٦–١١).

٣. نبوءة دينونة بابل نفسها

المهم أن بابل، رغم استخدامها كأداة للعقاب، لن تفلت من الحساب. ففي الفصل الثاني يعلن السفر أن هناك «خمسة ويلات» على من يجمع ما ليس له، ويبني مدينة بالدم، ويسفك الدماء ويظلم الشعوب. وهذه الويلات موجهة في سياقها إلى القوة الظالمة التي تمثلها بابل (حبقوق ٢:٦–٢٠).

٤. نبوءة سقوط القوة المتكبرة

يتنبأ حبقوق بأن ما تجمعه بابل من الأمم سينقلب عليها، وأن الشعوب التي سلبتها ستقوم عليها، وأن المدينة التي بُنيت بالظلم ستنال جزاءها (حبقوق ٢:٨–١٣).

٥. نبوءة امتلاء الأرض بمعرفة مجد الرب

وسط هذه النبوءات عن الحرب والدمار، يرد إعلان مستقبلي واسع «تمتلئ الأرض من معرفة مجد الرب» كما تغطي المياه البحر (حبقوق ٢:١٤).

٦. نبوءة زوال عبادة الأصنام

يهاجم حبقوق الأصنام المصنوعة من الخشب والحجر والذهب والفضة، ويعلن أنها لا تستطيع الكلام أو التعليم أو إنقاذ من يعبدها، في مقابل الرب الموجود في هيكله المقدس (حبقوق ٢:١٨–٢٠).

٧. مشهد ظهور الرب ودينونة الأمم

في الفصل الثالث تظهر قصيدة نبوئية تصف مجيء الرب بقوة وهيبة، وارتجاف الأرض والجبال، واضطراب الطبيعة، ثم تصويره كمن يخرج لإنقاذ شعبه وسحق القوى المعادية (حبقوق ٣:٣–١٥).

٨. النجاة رغم الخراب

يختم حبقوق بصورة شديدة الأهمية حتى لو لم يثمر التين، ولم تنتج الكروم، وفشلت المحاصيل ونفقت المواشي، يبقى النبي متمسكًا برجائه بالله (حبقوق ٣:١٧–١٩).

نبوءات صفنيا

١. نبوءة «يوم الرب» على الأرض

يعلن صفنيا أن يوم الرب قريب، ويصفه كيوم شامل للدينونة والخراب، لا يقتصر على شعب واحد، بل يمتد إلى الأرض وسكانها (صفنيا ١:٢–٣، ١٤–١٨).

٢. نبوءة القضاء على عبادة الأصنام في يهوذا

يتنبأ صفنيا بإزالة عبادة البعل والكهنة المرتبطين بها، والقضاء على من يعبدون الأجرام السماوية، وعلى من يخلطون بين عبادة الرب وعبادة الإله ملكوم، كما يدين الذين ابتعدوا عن الرب (صفنيا ١:٤–٦).

٣. نبوءة العقاب على أورشليم

يتنبأ صفنيا بأن الرب سيبحث أورشليم ويحاسب أهلها، وخصوصًا القادة والطبقات التي عاشت في الظلم والترف واللامبالاة، ويقول إن أموالهم وبيوتهم وكرومهم لن تنقذهم من يوم العقاب (صفنيا ١:٨–١٣).

٤. نبوءة خراب غزة ومدن الساحل

يعلن صفنيا أن غزة ستُترك مهجورة، وأشدود تُطرد، وعقرون تُقتلع، ثم يذكر الساحل الكريتي/الفلسطيني، ويتنبأ بأن بقية يهوذا ستستولي على أراضيهم وترعى فيها (صفنيا ٢:٤–٧).

٥. نبوءة عقاب موآب وعمون

يتنبأ صفنيا بخراب موآب وعمون بسبب تعاليهما على شعب الرب، ويشبه مصيرهما بمصير سدوم وعمورة، ويعلن أن أرضهما ستصبح موضعًا للخراب والملح (صفنيا ٢:٨–١١).

٦. نبوءة عقاب كوش

يتنبأ صفنيا بأن كوش ستنال العقاب أيضًا (صفنيا ٢:١٢). ويُقصد بها في النص الكتابي عادة منطقة جنوب مصر، ويربط بعض الباحثين الاسم بالنوبة/مناطق جنوب مصر.

٧. نبوءة سقوط آشور ونينوى

يعلن صفنيا أن الرب سيمد يده على الشمال، ويجعل آشور خرابًا، ونينوى قفرًا، حتى تصبح موضعًا للوحوش ومثار دهشة للمارة (صفنيا ٢:١٣–١٥).

٨. نبوءة فساد أورشليم ثم تطهيرها

بعد الحديث عن الأمم، يعود صفنيا إلى أورشليم، ويتهمها بالتمرد والظلم وفساد قادتها وكهنتها وأنبيائها، ثم يتنبأ بأن الرب سيجمع الشعوب ويطهرها، بحيث يخدمونه معًا (صفنيا ٣:١–٩).

٩. نبوءة بقية متواضعة من الشعب

يتنبأ صفنيا ببقاء بقية من إسرائيل تكون متواضعة ولا تعتمد على الظلم والكذب، وتعيش بأمان دون خوف (صفنيا ٣:١١–١٣).

١٠. نبوءة استعادة أورشليم وفرح الشعب

في خاتمة السفر يتحول المشهد تمامًا يُطلب من ابنة صهيون (سكان القدس) أن تفرح، لأن الرب يرفع عنها الحكم ويكون في وسطها، ويجمع المشتتين، ويعيد المنفيين، ويجعل شعبه موضع مدح بين الأمم (صفنيا ٣:١٤–٢٠).

نبوءات حَجّي

١. نبوءة استئناف بناء الهيكل

يحث حجي زربابل بن شألتيئيل، والي يهوذا، ويشوع بن يوصاداق، رئيس الكهنة، والشعب على العودة إلى بناء الهيكل بعد توقف العمل فيه. وفي سنة ٥٢٠ ق.م. يبدأ زربابل ويشوع والشعب العمل من جديد، ويشجعهم حجي على إكمال البناء (حجي ١:١–١٥).

٢. نبوءة مجد الهيكل الثاني

عندما حزن بعض كبار السن لأن الهيكل الجديد بدا أقل مجدًا من هيكل سليمان، يعلن حجي أن مجد البيت الأخير سيكون أعظم من مجد الأول، وأن الله سيمنح المكان السلام (حجي ٢:١–٩).

٣. نبوءة زلزلة الأمم

يتنبأ حجي بأن الله سيُزلزل السماوات والأرض والبحر واليابسة، وأنه سيُزلزل الأمم، فتأتي «ذخائر/مشهيات الأمم» بحسب اختلاف الترجمات، ويملأ الله هذا البيت مجدًا (حجي ٢:٦–٩). وهذه العبارة أصبحت لاحقًا موضع تفسيرات مختلفة في اليهودية والمسيحية.

٤. نبوءة انقلاب الأوضاع السياسية

يعلن حجي أن عروش الممالك ستُقلب، وأن قوة الممالك والأمم ستتحطم، في سياق الحديث عن تدخل الله في تاريخ الأمم (حجي ٢:٢٠–٢٢).

٥. نبوءة زربابل وخاتم الرب

يخاطب حجي زربابل تحديدًا، ويقول إن الله سيأخذه «كخاتم» لأنه اختاره، في صورة رمزية تدل على مكانته الخاصة وموقعه في المشروع المستقبلي (حجي ٢:٢٣).

نبوءات زكريا

١. عودة الرب إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل

في رؤياه الأولى يرى زكريا فرسانًا يتجولون في الأرض، ثم تأتي رسالة بأن الرب سيعود برحمته إلى أورشليم، وأن الهيكل سيُبنى فيها من جديد، وستعود مدن يهوذا إلى الازدهار زكريا ١: ٧–١٧.

٢. سقوط القوى التي بددت يهوذا وإسرائيل وأورشليم

يرى زكريا أربعة قرون ترمز إلى القوى التي بددت يهوذا وإسرائيل وأورشليم، ثم يرى أربعة حدادين جاؤوا للقضاء على تلك القوى زكريا ١: ١٨–٢١.

٣. اتساع أورشليم وازدياد سكانها

في رؤيا أخرى يرى رجلًا يحمل حبل قياس لقياس أورشليم، لكن الرسالة تقول إن المدينة ستصبح مأهولة بكثرة بحيث لا تكفيها الأسوار، وأن حماية الرب ستكون حولها. زكريا ٢: ١–٥.

٤. عودة المنفيين من بابل

يدعو زكريا أبناء صهيون إلى الخروج من «أرض الشمال» ومن بابل، ويربط ذلك بعودة حماية الرب لأورشليم، ثم يعلن أن أممًا كثيرة ستنضم إلى الرب وتصبح من شعبه. زكريا ٢: ٦–١٣.

٥. تطهير الكاهن يهوشع ورفع إثم الأرض

يرى زكريا يهوشع رئيس الكهنة واقفًا أمام ملاك الرب، بينما يقف المشتكي ضده. ثم تُنزع عنه ثيابه القذرة وتُستبدل بثياب نظيفة، في إشارة إلى رفع

الإثم والتطهير. وبعدها تأتي عبارة مهمة عن ظهور الغصن، مع وعد بإزالة إثم الأرض في يوم واحد. زكريا ٣: ١ــ١٠.

٦. زربابل وإتمام بناء الهيكل

في رؤيا المنارة الذهبية وشجرتي الزيتون، يظهر زربابل في سياق إتمام العمل، وتأتي العبارة الشهيرة بأن إتمام المهمة لن يكون بالقوة العسكرية وحدها بل بروح الرب. ثم يُعلن أن يدَي زربابل بدأتا بناء البيت وستُكملانه. زكريا ٤: ١ــ١٤.

٧. إزالة الشر من الأرض

يرى زكريا درجًا طائرًا، ثم يرى امرأة جالسة داخل الإيفة، ويُقال له إنها تمثل الشر، وأنها ستُنقل بعيدًا إلى أرض شنعار. زكريا ٥: ١ــ١١.

٨. مركبات تخرج بين جبلين من النحاس

في الرؤيا الأخيرة من سلسلة الرؤى الأولى يرى زكريا أربع مركبات تخرج من بين جبلين من النحاس، ويُفسَّر خروجها بأنها أرواح/قوى سماوية مرسلة للتجول في الأرض وتنفيذ أمر الرب. زكريا ٦: ١ــ٨.

٩. تتويج «الغصن» وارتباطه ببناء الهيكل

يأمر الرب زكريا أن يصنع تاجًا ويضعه على رأس يهوشع رئيس الكهنة، ثم تأتي نبوءة عن رجل يسمى «الغصن»، الذي سيبني هيكل الرب ويجمع بين وظيفة الحكم ووظيفة مرتبطة بالقداسة في الصورة النبوية زكريا ٦: ٩ــ١٥.

١٠. رفض الصوم الشكلي والدعوة إلى العدل

عندما يسأل بعض الناس عن الصوم، يرد زكريا بأن المشكلة ليست في الصوم بحد ذاته، بل في غياب العدل والرحمة؛ فالرسالة تطالب بالعدل، والرحمة، وعدم ظلم الأرملة واليتيم والغريب والفقير. زكريا ٧: ١–١٤.

١١. تحويل صوم أورشليم إلى أفراح

يتنبأ زكريا بأن أصوام يهوذا ستتحول إلى أعياد وفرح، وأن أورشليم ستصبح مدينة الحق والقداسة، وسيعود إليها الشيوخ والأطفال، وتزدحم شوارعها بالحياة. زكريا ٨: ١–٨، ١٨–٢٣.

١٢. أمم كثيرة تأتي إلى أورشليم

يصور زكريا مستقبلًا تصبح فيه أورشليم مركزًا دينيًا تجذب إليه أمم وشعوب كثيرة، حتى إن سكان مدينة ما يدعون الآخرين للذهاب معهم إلى أورشليم لطلب الرب. زكريا ٨: ٢٠–٢٣.

١٣. القضاء على مدن الساحل وأعداء إسرائيل

في الإصحاح التاسع تنتقل النبوءة إلى مناطق ومدن مختلفة، فتذكر حَدَرَاخ ودمشق وحماة وصور وصيدون وأشدود وعقرون وعسقلان وغزة، وتصور سقوط قوى ومدن ساحلية وامتداد الحكم على المنطقة. زكريا ٩: ١–٨.

١٤. ملك يأتي إلى صهيون

من أشهر نبوءات زكريا ظهور ملك على أورشليم، عادل ومنتصر، لكنه يأتي راكبًا على حمار، وتصف النبوءة سلطانه بأنه يمتد إلى الأمم، مع إعلان السلام ونزع أدوات الحرب. زكريا ٩: ٩–١٠.

وهذه النبوءة أصبحت لاحقًا من النصوص المهمة جدًا في التفسير المسيحي للمسيح، بينما لها قراءات مختلفة في التفسير اليهودي.

١٥. تحرير الأسرى وإعادة شعب إسرائيل

بعد الحديث عن الملك، تتحدث النبوءة عن خلاص أبناء صهيون وإعادتهم، وتصورهم كجيش قوي في مواجهة أعدائهم. زكريا ٩: ١١–١٧.

١٦. جمع يهوذا وإسرائيل وإعادتهم من الشتات

ينتقد زكريا الرعاة الذين أضلوا الشعب، ثم يتنبأ بأن الرب سيجمع بيت يهوذا وبيت يوسف، أي جنوب إسرائيل وشمالها في الصورة النبوية، ويعيدهم إلى أرضهم. زكريا ١٠: ١–١٢.

١٧. سقوط الرعاة والقادة الفاسدين

في الإصحاح الحادي عشر تظهر صورة رمزية للرعاة، ثم يتحدث النص عن رفض الراعي، وعن ثلاثين من الفضة، وعن كسر عصا النعمة وعصا الاتحاد. زكريا ١١: ٤–١٧.

وهذا المقطع تحديدًا له أهمية كبيرة في التفسير المسيحي اللاحق بسبب ارتباطه بعبارة الثلاثين قطعة من الفضة.

١٨. حصار أورشليم وانتصارها

يتنبأ زكريا بأن أورشليم ستصبح موضع تجمع الأمم للحرب، وأن الرب سيجعل المدينة صعبة المنال على من يحاصرها، ثم تنتصر يهوذا وأورشليم على القوى المحيطة بها. زكريا ١٢: ١–٩.

١٩. «ينظرون إلى الذي طعنوه» وحدوث حداد عظيم

يتنبأ النص بانسكاب «روح النعمة والتضرعات» على بيت داود وسكان أورشليم، ثم يتحدث عن نظرهم إلى شخص «طعنوه» وحدوث حداد شديد عليه. زكريا ١٢: ١٠ــ١٤.

وهذه أيضًا من أبرز النبوءات التي استخدمها المسيحيون لاحقًا في تفسير أحداث مرتبطة بالمسيح، بينما يختلف تفسيرها في اليهودية.

٢٠. ينبوع لتطهير أورشليم من الخطيئة والنجاسة

بعد مشهد الحداد يأتي وعد بفتح ينبوع لبيت داود وسكان أورشليم للتطهير من الخطيئة والنجاسة. زكريا ١٣: ١.

٢١. إزالة الأنبياء الكذبة والوثنية

يتنبأ النص بأنه في ذلك اليوم ستُزال أسماء الأصنام من الأرض، ولن يعود الأنبياء الكذبة (الذين يدّعون النبوة ويتحدثون باسم الله زوراً) وروح النجاسة (ما يرتبط بالنجاسة الدينية والعبادات الوثنية) مقبولين كما كانوا. زكريا ١٣: ٢ــ٦.

٢٢. ضرب الراعي وتشتت القطيع

تأتي نبوءة رمزية أخرى «اضرب الراعي فتتشتت الغنم»، مع حديث عن تنقية الثلث الباقي بالنار واختباره(سيمرون بمحنة و اختبار حتى يثبت إخلاصهم لله) زكريا ١٣: ٧ــ٩.

وهي من النصوص التي اكتسبت لاحقًا أهمية خاصة في القراءة المسيحية.

٢٣. تجمع الأمم للحرب على أورشليم

يصل الكتاب في الإصحاح الرابع عشر إلى واحدة من أكثر نبوءاته شهرة تجتمع الأمم للحرب على أورشليم، وتسقط المدينة جزئيًا، ثم يتدخل الرب للحرب ضد تلك الأمم. زكريا ١٤: ١–٥.

٢٤. انشقاق جبل الزيتون

يقول النص إن قدمي الرب تقفان على جبل الزيتون شرق أورشليم، وينشق الجبل من الشرق إلى الغرب، ويتشكل وادٍ يستخدمه الهاربون طريقًا للنجاة. زكريا ١٤: ٤–٥.

٢٥. يوم بلا ليل ومياه تخرج من أورشليم

في ذلك اليوم تتغير صورة العالم لا يعود هناك ليل بالشكل المعتاد، وتخرج مياه حية من أورشليم، نصفها نحو البحر الشرقي ونصفها نحو البحر الغربي، وتستمر في الصيف والشتاء. زكريا ١٤: ٦–٨.

٢٦. ملك واحد على الأرض كلها

تصل النبوءة إلى إعلان أن الرب يكون ملكًا على الأرض كلها، ويُذكر أن اسمه سيكون واحدًا. زكريا ١٤: ٩.

٢٧. أورشليم تصبح آمنة ومأهولة

يصور النص تغيرًا في جغرافية المنطقة حول أورشليم، ثم يعلن أن المدينة ستبقى مأهولة وآمنة، ولن يكون عليها الهلاك الذي عانت منه سابقًا. زكريا ١٤: ١٠–١١.

٢٨. الأمم الناجية تصعد إلى أورشليم كل سنة

بعد انتصار الرب، تتنبأ خاتمة الكتاب بأن الناجين من الأمم سيصعدون عامًا بعد عام إلى أورشليم لعبادة الملك والاحتفال بعيد المظال، وأن الأمم التي ترفض ذلك تتعرض للعقاب. زكريا ١٤: ١٦–١٩.

٢٩. قداسة أورشليم وكل ما فيها

تنتهي النبوءة بصورة شديدة الأهمية حتى الأجراس والأواني تصبح مكرسة للرب، ويصبح المقدس والعادي أقل انفصالًا، وكأن القداسة تمتد إلى الحياة كلها. زكريا ١٤: ٢٠–٢١.

نبوءات ملاخي

١. مجيء الرسول الذي يهيئ الطريق

يعلن ملاخي أن الرب سيرسل رسولًا يهيئ الطريق أمامه، ثم يأتي الرب إلى هيكله بصورة مفاجئة. وترتبط هذه النبوءة بفكرة مجيء «رسول العهد» الذي سيظهر في الهيكل. ملاخي ٣: ١.

٢. تنقية الكهنة والعبادة

يصور مجيء الرب باعتباره عملية تطهير شديدة، تشبه نار صائغ الفضة أو مادة الغسل القوية؛ فيُنقّى بنو لاوي، أي الكهنة، حتى تصبح القرابين المقدمة في يهوذا وأورشليم مقبولة كما كانت في الأزمنة السابقة. ملاخي ٣: ٢–٤.

٣. يوم يأتي فيه الرب للدينونة

يعلن ملاخي أن الرب سيأتي للحكم على ممارسات مثل السحر/العرافة، والزنا، وشهادة الزور، واستغلال العمال، وظلم الأرامل والأيتام والمقيمين الغرباء. ملاخي ٣: ٥.

٤. التمييز بين الصالح والشرير

يتحدث عن يوم يُظهر فيه الله الفرق بوضوح بين من يخدمه ومن لا يخدمه، وبين الأبرار والأشرار، مع حفظ الذين يخافون الرب. ملاخي ٣: ١٦ــ١٨.

٥. يوم الرب كنار تحرق الأشرار

من أقوى صور ملاخي: يأتي يوم الرب كفرن مشتعل، فيصبح المتكبرون وفاعلو الشر كالقش، ولا يبقى لهم أصل ولا فرع. ملاخي ٤: ١، بحسب ترقيم بعض الترجمات؛ وهو ملاخي ٣: ١٩ في النص العبري.

٦. شمس البر والشفاء للأتقياء

في المقابل، بالنسبة إلى الذين يخافون اسم الرب، تشرق شمس البر بالشفاء، ويخرجون من حالة الخوف والهزيمة إلى الفرح والانتصار. ملاخي ٤: ٢.

٧. انتصار الأبرار على الأشرار

يتابع النص بأن الأشرار سيكونون كالرماد تحت أقدام الأبرار في اليوم الذي يتدخل فيه الرب لإجراء الحكم. ملاخي ٤: ٣.

٨. عودة إيليا قبل يوم الرب

قبل مجيء «اليوم العظيم والمخوف للرب» سيرسل الله إيليا النبي.

ملاخي ٤: ٥، أو ٣: ٢٣ في النص العبري.

٩. إيليا يعيد المصالحة بين الآباء والأبناء

مهمة إيليا في هذه النبوءة ليست مجرد الظهور؛ بل ردّ قلوب الآباء إلى أبنائهم وقلوب الأبناء إلى آبائهم، بحيث لا ينتهي الأمر بضرب الأرض بالهلاك. ملاخي ٤: ٦.

ملاحظة عن تطور النبوءة في التقاليد اللاحقة

في التقليد اليهودي، أصبحت فكرة عودة إيليا قبل مجيء العصر الموعود ذات أهمية كبيرة.

في التفسير المسيحي، ربطت الأناجيل هذه النبوءة بـ يوحنا المعمدان، وفُهم أنه جاء بالدور المرتبط بإيليا، لا باعتباره إيليا نفسه حرفيًا في بعض الصياغات المسيحية.

نبوءات دانيال

١. حلم التمثال والممالك الأربع

يرى نبوخذنصر في حلم تمثالًا رأسه من ذهب، وصدره وذراعاه من فضة، وبطنه وفخذاه من نحاس، وساقاه من حديد، وقدماه من حديد وخزف. ثم يتحطم التمثال بحجر لم تقطعه يد بشرية، ويصبح الحجر جبلًا يملأ الأرض.

يفسر دانيال المعادن بأنها ممالك متعاقبة، بينما يمثل الحجر مملكة يقيمها إله السماء ولا تزول. دانيال ٢: ٣١–٤٥.

٢. الممالك الأربع والوحوش الأربعة

في رؤيا دانيال يرى أربعة وحوش تخرج من البحر أسد له أجنحة – دب - نمر له أربعة أجنحة وأربعة رؤوس - وحش رابع شديد القوة بأسنان من حديد وله عشرة قرون. ثم يظهر «قديم الأيام» ويجري القضاء، ويُعطى «مثل ابن إنسان» سلطانًا ومجدًا وملكوتًا لا يزول. دانيال ٧: ١–١٤.

وهذه من أشهر صور دانيال النبوية، وأصبح تعبير «مثل ابن إنسان» مهمًا جدًا لاحقًا في التفسير المسيحي.

٣. تفسير الوحوش والممالك

يشرح النص أن الوحوش الأربعة تمثل أربعة ملوك/ممالك تقوم على الأرض، ثم تأتي مملكة «قديسي العلي» التي تدوم. دانيال ٧: ١٥–٢٧.

٤. القرنان والحرب بين مملكتين

يرى دانيال في رؤيا أخرى كبشًا بقرنين يواجهه تيس من الغرب له قرن عظيم. ويندفع التيس بقوة، ثم ينكسر قرنه ويظهر بدلًا منه أربعة قرون.

دانيال ٨: ١–٨. ويفسر السفر نفسه الكبش بأنه مملكة مادي (ميديون) وفارس، والتيس بأنه مملكة اليونان، والقرن العظيم بأنه ملك عظيم، ثم تظهر أربعة ممالك بعده. دانيال ٨: ٢٠–٢٢.

٥. ملك متكبر يضطهد الشعب ويهاجم المقدسات

من أحد القرون يخرج ملك متكبر يتعاظم ويهاجم رئيس الجند، ويزيل الذبيحة اليومية ويدنس المقدس، ثم يأتي الحكم عليه. دانيال ٨: ٩–١٤، ٢٣–٢٥.

وهذه النبوءة ترتبط تاريخيًا في القراءة الأكاديمية بشكل واضح باضطهاد أنطيوخوس الرابع أبيفانيس في القرن الثاني قبل الميلاد، وبأحداث تدنيس الهيكل في القدس.

٦. نبوءة السبعين أسبوعًا

يُعلن للنبي أن سبعين أسبوعًا قد قُضيَت على شعبه ومدينة القدس، وترتبط المدة بأحداث تشمل إنهاء المعصية - التكفير عن الخطيئة - إتمام رؤى ونبوءات - مسح «قدوس القدوسين» - إعادة بناء أورشليم - ظهور مسيح /ممسوح - ثم خراب المدينة والمقدس. دانيال ٩: ٢٤ــ٢٧.

وهذه النبوءة تحديدًا لها تفسيرات يهودية ومسيحية متعددة جدًا، فلا ينبغي تقديم تفسير واحد باعتباره المعنى التاريخي المتفق عليه.

٧. خراب أورشليم والمقدس

يتحدث دانيال عن مدينة ومقدس يتعرضان للخراب، وعن توقف الذبيحة والتقدمة، وعن رجس الخراب. دانيال ٩: ٢٦ــ٢٧؛ ١١: ٣١؛ ١٢: ١١.

وهذه الصور أصبحت لاحقًا مرتبطة بتفسيرات متعددة، خصوصًا في المسيحية عند الحديث عن خراب الهيكل وأحداث نهاية الأزمنة.

٨. ملوك الجنوب وملوك الشمال

الإصحاح الحادي عشر من أغنى أجزاء دانيال بالأحداث السياسية والعسكرية. يبدأ بسلسلة من الملوك والصراعات، ثم يصف بالتفصيل صراع ملك الجنوب وملك الشمال، والتحالفات والزواج السياسي والحروب والغزوات والخيانة.

دانيال ١١: ٢ــ٢٠.

واللافت أن كثيرًا من التفاصيل تتوافق بصورة وثيقة مع الصراعات بين البطالمة في مصر والسلوقيين في بلاد الشام خلال العصر الهلنستي.

٩. الملك الذي يحتقر العهد ويدنس المقدس

يصف النص ملكًا يقتحم المملكة، ويزيل الذبيحة اليومية، ويقيم رجس الخراب، ويغري بعض الناس بالانحراف عن العهد، بينما يتمسك آخرون بدينهم. دانيال ١١: ٢١–٣٥ وهذا يرتبط تاريخيًا بصورة قوية بـ أنطيوخوس الرابع أبيفانيس واضطهاده لليهود.

١٠. زمن الضيق واضطهاد المؤمنين

يتنبأ دانيال بأن فترة الاضطهاد ستكون زمنًا شديدًا، وأن الذين يعرفون إلههم يتمسكون به، بينما يسقط بعضهم تحت الضغط. دانيال ١١: ٣٢–٣٥.

١١. قيام ميخائيل والدفاع عن الشعب

في بداية الإصحاح الأخير يظهر ميخائيل، الرئيس العظيم، واقفًا من أجل شعب دانيال، ويأتي زمن ضيق لم يحدث مثله، ثم ينجو الشعب المكتوب في السفر.

دانيال ١٢: ١.

١٢. قيامة الأموات

من أهم النصوص في الكتاب العبري حول القيامة

«وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون»

ثم يميز النص بين الذين يقومون إلى الحياة الأبدية والذين يقومون إلى العار والازدراء الأبدي. دانيال ١٢: ٢. وهذه نقطة شديدة الأهمية في تاريخ تطور فكرة القيامة والحياة بعد الموت في الفكر اليهودي.

١٣. الأبرار يضيئون كالكواكب

يتنبأ النص بأن الحكماء الذين أرشدوا كثيرين إلى البر يضيئون كضياء الجلد، وكالكواكب إلى أبد الدهور. دانيال ١٢: ٣.

١٤. إخفاء النبوءة حتى «وقت النهاية»

يُطلب من دانيال أن يختم السفر حتى يأتي «وقت النهاية»، مع حديث عن ازدياد المعرفة وكثرة التنقل. دانيال ١٢: ٤.

١٥. فترة محددة للاضطهاد ثم نهايته

تظهر أرقام رمزية/زمنية متعددة زمان وزمانان ونصف زمان، ثم ١٢٩٠ يومًا و١٣٣٥ يومًا، مرتبطة بانتهاء قوة الشعب وتوقف الرجس ثم بلوغ النهاية. دانيال ١٢: ٧، ١١–١٢.

وهذه الأرقام من أكثر أجزاء السفر إثارة للجدل في التفسير مع اختلاف تفسيرها، لا تحويلها إلى تاريخ محسوم.

ملاحظة تاريخية مهمة جدًا

دانيال حالة مختلفة عن إشعياء وإرميا مثلًا. فالدراسة الأكاديمية الحديثة ترى أن الصيغة النهائية للسفر تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، في سياق أزمة أنطيوخوس الرابع واضطهاده لليهود، رغم أن السفر يقدم شخصيته وأحداثه في زمن السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد. وهذا الفرق بين الإطار القصصي للنص وتاريخ تدوينه/صياغته مهم جدًا عند كتابة كتاب تاريخي عن النبوءات.

النبوءات والقراءات النبوية في المزامير

١. الملك الممسوح وحكمه على الأمم

يصور مزمور ٢ ملوك الأمم مجتمعين ضد الرب وضد ممسحه، ثم يعلن الرب تنصيب ملكه على صهيون، ويمنحه سلطانًا على الأمم. مزمور ٢: ١–١٢.

هذا المزمور ملكي في سياقه الأصلي على الأرجح، لكنه أصبح من أهم النصوص التي قُرئت لاحقًا بوصفها نبوءة عن الملك الموعود أو المسيح.

٢. الملك الذي يأتي بالنصر والعدل

مزمور ١٨ يصور ملكًا ينقذه الرب من أعدائه ويمنحه النصر، ويصف اتساع سلطانه وانتصاره على الأمم. مزمور ١٨: ٤٣–٥٠. لكن هذا أيضًا مزمور ملكي، وليس من الدقة تقديمه كنبوءة مستقبلية صريحة.

٣. الملك العادل الذي يعم حكمه الأرض

في مزمور ٧٢ تظهر صورة ملك مثالي يحكم بالعدل، ينصف الفقير والمسكين، وتخضع له ملوك وأمم، ويصبح السلام والازدهار في عهده واسعًا، حتى تمتد صورته إلى أقصى الأرض. مزمور ٧٢: ١–١٧.

وهذا من النصوص المهمة جدًا لفكرة الملك المثالي في التقليد اليهودي، ثم في القراءات المسيانية اللاحقة.

٤. عهد داود واستمرار سلالته

مزمور ٨٩ يتحدث عن عهد الرب مع داود، وعن بقاء نسله وملكه، لكنه في الوقت نفسه يطرح مشكلة مهمة كيف يمكن فهم الوعد الأبدي إذا تعرض الملك للسقوط والتأديب؟ مزمور ٨٩: ٣–٤، ١٩–٣٧.

وهذا جعله نصًا مهمًا في تطور فكرة العهد الداودي والملك المستقبلي.

٥. الملك الجالس عن يمين الرب

مزمور ١١٠ من أكثر المزامير تأثيرًا في التفسير المسياني. يصور ملكًا يجلس عن يمين الرب حتى يجعل أعداءه موطئًا لقدميه، ويخرج سلطانه من صهيون، ثم تأتي عبارة شديدة الأهمية عن كونه كاهنًا إلى الأبد على رتبة ملكيصادق. مزمور ١١٠: ١–٧.

وفي المسيحية أصبح هذا النص من أبرز النصوص المستخدمة في الحديث عن المسيح وملكه ومكانته.

٦. ابن داود والعرش الدائم

مزمور ١٣٢ يعيد التأكيد على اختيار داود وصهيون، وعلى وعد يتعلق باستمرار سلالة داود ووجود الملك في أورشليم. مزمور ١٣٢: ١١–١٨.

والأهمية هنا أنه يربط الملك وداود وصهيون والهيكل في صورة واحدة.

٧. الملك العروس ومجد العرش

مزمور ٤٥ هو نشيد ملكي يصور ملكًا وعروسه، ويتحدث عن جمال الملك وعدله وعرشه، ولذلك دخل لاحقًا في القراءات المسيانية، خصوصًا بسبب اللغة التي تتحدث عن عرش الملك ومملكته. مزمور ٤٥: ١–١٧.

لكن من المهم جدًا ألا نقول إن المزمور في سياقه الأصلي نبوءة صريحة عن المسيح؛ فهو في الأساس نشيد زفاف ملكي.

٨. المزمور ٢٢ ومعاناة البار

يبدأ المزمور بصيحة شخص يعاني ويشعر بأن الله تركه، ثم يصف الإهانة والخوف والألم، لكنه ينتقل في نهايته إلى النجاة والتسبيح، ثم إلى إعلان معرفة الأمم بالرب. مزمور ٢٢: ١–٣١.

أهميته كبيرة لأن المسيحية قرأت أجزاء منه بوصفها نبوءة عن آلام المسيح وصلبه، بينما السياق الأصلي للمزمور هو صلاة شخص متألم، ولذلك يجب التفريق بين النص الأصلي والتفسير المسيحي اللاحق.

٩. المزمور ١٦ والنجاة من الموت

يتحدث المزمور عن الثقة بالرب وعدم التخلي عن صاحبه في عالم الموت، وعن الرجاء في البقاء في حضرة الله. مزمور ١٦: ٨–١١.

وفي المسيحية فُهمت هذه الكلمات لاحقًا على أنها تشير إلى قيامة المسيح وعدم بقائه في القبر، بينما توجد قراءات يهودية مختلفة للنص.

١٠. حجر رفضه البناؤون ثم صار حجر الزاوية

مزمور ١١٨ يتحدث عن شخص أو جماعة مرفوضة ثم تصبح ذات مكانة عظيمة، وينتهي المزمور بالانتصار والخلاص. مزمور ١١٨: ٢٢–٢٦.

عبارة «حجر الزاوية» أصبحت لاحقًا من النصوص التي استخدمها المسيحيون في تفسير شخصية المسيح.

١١. الملك المنتصر على أعدائه

مزمور ١٠١ يصور ملكًا يحكم بالاستقامة ويبعد الشر عن مملكته، بينما مزمور ١٤٤ يصف انتصار الملك على أعدائه وازدهار الشعب في عهده.

مزمور ١٠١؛ مزمور ١٤٤: ١ــ١٥. وهما مهمان لفهم المثال الملكي المثالي أكثر من كونهما نبوءتين محددتين عن حدث مستقبلي.

نبوءات إرميا

١. خراب أورشليم والهيكل بسبب فساد الشعب

منذ بداية رسالته يحذر إرميا من أن استمرار عبادة الأصنام والظلم والفساد سيؤدي إلى خراب يهوذا وأورشليم. ويؤكد أن وجود الهيكل لا يعني أن المدينة محصنة من العقاب. إرميا ٧: ١ــ١٥؛ ٢٦: ١ــ٦.

٢. مجيء عدو من الشمال

يتكرر في إرميا تصوير عدو قادم من الشمال ليجلب الحرب والخراب على يهوذا وأورشليم. إرميا ١: ١٣ــ١٥؛ ٤: ٥ــ٣١؛ ٦: ١ــ٢٦.

وهذا يرتبط بالسياق التاريخي لصعود القوة البابلية في المنطقة.

٣. خراب مدن يهوذا وأورشليم

يتنبأ إرميا بأن السيف والجوع والوباء ستصيب البلاد، وأن أورشليم ستُحاصر وتسقط، ويُهدم الهيكل وتصبح المدينة خرابًا.

إرميا ١٩: ١ــ١٥؛ ٢١: ٣ــ١٠؛ ٣٤: ١ــ٧.

والسفر بالفعل يدور حول المرحلة المضطربة التي سبقت سقوط أورشليم البابلي في القرن السادس قبل الميلاد.

٤. نبوءة السبعين سنة لبابل

يعلن إرميا أن يهوذا والأمم المحيطة ستخضع لملك بابل، وأن بابل ستظل صاحبة السيادة مدة سبعين سنة، ثم يأتي دور بابل نفسها للعقاب.

إرميا ٢٥: ٨ــ١٤. وهذه من أشهر النبوءات الزمنية في الكتاب العبري، وتعود فكرة السبعين سنة مرة أخرى في إرميا ٢٩: ١٠.

٥. الخضوع لبابل بدل المقاومة

من أكثر مواقف إرميا وضوحًا أنه لم يدعُ يهوذا إلى مواجهة بابل عسكريًا، بل أعلن أن الخضوع لنبوخذنصر هو الطريق الذي حدده الله في تلك المرحلة، وحذر من الأنبياء الذين وعدوا بانتهاء الحكم البابلي سريعًا.

إرميا ٢٧: ١ــ١٨؛ ٢٨: ١ــ١٧. وهذا يمثل تحولًا مهمًا جدًا عن الخطاب القومي الذي كان يتوقع الخلاص السريع؛ وقد وصفت الدراسات هذه الرسالة بأنها نقطة فاصلة في الخطاب السياسي والديني في يهوذا آنذاك.

٦. سقوط ملك يهوذا وخراب أورشليم

يتنبأ إرميا ضد الملوك الذين حكموا يهوذا، ويصور نهاية الأسرة الملكية في تلك المرحلة، مع سقوط المدينة وأخذ السكان إلى بابل.

إرميا ٢١ــ٢٣؛ ٣٤؛ ٣٧ــ٣٩.

٧. نبوءة عن الملك الصالح من نسل داود

بعد سلسلة من الانتقادات للملوك الفاسدين، تظهر نبوءة عن «غصن بار» من نسل داود، ملك يحكم بالعدل وينجح، ويُدعى الرب برنا. إرميا ٢٣: ١ــ٦.

وهذه من النصوص المهمة جدًا في تطور فكرة الملك الداودي المستقبلي، ثم أصبحت لاحقًا ذات أهمية كبيرة في التفسير المسياني.

٨. سبي يهوذا إلى بابل ثم عودتها

يعلن إرميا أن أهل يهوذا سيُسبون إلى بابل، لكن السبي ليس أبديًا؛ بل بعد انتهاء المدة سيعودون إلى أرضهم. إرميا ٢٩: ١–١٤.

والرسالة هنا مهمة جدًا لأنها موجهة أصلًا إلى جماعة المنفيين، وتربط مستقبلهم بالاستقرار المؤقت في بابل ثم العودة.

٩. سقوط عيلام

يتنبأ إرميا ضد عيلام، معلنًا كسر قوتها وتشتيت أهلها، ثم يتحدث لاحقًا عن عودتهم. إرميا ٤٩: ٣٤–٣٩.

١٠. نبوءة ضد مصر

يعلن سلسلة من النبوءات ضد مصر، بما فيها هزيمتها، يربط بعضها بأحداث سياسية وعسكرية معروفة من صراع مصر وبابل. إرميا ٤٦: ١–٢٦.

ومن اللافت أن إرميا ٤٦: ٢ يربط إحدى النبوءات صراحةً بمعركة كركميش، التي كانت نقطة حاسمة في الصراع المصري البابلي.

١١. نبوءة ضد الفلسطينيين

يتنبأ إرميا بقدوم السيف على أرض الفلسطينيين، ويذكر غزة وأشدود ضمن صورة الخراب القادم. إرميا ٤٧: ١–٧.

١٢. نبوءة ضد موآب

يخصص إرميا إصحاحًا طويلًا للحكم على موآب، فيذكر مدنًا ومواضع متعددة ويعلن سقوطها، ثم يختم بصورة عن عودة موآب في الأيام الأخيرة.

إرميا ٤٨: ١–٤٧.

١٣. نبوءة ضد عمون

يتنبأ بسقوط بني عمون، ويذكر ملقوم ومدنًا ومواضع مرتبطة بعمون، ثم يعلن في النهاية عودة الأسرى. إرميا ٤٩: ١–٦.

١٤. نبوءة ضد أدوم

يتنبأ إرميا بخراب أدوم، ويذكر تيمان وبصرة، ويربط سقوطها بتكبرها واعتمادها على موقعها وحصونها. إرميا ٤٩: ٧–٢٢.

١٥. نبوءة ضد دمشق

يعلن إرميا أن دمشق ستضعف وتضطرب، وأن شبابها سيسقطون وتصبح المدينة في حالة خوف واضطراب. إرميا ٤٩: ٢٣–٢٧.

١٦. نبوءة ضد قيدار وحاصور

يتنبأ إرميا ضد جماعات عربية في الشرق، ومنها قيدار وممالك حاصور، ويعلن تعرضها للغزو والنهب والتشتت. إرميا ٤٩: ٢٨–٣٣.

١٧. سقوط بابل نفسها

هذا من أهم أقسام إرميا. بعد أن كانت بابل أداة في العقاب على يهوذا، يتنبأ السفر بأن بابل نفسها ستسقط، وأن قوة المدينة ستتحطم، وأن الشعوب

ستهاجمها. إرميا ٥٠ــ٥١. وتشمل الصور النبوية صعود أمة من الشمال ضد بابل - سقوط أصنامها - هزيمة جيشها - خراب أرضها - هروب سكانها - عودة إسرائيل ويهوذا. وتشير الدراسات إلى أن إرميا ٥٠ــ٥١ يجمع بين دينونة بابل وأمل استعادة إسرائيل ويهوذا.

١٨. عودة إسرائيل ويهوذا معًا

في نبوءات الخلاص، لا يقتصر الوعد على يهوذا، بل يجري الحديث عن إسرائيل ويهوذا معًا، وأنهما يبحثان عن صهيون ويعودان إلى أرضهما.

إرميا ٥٠: ٤ــ٥. وهذا مهم جدًا لأنه يقدم صورة عن إعادة توحيد الجماعتين في المستقبل.

١٩. العهد الجديد

هذه من أهم نبوءات إرميا على الإطلاق يعلن أن أيامًا ستأتي يعقد فيها الرب عهدًا جديدًا مع بيت إسرائيل وبيت يهوذا، لا يكون مثل العهد السابق؛ إذ تُكتب الشريعة في داخل الإنسان، ويعرف الناس الرب، ويُغفر إثمهم.
إرميا ٣١: ٣١ــ٣٤. والتعبير عهد جديد يظهر بهذا اللفظ في الكتاب العبري في هذا الموضع، وأصبح لاحقًا من أكثر نصوص إرميا تأثيرًا في المسيحية، حيث استُشهد به في رسالة العبرانيين.

٢٠. عودة الفرح والحياة إلى أرض يهوذا

بعد الخراب والسبي، يتنبأ إرميا بعودة الفلاحين والرعاة إلى الأرض، وعودة الحياة إلى المدن، وامتلاء الأرض بالزراعة والسكان. إرميا ٣٠ــ٣١.

٢١. شفاء أورشليم وإعادة بنائها

يتنبأ إرميا بأن المدينة التي ستُهدم ستُعاد، وأن أورشليم ستصبح موضع فرح وتسبيح، وتعود إليها الحياة بعد الكارثة.

إرميا ٣٠: ١٨–٢٢؛ ٣١: ٣٨–٤٠؛ ٣٣: ١–١٣.

وهذا جزء من القسم الذي يسميه الباحثون عادةً «كتاب التعزية» في إرميا ٣٠–٣٣، حيث تنتقل النبرة من الدينونة إلى الأمل والترميم.

٢٢. استمرار نسل داود والكهنة

يأتي وعد باستمرار نسل داود ووظيفة الكهنة والعبادة، ضمن صورة العهد المستقبلي وإعادة بناء الجماعة. إرميا ٣٣: ١٤–٢٦.

٢٣. شراء حقل أثناء الحصار كعلامة على المستقبل

وهذه ليست نبوءة لفظية فقط، بل فعل رمزي نبوي شديد الأهمية بينما كانت أورشليم محاصرة والخراب وشيكًا، اشترى إرميا حقلًا في عناثوث، وأتم إجراءات الشراء، ثم أعلن أن البيوت والحقول والكروم ستُشترى مرة أخرى في أرض يهوذا. إرميا ٣٢: ٦–١٥، ٣٦–٤٤.

وهذه من أجمل الصور النبوية في السفر شراء الأرض وسط الخراب بوصفه إعلانًا أن الحياة ستعود.

٢٤. نهاية الحصار وعودة الناس إلى المدينة

يتنبأ إرميا بأن المدن التي أصبحت خربة ستعود إليها الحياة، وأن الناس سيشترون الحقول والكروم في أنحاء يهوذا. إرميا ٣٣: ١٠–١٣.

نبوءات حزقيال

١. سقوط أورشليم والهيكل

من بداية سفره، يعلن حزقيال أن أورشليم ستُدان بسبب عبادة الأصنام والفساد والعنف، وأن المدينة ستتعرض للحصار والسيف والجوع والوباء، وأن الهيكل نفسه لن يحميها من العقاب. حزقيال ٥–٧.

٢. مجد الرب يغادر الهيكل

في رؤيا عظيمة يرى حزقيال ممارسات وثنية داخل الهيكل، ثم يرى مجد الرب يغادر الهيكل ويتجه نحو الشرق. وتصبح هذه الصورة علامة على أن حماية الرب قد رُفعت عن المدينة قبل خرابها. حزقيال ٨–١١.

٣. سقوط أورشليم وسبي سكانها

يتنبأ حزقيال بأن المدينة ستُسلَّم إلى الأعداء، وأن سكانها سيُشتتون، وأن من يبقى منهم سيُؤخذ إلى السبي. حزقيال ١٢: ١–٢٠؛ ٢٤: ١–٢٧.

ومن اللافت أن السفر يربط إحدى العلامات النبوية بتاريخ محدد، إذ يبدأ تصوير الحصار في السنة التاسعة، الشهر العاشر، اليوم العاشر من حكم الملك، وهو اليوم الذي يُؤرخ به حصار أورشليم. حزقيال ٢٤: ١–٢.

٤. نبوءة ضد صُور

يعلن حزقيال الحكم على صور بسبب موقفها من سقوط أورشليم، ويصور جيوشًا تأتي عليها، ثم يتحدث عن انهيار أسوارها وأبراجها، وسقوط تجارتها، وتحولها إلى موضع لشباك الصيادين. حزقيال ٢٦: ١–١٤.

ثم يخصص الإصحاح ٢٧ مرثاة طويلة لصور، يصورها كسفينة تجارية عظيمة تحمل بضائع من مناطق كثيرة، ويذكر عددًا كبيرًا من المدن والشعوب التي ارتبطت بتجارتها. حزقيال ٢٧: ١–٣٦.

٥. ملك صور وكبرياؤه

ينتقل حزقيال إلى خطاب ضد رئيس صور، متهمًا إياه بالكبرياء واعتبار نفسه إلهًا بسبب ثروته وحكمته وتجاراته، ثم يعلن سقوطه. حزقيال ٢٨: ١–١٠.

ثم تأتي مرثاة أخرى لملك صور، مليئة بصور رمزية عن الجمال والذهب والقداسة ثم الفساد والطرد. حزقيال ٢٨: ١١–١٩.

وهنا يجب الحذر النص لا يقول صراحة إن الشخصية هي الشيطان؛ الربط بين ملك صور ولوسيفر/الشيطان جاء من تفسيرات مسيحية لاحقة.

٦. نبوءة ضد صيدون

بعد صور، يتنبأ حزقيال ضد صيدون، ويعلن عليها الوباء والسيف، ثم يتحدث عن معرفة الشعوب بأن الرب هو الإله. حزقيال ٢٨: ٢٠–٢٣.

٧. نبوءات ضد مصر وفرعون

يخصص حزقيال عدة إصحاحات لمصر وفرعون. ويصور فرعون في إحدى الصور النبوية كـ تمساح عظيم في أنهار مصر، ثم يعلن أن الله سيهزمه ويعطي أرض مصر للخراب. حزقيال ٢٩: ١–١٦.

٨. مصر تصبح خرابًا مدة طويلة

يتنبأ حزقيال بأن مصر ستُضرب، ويُشتت أهلها، وتصبح الأرض خربة، ثم يتحدث عن عودة جزء من سكانها لاحقًا، ولكن من دون أن تعود مصر إلى مكانتها السابقة. حزقيال ٢٩: ٨–١٦.

٩. بابل وأخذ غنائم مصر

في نبوءة أخرى يقول حزقيال إن نبوخذنصر ملك بابل سيأتي على مصر، ويأخذ ثرواتها وغنائمها، ويكون ذلك جزاءً على العمل الذي قام به جيشه. حزقيال ٢٩: ١٧–٢١. وهذه النبوءة مهمة جدًا تاريخيًا لأنها تضع بابل في قلب الصراع مع مصر.

١٠. سقوط قوة مصر وتحطم حلفائها

تتكرر صورة سقوط مصر وحلفائها، وتذكر النبوءة أسماء مناطق وقوى ستتأثر بسقوطها، منها كوش وفوط ولود والعرب وليبيا بحسب بعض الترجمات. حزقيال ٣٠: ١–٢٦.

١١. سقوط آشور بوصفه عبرة لمصر

يقارن حزقيال مصر بشجرة أرز عظيمة تمثل آشور، ثم يصف سقوطها بعدما ارتفعت وتكبرت، لتصبح عبرة لفرعون. حزقيال ٣١: ١–١٨.

١٢. فرعون كوحش يُطرح في العالم السفلي

يعود حزقيال إلى صورة فرعون كتمساح، ثم يتحدث عن سقوطه وموته وانضمامه إلى ملوك وأمم سبق أن سقطوا. حزقيال ٣٢: ١–٣٢.

١٣. عودة إسرائيل من الشتات

بعد سلسلة طويلة من نبوءات الدينونة، ينقلب خطاب حزقيال إلى الخلاص. يتنبأ بأن الرب سيجمع بني إسرائيل من بين الأمم ويعيدهم إلى أرضهم. حزقيال ٣٦: ١٦ــ٢٤.

١٤. تطهير إسرائيل من النجاسة

لا يقتصر الوعد على العودة الجغرافية؛ بل يتحدث عن تطهير الشعب من الأصنام والنجاسة. حزقيال ٣٦: ٢٥.

١٥. القلب الجديد والروح الجديدة

من أشهر نبوءات حزقيال يقول إن الرب سيعطي شعبه قلبًا جديدًا، ويضع في داخله روحًا جديدة، وينزع قلب الحجر ويعطي قلبًا من لحم، حتى يسلك الشعب في شرائعه. حزقيال ٣٦: ٢٦ــ٢٨. وهذا النص أصبح لاحقًا مهمًا جدًا في التفسير اليهودي والمسيحي لفكرة التجديد الروحي.

١٦. وادي العظام اليابسة

في واحدة من أشهر رؤى الكتاب العبري، يرى حزقيال واديًا مليئًا بالعظام اليابسة. يأمره الرب أن يتنبأ عليها، فتتجمع العظام ويظهر عليها العصب واللحم والجلد، ثم تأتي الروح إليها فتحيا. حزقيال ٣٧: ١ــ١٠.

والنص نفسه يفسر الرؤية العظام تمثل بيت إسرائيل الذي يرى نفسه قد انتهى وانقطع رجاؤه. والوعد هو فتح القبور وإخراج الشعب منها وإعادته إلى أرض إسرائيل. حزقيال ٣٧: ١١ــ١٤. وهذا مهم جدًا في السياق المباشر للرؤيا، الحديث عن استعادة إسرائيل بعد الكارثة والسبي، وليس مجرد وصف

عام للقيامة الفردية، مع أن الرؤية أصبحت لاحقًا مرتبطة أيضًا بتصورات القيامة.

١٧. اتحاد يهوذا وإسرائيل في شعب واحد

يأمر حزقيال أن يأخذ عصوين، واحدة ليهوذا والأخرى ليوسف/إسرائيل، ثم يجمعهما في يده كأنهما عصا واحدة.

ويأتي الوعد بأن بني إسرائيل سيصبحون أمة واحدة تحت ملك واحد، ولن يعودوا منقسمين إلى مملكتين. حزقيال ٣٧: ١٥–٢٢.

١٨. ملك واحد من نسل داود

يتابع النص بوعد بأن يكون عليهم راعٍ واحد، وأن داود عبده يكون رئيسًا/ملكًا عليهم، ويقيمون في أرضهم، ويكون لهم عهد سلام.

حزقيال ٣٧: ٢٣–٢٨. وهذه من النصوص المهمة جدًا في تطور فكرة الملك الداودي المستقبلي.

١٩. جوج من أرض ماجوج

بعد استعادة إسرائيل تأتي نبوءة مختلفة تمامًا يظهر عدو اسمه جوج، من أرض ماجوج، ومعه شعوب وقوى متعددة، ويهاجم إسرائيل في الأيام الأخيرة. حزقيال ٣٨: ١–٩. ويذكر النص إلى جانب جوج عددًا من الشعوب، منها فارس وكوش وفوط وجومر وبيت تُجرمة. حزقيال ٣٨: ٢–٦.

٢٠. هجوم جوج على أرض إسرائيل

يصف جيشًا ضخمًا يتحرك ضد أرض إسرائيل، ويصور إسرائيل وقد عادت من الشتات واستقرت بأمان، ثم يأتي الهجوم عليها. حزقيال ٣٨: ٨–١٦.

٢١. الرب يدمر جوج وجيشه

لكن الهجوم ينتهي بتدخل إلهي مباشر زلزال عظيم، واضطراب، وسيف، ووباء، ومطر غزير وبَرَد ونار وكبريت. حزقيال ٣٨: ١٨–٢٣.

٢٢. دفن جيش جوج وتنظيف الأرض

بعد هزيمته، يصف السفر عملية ضخمة لدفن قتلى الجيش وتنظيف الأرض منهم، وتستمر عملية الدفن مدة طويلة. حزقيال ٣٩: ١١–١٦.

٢٣. عودة المجد إلى إسرائيل

يعلن الرب أن شعبه سيعرفه من جديد، وأنه لن يخفي وجهه عنهم بعد أن سكب روحه عليهم. حزقيال ٣٩: ٢١–٢٩.

٢٤. الهيكل المستقبلي وأورشليم الجديدة

من الإصحاح ٤٠ حتى ٤٨ يدخل حزقيال في رؤيا ضخمة عن هيكل مستقبلي. يظهر رجل يقيس البناء بدقة، ويصف الأبواب والأروقة والحجرات والمذبح والمناطق المحيطة. حزقيال ٤٠–٤٣.

٢٥. عودة مجد الرب إلى الهيكل

بعد أن رأى حزقيال سابقًا مجد الرب يغادر الهيكل، يرى الآن مجد الرب يعود من الطريق الشرقي ويدخل الهيكل، ويُعلن أن المكان سيكون موضع عرشه. حزقيال ٤٣: ١–٧. وهذه مقابلة أدبية مهمة جدًا بين خروج المجد من الهيكل في الإصحاحات ٨–١١ وعودته في الإصحاح ٤٣.

٢٦. نهر يخرج من الهيكل

في واحدة من أجمل رؤى حزقيال، تخرج مياه من تحت عتبة الهيكل وتتزايد تدريجيًا حتى تصبح نهرًا كبيرًا، وتتحول المياه المالحة إلى مياه عذبة، وتكثر فيها الأسماك والحياة. حزقيال ٤٧: ١–١٢. وهنا تظهر صورة قريبة جدًا من النبوءة الموجودة لاحقًا في زكريا ١٤ عن المياه الخارجة من أورشليم.

٢٧. ازدهار الأرض بسبب مياه الهيكل

على ضفتي النهر تنمو الأشجار التي لا تذبل، وتنتج ثمرًا باستمرار، وتصبح أوراقها للشفاء. حزقيال ٤٧: ٧–١٢.

٢٨. تقسيم الأرض بين أسباط إسرائيل

يختتم السفر بتقسيم الأرض بين أسباط إسرائيل، مع تحديد مناطق ومواضع مختلفة، ثم تُرسم حدود المدينة الجديدة. حزقيال ٤٧: ١٣–٢٣؛ ٤٨.

٢٩. أورشليم المستقبلية واسمها الجديد

في نهاية السفر يُعلن اسم المدينة «الرب هناك» حزقيال ٤٨: ٣٥.

وهذه خاتمة رمزية قوية جدًا السفر بدأ بمجد الرب وهو يغادر أورشليم، وينتهي بمدينة استعاد فيها الحضور الإلهي مكانه.

نبوءات إشعياء

١. خراب بابل وسقوطها

إشعياء يتنبأ بسقوط بابل، ويصور مجيء جيش من جهة بعيدة لتنفيذ الحكم عليها، ثم يصف المدينة كموضع للخراب وعدم السكن. إشعياء ١٣: ١–٢٢.

٢. نهاية سلطة ملك بابل

يأتي بعد ذلك نشيد ساخر على ملك بابل، يصور سقوطه من موقع العظمة إلى عالم الموت، بعد أن قال في كبريائه إنه يصعد إلى السماء ويرفع عرشه فوق النجوم. إشعياء ١٤: ٣–٢٣.

٣. سقوط آشور

بعد أن استخدمت آشور كأداة للعقاب، يعلن إشعياء أن كبرياءها سيُكسر وأن قوتها ستنتهي. إشعياء ١٠: ١٢–١٩، ٢٤–٢٧.

٤. القضاء على فلسطيين

يتنبأ إشعياء ضد الفلسطينيين، ويذكر أن العصا التي ضربتهم ستنكسر، ثم يتحدث عن خراب مدنهم. إشعياء ١٤: ٢٨–٣٢.

٥. خراب موآب

يخصص إشعياء الإصحاحين ١٥ و١٦ لنبوءة طويلة عن موآب، ويذكر عددًا من مدنها ومواضعها، ويصور بكاء أهلها وفرارهم وخراب أرضهم.
إشعياء ١٥–١٦.

٦. نبوءة ضد دمشق وإسرائيل

يتنبأ إشعياء بأن دمشق تزول من كونها مدينة، وأن مجد إسرائيل يتضاءل، ثم يصف ضعف المدن والحصون. إشعياء ١٧: ١–٦.

٧. بقايا إسرائيل تعود إلى خالقها

بعد صورة الخراب، تظهر نبوءة عن بقايا بني إسرائيل التي تتخلى عن الأصنام وتلتفت إلى الرب. إشعياء ١٧: ٧–٨.

٨. مصر وآشور وإسرائيل في مشهد مستقبلي واحد

من أغرب نبوءات إشعياء أنه لا ينتهي بإدانة مصر، بل يرسم مستقبلًا تصبح فيه مصر وآشور وإسرائيل معًا موضع بركة، ويقال إن الرب يبارك مصر وآشور وشعبه إسرائيل. إشعياء ١٩: ١٩ــ٢٥.

وهذه من النصوص المهمة جدًا لأن الصورة هنا تتجاوز فكرة انتصار شعب على آخر إلى مصالحة دينية بين قوى كانت متنافسة.

٩. سقوط صور ثم عودة تجارتها

يتنبأ إشعياء بخراب صور، ثم يقول إن تجارتها ستعود بعد مدة، وإن أرباحها ستصبح مكرسة للرب. إشعياء ٢٣: ١ــ١٨.

١٠. نبوءة عن موكب آشوري باتجاه أورشليم

يصف إشعياء تقدم الجيش الآشوري من الشمال باتجاه القدس، مع ذكر مواضع ومحطات على الطريق، ثم يتوقف الجيش أمام أورشليم.
إشعياء ١٠: ٢٨ــ٣٢.

١١. نجاة أورشليم من سنحاريب

ثم تأتي قصة سنحاريب، ملك آشور، الذي يحاصر مدن يهوذا ويهدد أورشليم. ويعلن إشعياء أن المدينة لن تسقط بيده. إشعياء ٣٦ــ٣٧. ثم يأتي النص عن ضرب الجيش الآشوري وانسحاب سنحاريب. إشعياء ٣٧: ٣٣ــ٣٧.

١٢. مرض حزقيا وإطالة حياته

يتنبأ إشعياء لحزقيا بموته، ثم بعد صلاة الملك يعلن له أن حياته ستُمدد خمس عشرة سنة، ويعطيه علامة مرتبطة بعودة الظل. إشعياء ٣٨: ١ــ٨.

١٣. السبي البابلي

بعد زيارة رسل بابل لحزقيا وإطلاعهم على كنوزه، يتنبأ بأن كل ما في القصر سيُنقل إلى بابل، وأن بعض نسل الملك سيؤخذون إليها. إشعياء ٣٩: ٥ــ٧. هذه من أهم النبوءات التاريخية في السفر تربط مستقبل يهوذا مباشرة ببابل.

١٤. عودة المنفيين وتعزية أورشليم

ابتداءً من الإصحاح ٤٠ تتغير النبرة بقوة بعد الخراب يأتي وعد بتعزية أورشليم، وعودة المنفيين، وتهيئة طريق في البرية. إشعياء ٤٠: ١ــ١١.

١٥. كورش يُذكر بالاسم

من أشهر نصوص إشعياء أن كورش يُذكر باسمه باعتباره الشخص الذي سيستخدمه الرب لتحقيق مشروعه، ويُقال عنه إنه سيعيد بناء أورشليم ويأذن بإعادة تأسيس الهيكل. إشعياء ٤٤: ٢٨؛ ٤٥: ١ــ٧.

ملاحظة تاريخية التفسير الأكاديمي السائد يميز بين إشعياء ١ــ٣٩ وإشعياء ٤٠ــ٥٥، يربط القسم الثاني بمرحلة السبي البابلي وما بعدها، ولذلك فذكر كورش لا يُعامل في الدراسات الحديثة ببساطة على أنه تنبؤ كتبه إشعياء في القرن الثامن قبل الميلاد ثم تحقق بعد قرنين.

١٦. خروج إسرائيل من بابل

يتنبأ بأن شعب إسرائيل سيخرج من بابل، ويعود إلى أرضه، ويُصوَّر الطريق أمامه باعتباره طريقًا مهيأً في البرية. إشعياء ٤٨: ٢٠ــ٢١؛ ٥٢: ٧ــ١٢.

١٧. عبد الرب المتألم

تظهر شخصية عبد الرب الذي يُحتقر ويتألم ويحمل آلام الآخرين، ثم يُرفع ويُعطى مكانة عظيمة. إشعياء ٥٢: ١٣–٥٣: ١٢.

وهذا من أهم النصوص في تاريخ التفسير المسياني، لأن المسيحية ربطته بالمسيح وآلامه وصلبه. أما في التفسير اليهودي والدراسات الحديثة، فهناك قراءات متعددة له، منها تفسيره كشخصية أو جماعة تمثل إسرائيل أو شخصية مختارة.

١٨. عهد سلام أورشليم

يتحدث إشعياء عن أورشليم بصورة امرأة مهجورة ثم مستعادة، وعن اتساعها وازدياد أبنائها وامتداد مجدها. إشعياء ٥٤: ١–١٧.

١٩. دعوة جميع العطاش إلى الماء

تأتي صورة خلاصية واسعة دعوة الجائعين والعطاش إلى الماء والطعام دون ثمن، وربط ذلك بالعهد الأبدي. إشعياء ٥٥: ١–٥.

٢٠. جمع الأمم إلى الرب

يتوسع الأفق ليشمل الأمم، ويصبح بيت الرب مرتبطًا بالصلاة لجميع الشعوب. إشعياء ٥٦: ٦–٨.

٢١. مجد أورشليم ونور الأمم

إشعياء ٦٠ تظهر أورشليم في صورة مدينة يشرق عليها نور الرب، وتأتي إليها الأمم وملوكها، وتحمل إليها ثروات الشعوب. إشعياء ٦٠: ١–١٦. من أهم النصوص التي تطورت منها صورة أورشليم المستقبلية ومجد صهيون.

٢٢. إعلان سنة مقبولة للرب

يتحدث النص عن شخصية ممسوحة بالروح، مهمتها البشارة للفقراء، وشفاء المنكسري القلوب، وإطلاق الأسرى، وإعلان سنة رضا الرب.

إشعياء ٦١: ١–٣. وهذا النص أصبح لاحقًا شديد الأهمية في المسيحية بسبب استخدامه في إنجيل لوقا وتطبيقه على رسالة يسوع.

٢٣. أورشليم لا تُدعى بعد مهجورة

يتنبأ إشعياء بأن أورشليم ستُستعاد مكانتها، وأنها ستصبح موضع فرح، ويُصوَّر الرب كحارس دائم لها. إشعياء ٦٢: ١–١٢.

٢٤. الدينونة على الأمم والإنقاذ لإسرائيل

في ختام السفر تظهر صور عن مجيء الرب للدينونة، وعن جمع الأمم، ثم وعد بإقامة وضع جديد للشعب. إشعياء ٦٣–٦٦.

٢٥. السماوات الجديدة والأرض الجديدة

يختم إشعياء بنبوءة ضخمة عن «سماوات جديدة وأرض جديدة»، حيث لا يعود الماضي يُذكر، وتصبح أورشليم موضع فرح، وتظهر صورة لحياة طويلة وسلام وازدهار. إشعياء ٦٥: ١٧–٢٥؛ ٦٦: ٢٢–٢٣.

نبوءات وتنبؤات أسفار التوراة والتاريخ

١. نبوءة نسل المرأة سفر التكوين ٣:١٥

بعد قصة السقوط، يرد قول موجّه إلى الحية عن عداوة بين الحية والمرأة وبين نسلهما، وأن نسل المرأة يسحق رأس الحية.

هذه العبارة قصيرة ومفتوحة على أكثر من تفسير. في سياقها الأصلي ترتبط بقصة السقوط والعداوة بين الإنسان والحية، بينما أخذها التقليد المسيحي لاحقًا بوصفها إشارة إلى المسيح وانتصاره على الشر.

٢. وعد إبراهيم بأن تتبارك الأمم بنسله التكوين ١٢:١–٣

يُطلب من إبراهيم أن يخرج من أرضه، ويُوعَد بأن يصبح أمة عظيمة، وأن تتبارك به جميع قبائل الأرض. ويتكرر المعنى بصورة أوضح في التكوين ١٨:١٨ والتكوين ٢٢:١٨ والتكوين ٢٦:٤ والتكوين ٢٨:١٤

وهذه من أهم النصوص المؤسسة لفكرة أن نسل إبراهيم ستكون له علاقة بمصير أمم أخرى، وقد أصبحت لاحقًا جزءًا مهمًا من التفسيرات اليهودية والمسيحية لفكرة الخلاص والبركة للأمم.

٣. نبوءة يعقوب عن يهوذا التكوين ٤٩:٨–١٢

في بركات يعقوب لأبنائه قبل موته، يخص يهوذا بكلام ذي طابع ملكي

يهوذا يُشبَّه بالأسد يكون له السلطان يرد ذكر الصولجان والعصا الملكية يرتبط النص بانتظار خضوع الشعوب. والعبارة الأكثر إثارة للجدل هي حتى يأتي شيلوه في بعض الترجمات، وهي من النصوص التي اختلف تفسيرها بشدة.

في سياقها المباشر ترتبط بمكانة سبط يهوذا والملكية، بينما أصبحت لاحقًا من النصوص التي استُخدمت في التفسير المسياني اليهودي والمسيحي.

٤. نبوءات بلعام سفر العدد ٢٣ــ٢٤

بلعام، الذي استدعاه بالاق ملك موآب ليلعن إسرائيل، انتهى إلى إعلان البركة بدل اللعنة.

أ. إسرائيل سيكون شعبًا متميزًا

يصف بلعام إسرائيل بأنه شعب منفصل عن الأمم، ويعلن له مستقبلًا مختلفًا عن الشعوب المحيطة به. العدد ٢٣:٩ــ١٠

ب. انتصار إسرائيل على أعدائه

يعلن بلعام أن إسرائيل سيقوم كلبوة وأسد، في صورة ترمز إلى القوة والانتصار. العدد ٢٣:١٨ــ٢٤

ج. ازدهار إسرائيل وقوته

في النبوءة الثالثة، يصف بلعام أرض إسرائيل ومخيماتها بصورة مرتبطة بالخصب والمياه والازدهار، ويقول إن ملكًا سيخرج من يعقوب.
العدد ٢٤:٣ــ٩

د. «نجم يخرج من يعقوب» وهذه من أشهر نبوءات بلعام

«يَخْرُجُ كَوْكَبٌ مِنْ يَعْقُوبَ، وَيَقُومُ قَضِيبٌ مِنْ إِسْرَائِيلَ» العدد ٢٤:١٧

ثم يتحدث النص عن إخضاع أعداء إسرائيل، ويذكر خصوصًا موآب وأدوم.

هذه العبارة أصبحت لاحقًا ذات أهمية كبيرة في التفسيرات المسيانية اليهودية والمسيحية، بينما يرى كثير من الباحثين أن سياقها الأصلي يرتبط بظهور حاكم إسرائيلي وانتصار إسرائيل على خصومها.

هـ. موآب وأدوم

يذكر بلعام صراحةً أن إسرائيل سيخضع موآب، وأن أدوم سيصبح ملكًا لإسرائيل. العدد ٢٤:١٧ــ١٩

و. مصير العماليق

يقول بلعام «وعماليق أول الأمم، وآخره إلى الهلاك» العدد ٢٤:٢٠

ز. القينيون وآشور وكِتّيم

ثم ينتقل إلى القينيين، ويشير إلى مجيء قوة مرتبطة بـآشور، ثم سفن تأتي من ساحل كِتّيم، وما ينتج عنها من اضطرابات وضيق. العدد ٢٤:٢١ــ٢٤

وهذا المقطع مهم جدًا لأن تفسيره التاريخي معقد، خصوصًا تحديد المقصود الدقيق بـ«كِتّيم» والقوى المشار إليها.

٥. نبوءة موسى عن «نبي مثل موسى» التثنية ١٨:١٥ــ١٨

يقول موسى إن الله سيقيم لبني إسرائيل نبيًا من وسطهم مثل موسى، وأن عليهم أن يسمعوا له.

هذا النص أصبح واحدًا من أشهر النصوص المتعلقة بفكرة النبي المنتظر.

في السياق الأصلي يمكن فهمه باعتباره وعدًا باستمرار وظيفة النبوة في إسرائيل، وليس بالضرورة الحديث عن شخص واحد فقط.

لكن في التفسير المسيحي أصبح النص مرتبطًا بيسوع، بينما ظهرت في التقاليد اليهودية تفسيرات مختلفة لطبيعة «النبي مثل موسى».

٦. العودة بعد الشتات التثنية ١:٣٠ــ١٠

من أهم النصوص التنبؤية في التوراة. يتحدث موسى عن مرحلة مستقبلية يعود فيها الإسرائيليون إلى الله بعد أن يكونوا قد تشتتوا بين الأمم.

ويذكر النص العودة إلى الله - جمع الشعب من جميع الأماكن التي تشتت إليها - العودة إلى الأرض - ازدهار الشعب - تغيير القلب بحيث يصبح أكثر التزامًا بالله. التثنية ١:٣٠ــ١٠

٧. نشيد موسى ونبوءات المستقبل التثنية ٣٢

في نهاية حياة موسى، يأتي نشيد موسى الذي يعرض تاريخ إسرائيل ومستقبله بصورة تحذيرية.

يتنبأ النص بأن إسرائيل سيبتعد عن الله، ثم تأتي عليه العواقب غضب إلهي – هزائم - جوع ودمار - تعرض الشعب للأعداء. ثم ينتقل النص إلى وعد بالانتقام من أعداء إسرائيل والدفاع عن شعبه. التثنية ١٥:٣٢ــ٤٣

٨. وعد داود بالعرش الأبدي صموئيل الثاني ١٢:٧ــ١٦

بعد أن أصبح داود ملكًا، يُعطى وعد بأن نسله سيستمر في الملك، وأن مملكته وعرشه سيكونان ثابتين ويقول النص إن الله سيقيم من نسل داود بعده، وإن كرسي مملكته سيكون ثابتًا. هذا النص أصبح أساسًا مهمًا جدًا لفكرة الملك الداودي المنتظر. في السياق التاريخي يرتبط بالسلالة الملكية التي أسسها داود، لكن لاحقًا أصبح أساسًا رئيسيًا للتوقعات المسيانية، خصوصًا انتظار ملك من نسل داود.

٩. نبوءة أخيّا عن انقسام المملكة الملوك الأول ١١:٢٩ــ٣٩

النبي أخيّا الشيلوني يلتقي يربعام، ويمزق ثوبه إلى اثنتي عشرة قطعة، ثم يعطيه عشر قطع.

الرمز واضح مملكة إسرائيل ستنقسم، وستُعطى عشرة أسباط ليربعام، بينما يبقى لبيت داود سبط مرتبط بجنوب المملكة.

هذه النبوءة مرتبطة مباشرة بالأحداث التي أدت إلى قيام مملكة إسرائيل الشمالية بعد وفاة سليمان.

١٠. نبوءة أخيّا بشأن بيت يربعام الملوك الأول ١٤:١ــ١٦

عندما مرض ابن يربعام، أرسل يربعام زوجته إلى أخيّا.

النبي يعلن أن بيت يربعام سيواجه عقابًا شديدًا بسبب عبادة الأوثان، وأن نسل يربعام سيزول. ويعلن تحديدًا أن الطفل المريض سيموت، وأنه سيكون الوحيد من بيت يربعام الذي ينال دفنًا. ١ ملوك ١٤:١ــ١٦

وهذه نبوءة سياسية مباشرة مرتبطة بمصير سلالة حاكمة.

١١. نبوءة الرجل الإله ضد مذبح بيت إيل الملوك الأول ١٣:١ــ٣

يظهر رجل من يهوذا أمام مذبح بيت إيل، ويعلن «يا مذبح، يا مذبح هوذا يولد لبيت داود ابن اسمه يوشيا» ثم يتنبأ بأن يوشيا سيحرق على هذا المذبح عظام الكهنة. ١ ملوك ١٣:٢

وبحسب الرواية نفسها، يتحقق ذلك لاحقًا في عهد الملك يوشيا، عندما قام بإصلاح ديني واسع. ٢ ملوك ٢٣:١٥ــ٢٠ وهذا من أكثر الأمثلة تحديدًا في النصوص الكتابية، لأنه يذكر اسم شخص بعينه ويربطه بحدث ديني محدد.

١٢. نبوءة إيليا ضد أخآب الملوك الأول ١٧: ٢١ــ٢٤

بعد قتل نابوت والاستيلاء على كرمه، يعلن إيليا حكمًا على بيت أخآب.

ومن أبرز ما يتنبأ به موت أخآب - مصير بيته - زوال سلالته - أكل الكلاب لدم أخآب في المكان الذي أُريق فيه دم نابوت. ١ ملوك ١٧: ٢١ــ٢٤

ثم تظهر لاحقًا قصة موت أخآب في المعركة.

١٣. نبوءة إيليا عن أخزيا الملوك الثاني ١

بعد سقوط أخزيا من نافذة قصره، يسأل عن مصيره، ويرسل إلى بعل زبوب إله عقرون. فيعلن إيليا أن الملك لن يقوم من سريره، بل سيموت بسبب لجوئه إلى إله أجنبي بدل سؤال إله إسرائيل. ٢ ملوك ٢: ١ــ١٧

١٤. نبوءة أليشع عن نهاية المجاعة في السامرة

٢ ملوك ٢٤: ٦ــ٢٠: ٧ كانت السامرة تحت حصار شديد حتى أصبحت المجاعة قاسية جدًا. يعلن أليشع «غدًا في مثل هذا الوقت تكون السكة من السميد بشاقل، والسكتان من الشعير بشاقل عند باب السامرة.»

أي أن الأسعار ستنهار بصورة هائلة بسبب وصول كميات كبيرة من الطعام. ويتحقق ذلك عندما يهرب جيش آرام، ويجد الإسرائيليون المعسكر خاليًا.

هذه من أجمل النبوءات القصيرة والمحددة زمنيًا في أسفار الملوك.

١٥. نبوءة أليشع عن هروب جيش آرام

٢ ملوك ٦: ٧ــ٧ يروي النص أن الرب جعل جيش آرام يسمع صوت مركبات وخيل وجيش عظيم، فظنوا أن ملوكًا آخرين قد استأجروا جيوشًا ضدهم، فهربوا وتركوا المعسكر.

هذه ليست نبوءة منفصلة بالمعنى الصارم، بل هي تحقق مباشر لوعد أليشع بالخلاص من الحصار.

١٦. نبوءة أليشع عن حزائيل ملك آرام

٢ ملوك ٨:٧ــ١٥ يذهب حزائيل إلى أليشع ليسأله عن مرض بن هدد ملك آرام. يبكي أليشع ويعلن له أن بن هدد سيموت - حزائيل سيصبح ملك آرام - حزائيل سيفعل شرورًا عظيمة بإسرائيل - سيحرق مدنهم ويقتل رجالهم ونساءهم وأطفالهم.

ثم يصبح حزائيل فعلًا ملكًا لآرام ويشن حروبًا على إسرائيل.

١٧. نبوءة أليشع عن انتصارات إسرائيل على آرام

٢ ملوك ١٤:١٣ــ١٩ عندما مرض أليشع، جاء إليه يوآش ملك إسرائيل.

يأمره أليشع بضرب الأرض بالسهام، ثم يعلن أن إسرائيل ستضرب آرام ثلاث مرات.

لكن يوآش لم يضرب الأرض إلا ثلاث مرات، فيغضب أليشع لأن النصر كان يمكن أن يكون أكبر.

النص يربط عدد الضربات الرمزية بعدد الانتصارات التي سيحققها الملك على آرام.

١٨. نبوءة أليشع بعد موته

٢ ملوك ٢٠:١٣ــ٢١ يموت أليشع، ثم تحدث حادثة غريبة يُلقى رجل ميت في قبر أليشع، وعندما يلمس عظام النبي يقوم الرجل.

أخبار الأيام

١. نبوءة جاد الرائي

١ أخبار الأيام ٢١:٩–١٢ بعد إحصاء داود للشعب، يأتي جاد إلى داود ويعرض عليه ثلاثة خيارات للعقوبة: ثلاث سنوات مجاعة - ثلاثة أشهر من الهزيمة أمام الأعداء - ثلاثة أيام من الوباء.

هذه نبوءة/إعلان نبوي مرتبط مباشرة بالعقوبة التي ستقع على المملكة.

٢. نبوءة جاد بشأن مذبح داود

١ أخبار الأيام ٢١:١٨ يأمر جاد داود ببناء مذبح للرب في بيدرونة أرونة اليبوسي. وهذا يقود إلى المكان الذي سيصبح مرتبطًا لاحقًا بموقع الهيكل.

النص نفسه ليس نبوءة مستقبلية صريحة، لذلك الأفضل وضعه تحت التوجيهات النبوية المرتبطة بتاريخ الهيكل وليس كنبوءة مستقلة.

٣. نبوءة أخزيا/عزريا بن عوديد

٢ أخبار الأيام ١٥:١–٧ يأتي روح الله على عزريا بن عوديد، ويعلن لآسا ملك يهوذا أن الرب سيكون مع الشعب إذا طلبوه إذا تركوه فسوف يتركهم.

كانت فترات سابقة بلا إله حقيقي أو تعليم لكن العودة إلى الرب ستجلب الاستجابة.

٤. نبوءة حنانِي الرائي

٢ أخبار الأيام ١٦:٧–٩ ينتقد حناني آسا لأنه اعتمد على ملك آرام بدل الاعتماد على الرب ثم يعلن أن

«عيون الرب تجول في كل الأرض ليرى من هو مخلص له.» ويتنبأ بأن آسا سيخوض حروبًا بسبب ذلك.

٥. نبوءة ياهو بن حناني ضد يهوشافاط

٢ أخبار الأيام ١٩:١–٣ بعد تحالف يهوشافاط مع أخآب، يأتيه ياهو ويوبخه. يذكر أن هناك أمورًا جيدة فيه، لكن التحالف مع الشر جلب عليه غضب الرب.

٦. نبوءة يَحْزِيئيل قبل الحرب

٢ أخبار الأيام ١٤:٢٠–١٧ عندما تجمعت جيوش موآب وعمون وغيرهما ضد يهوذا، جاء روح الرب على يحزيئيل بن زكريا وأعلن

لا تخافوا - الحرب ليست حربكم - الرب سيهزم الأعداء - لا يحتاج يهوذا إلى القتال بالطريقة المعتادة - سيقف الشعب ويرى الخلاص.

ثم يخرج يهوذا، ويجد أن الأعداء قد أهلك بعضهم بعضًا.

٧. نبوءة أليعزر بن دوداواهو

٢ أخبار الأيام ٣٥:٢٠–٣٧ بعد ذلك تحالف يهوشافاط مع أخزيا ملك إسرائيل لبناء سفن تجارية. فيعلن أليعزر بن دوداواهو أن الرب سيحطم هذا التحالف لأن يهوشافاط تحالف مع أخزيا. ثم تتحطم السفن ولا تصل إلى ترشيش.

٨. رسالة إيليا إلى يهورام

٢ أخبار الأيام ١٢:٢١–١٥ يصل إلى يهورام ملك يهوذا كتاب من إيليا، يوبخه فيه بسبب سيره في طريق ملوك إسرائيل وعبادته للأوثان ثم يتنبأ بأن ضربة عظيمة ستصيب الشعب - أعداء سيهاجمون المملكة - أبناء الملك وزوجاته وأمواله ستُؤخذ - سيصاب الملك بمرض شديد في أمعائه.

ثم يروي النص تحقق المرض وموت الملك.

٩. نبوءة زكريا بن يهوياداع

٢ أخبار الأيام ٢٠:٢٤–٢٢ يعلن زكريا للشعب «لأنكم تركتم الرب، فقد تركككم.» ثم يُقتل زكريا بأمر الملك وبعد ذلك يشن الآراميون هجومًا على يهوذا، ويهزمونها.

النص يربط الكارثة العسكرية بالعقوبة التي أعلنها النبي.

١٠. نبوءة أمصيا ضد ملك إسرائيل

٢ أخبار الأيام ١٥:٢٥–١٦ بعد أن عاد أمصيا إلى عبادة آلهة أدوم، يأتيه نبي ويوبخه ويعلن له أن الله قرر هلاكه بسبب إصراره على ذلك ثم يرفض أمصيا الاستماع.

١١. نبوءة ميخا بن يِمْلا

٢ أخبار الأيام ٥:١٨–٢٧ عندما يستشير أخآب ويهوشافاط الأنبياء قبل الحرب، يتنبأ ميخا بن يِمْلا بأن إسرائيل سيُهزم وأن أخآب لن يعود حيًا. يقول إنه رأى إسرائيل مشتتين على الجبال كغنم لا راعي لها ويأمر الملك بأن يعود إلى بيته لكن أخآب يرفض كلامه ويذهب إلى الحرب، ويُقتل هناك.

١٢. نبوءة عوديد

٢ أخبار الأيام ٩:٢٨–١١ بعد انتصار إسرائيل على يهوذا وأسر أعداد كبيرة من الأسرى، يظهر نبي من الرب اسمه عوديد ويحذر جيش إسرائيل من الاحتفاظ بالأسرى وبيعهم ويطالبهم بإطلاقهم، محذرًا من غضب الرب.

يوسف والأحلام التنبؤية

يظهر يوسف بن يعقوب في الرواية التوراتية بوصفه صاحب رؤى وأحلام ذات دلالات مستقبلية، كما اشتهر بتفسير أحلام الآخرين. ففي شبابه رأى حلمًا رأى فيه حزم إخوته تسجد لحزمته، ثم رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا تسجد له، وهي رؤى فُهمت على أنها إشارة إلى المكانة التي سيصل إليها بين أهله (التكوين ٥:٣٧–١١). وبعد وصوله إلى مصر، فسّر أحلام ساقي فرعون وخبازه، فتحقق ما أخبرهما به (التكوين ٥:٤٠–٢٢). ثم فسّر لفرعون حلم البقرات السبع والسنابل السبع، مبينًا أن مصر ستشهد سبع سنوات من الوفرة يعقبها سبع سنوات من المجاعة، واقترح الاستعداد لها بتخزين الغلال (التكوين ١٤:٤١–٣٦). وقد تحققت الرؤيا بالفعل، وجاءت سنوات الوفرة ثم المجاعة، وانتهى الأمر بوصول إخوة يوسف إلى مصر ولقائهم به، في تحقق للمعنى العام الذي ظهر في أحلامه الأولى (التكوين ٤١–٤٢).

نَتانئيل بن الفيومي والنبي محمد ﷺ

ومن المواقف اللافتة في التراث اليهودي موقف العالم اليمني نَتانئيل بن الفيومي، أحد أبرز علماء يهود اليمن في القرن الثاني عشر، وصاحب كتاب «بستان العقول». يرى ابن الفيومي أن الله يبعث هداة وأنبياء إلى الأمم المختلفة، وأن لكل أمة رسالة تناسبها، وفي هذا السياق اعترف بالنبي محمد ﷺ نبيًا أرسله الله إلى العرب، مع تأكيده أن شريعته لم تكن ملزمة لليهود، لأنهم يتبعون شريعتهم الخاصة. ويُعد هذا الموقف استثنائيًا في الفكر اليهودي

الوسيط، إذ إن قبول ابن الفيومي بنبوة محمد ﷺ لا يمثل الموقف اليهودي العام، وإنما يمثل رأيًا خاصًا لعالم يهودي من يهود اليمن.

السحر والتمائم في اليهودية

لم تكن الممارسات السحرية غائبة عن المجتمعات اليهودية، رغم أن النصوص الدينية والحاخامية ناقشت السحر والعرافة وحرّمت بعض أشكالهما. وتكشف الآثار والنصوص عن تقليد سحري يهودي امتد عبر قرون، وخصوصًا منذ أواخر العصور القديمة؛ فقد عُرفت التمائم المكتوبة بالعبرية والآرامية، واستُخدمت للحماية من المرض والأذى والأرواح الشريرة والعين، ولطلب الشفاء والحماية أثناء الحمل والولادة، بل وللتخلص من تأثير السحر نفسه. وتُعد التمائم والأوعية السحرية من أهم الشواهد الباقية على هذه الممارسات، حتى إن الباحثين يرون أن دراسة السحر اليهودي لا يمكن فصلها عن الحياة اليومية لليهود في تلك الفترات.

تميمة حقيقية من فلسطين

ومن أقدم الأدلة الملموسة على ذلك مجموعة من التمائم المكتشفة في فلسطين الرومانية والمتأخرة. ومن بينها رقائق معدنية ملفوفة كانت تحمل نصوصًا سحرية، وبعضها كُتب بالآرامية الفلسطينية اليهودية. ومن اللافت تميمة فضية عُثر عليها في طبريا، حملت نصًا آراميًا واقتباسًا من الكتاب المقدس، ويُرجح أنها كانت تخص امرأة يهودية تدعى «إينا». أما في موقع نيريم قرب غزة، فقد عُثر سنة ١٩٥٧ على تسع عشرة تميمة معدنية ملفوفة داخل حنية كنيس (تجويف في جدار الكنيس) من العصر المتأخر؛ وهذه حالة نادرة لأن العثور عليها داخل كنيس يمنحنا سياقًا أثريًا واضحًا، ويجعل من

الممكن الربط بثقة أكبر بين القطع وبين مستخدمين يهود. كانت هذه التمائم تهدف إلى الحماية، ومن بينها ما يرتبط بالحمل وصحة المرأة والطفل والحماية من الأخطار الطبيعية والمخاطر المنسوبة إلى قوى غيبية.

آيات الكتاب المقدس تتحول إلى تعويذة

ولم تكن التميمة اليهودية تعتمد دائمًا على كلمات غامضة أو أسماء سحرية؛ فقد استُخدمت آيات من الكتاب المقدس نفسها بوصفها قوة واقية. وتكشف التمائم الفلسطينية أن نصوصًا توراتية كانت تُكتب على رقائق معدنية أو أحجار وأشياء أخرى ثم تُحمل بوصفها وسائل للحماية والشفاء. ومن الأمثلة اللافتة استخدام آيات تتحدث عن قدرة الله على رد الشر أو شفاء الإنسان، بحيث لم يعد النص الديني مجرد نص للقراءة أو الصلاة، بل أصبح جزءًا من أداة يُعتقد أنها تحمي صاحبها بمجرد حملها. وهذا يوضح كيف امتزج الدين بالممارسة السحرية في الحياة اليومية، حتى عندما كانت النخبة الدينية تنظر إلى بعض هذه الممارسات بريبة أو رفض.

الأوعية السحرية التعويذة داخل إناء

ومن أكثر الأدلة إثارة الأوعية السحرية التي انتشرت بين القرنين السادس والثامن الميلاديين، ولا سيما في بلاد الرافدين ضمن المجتمعات اليهودية والآرامية. كان النص يُكتب داخل الوعاء بحبر، غالبًا على شكل حلزوني يبدأ من مركزه ويمتد نحو الخارج، ثم يُستخدم الوعاء بوصفه أداة للحماية أو لإبطال الأذى. بعض النصوص كانت تستدعي أسماء الله والملائكة وتقتبس آيات من الكتاب المقدس، بينما تتعامل نصوص أخرى مباشرة مع الشياطين والأرواح المؤذية، فتأمرها بالخروج أو الابتعاد عن الشخص المستهدف.

وفي أحد الأوعية المحفوظة في المتحف البريطاني تظهر أسماء ميخائيل وجبرائيل إلى جانب أسماء وأماكن توراتية مثل إسرائيل وسدوم وعمورة وشِئول، في صياغة تجمع بين النص المقدس واللغة السحرية.

طرد الشيطان بالطلاق

ومن أغرب الأساليب التي تظهر في هذه الأوعية استخدام لغة الزواج والطلاق لمواجهة الشياطين. ففي أحد الأوعية الآرامية المؤرخة بين القرنين السادس والثامن الميلاديين، تظهر صيغة تستدعي «وثيقة طلاق» ضد الشياطين والأرواح الشريرة، وكأن صاحب التعويذة يريد إنهاء العلاقة بين الكيان المؤذي وضحيته رسميًا. وفي وعاء آخر ارتبط بطرد كيان أنثوي من نوع «ليليث»، استُخدمت لغة مأخوذة من إجراءات الطلاق والعلاقات الزوجية، حتى تذكر الصيغة مفردات تتصل بالمهر والمال والممتلكات. وهذه ليست حكاية أدبية، بل نصوص سحرية حقيقية محفوظة على أوعية فخارية.

ليليث والتعاويذ

تظهر ليليث كذلك في بعض التقاليد السحرية اليهودية المتأخرة بوصفها كائنًا مؤذيًا يمكن دفعه بالتعويذة. ويحتفظ المتحف البريطاني بوعاء آرامي من جنوب العراق، مؤرخ بين القرنين السادس والثامن الميلاديين، يحتوي على ثلاث صيغ سحرية؛ إحداها تتعلق بإخضاع وطرد كيان من نوع ليليث، وأخرى تتضمن طلبًا لحماية شخص، بينما تتصل الثالثة بحلم نُسب إلى صاحبة التعويذة. وتكشف القطعة كيف دخلت الكيانات المؤذية والأحلام والحماية السحرية في ممارسات الحياة اليومية، وكيف استعانت التعويذات بصيغ دينية وقانونية مألوفة لتحويلها إلى أدوات لمواجهة القوى الخارقة.

لم يكن السحر للحماية فقط

لكن الممارسات السحرية لم تكن دفاعية دائمًا. فهناك أوعية تحمل تعاويذ موجهة ضد أشخاص محددين، وتطلب إيذاءهم أو إخضاعهم. ومن بينها وعاء آرامي من القرنين السادس والثامن الميلاديين، تصفه فهرسة المتحف البريطاني بأنه من أعمال السحر الهجومي، وتذكر التعويذة خصمًا باسم زُطرا بن أوكّماي وتطلب إنزال الأذى به. والأكثر إثارة أن النص يستعمل مقاطع من الكتاب المقدس، بل يكرر آية من سفر التثنية بترتيب معكوس، ويستدعي أسماء وشخصيات وأماكن دينية، ومنها سدوم وعمورة. وهنا تظهر بوضوح المفارقة بين النصوص التي تحذر من السحر وبين استخدام نصوص الكتاب المقدس نفسها داخل الممارسة السحرية.

قمران التعاويذ لم تكن غائبة عن الجماعات اليهودية القديمة

لم تقتصر الممارسات الوقائية على اليهود في العصر الروماني والبيزنطي، بل تظهر جذورها في نصوص أقدم عُثر عليها بين مخطوطات البحر الميت في قمران. ومن أبرزها نص يعرف باسم «أناشيد الحكيم»، محفوظ في المخطوطتين Q510٤ و Q511٤، ويرجع تاريخهما إلى الفترة القريبة من مطلع العصر الميلادي. ويبدو أن النص كان يُتلى للحماية من القوى الشريرة، إذ يتحدث عن أرواح مؤذية وشياطين وليليث، ويجعل تلاوة الكلمات المقدسة وسيلة لإخافتها وإبعادها.

ومن العبارات الباقية من النص أن المتكلم، الذي يصف نفسه بـ«الحكيم»، يعلن مجد الله لكي يُرهب ويُخضع الأرواح الشريرة والشياطين وليليث وغيرها من الكائنات التي قد تهاجم البشر وتضللهم. وهنا نرى بوضوح أن

التلاوة الدينية لم تكن مجرد صلاة بالمعنى التعبدي، بل كان يُعتقد أن للكلمات المقدسة فاعلية واقية في مواجهة العالم غير المرئي.

وهذا مهم جدًا لفهم تاريخ السحر اليهودي؛ لأن الحدود بين الصلاة والتعويذة لم تكن دائمًا حادة كما قد تبدو في التصنيفات الحديثة. فالنص نفسه يجمع بين التسبيح لله وبين استعمال الكلام المقدس بوصفه وسيلة لحماية الجماعة من الأرواح الشريرة. وقد وصف الباحثون هذه النصوص بأنها ذات وظيفة استرضائية أو طاردة للشر، أي أنها تهدف إلى منع الأذى قبل وقوعه أو إبعاد مصدره.

سليمان (من الحكمة إلى السيطرة على الشياطين)

ارتبط اسم سليمان بالسحر في تقاليد يهودية ظهرت بوضوح في العصر الروماني وما بعده، لكن من الضروري ألا ننسب هذه الصورة مباشرة إلى الكتاب المقدس؛ ففي النصوص التوراتية يظهر سليمان أساسًا ملكًا حكيمًا، بينما تبدأ صورته بوصفه صاحب معرفة سحرية وقدرة على إخضاع الشياطين في مصادر لاحقة.

أهم شاهد مبكر على ذلك هو المؤرخ اليهودي يوسيفوس في القرن الأول الميلادي. فقد كتب أن الله منح سليمان معرفة بطرق التغلب على الشياطين من أجل مساعدة البشر وشفائهم، وأنه ألّف تعاويذ وطرقًا لطرد الأرواح الشريرة. ثم يروي يوسيفوس حادثة قال إنه شاهدها بنفسه أمام فسبازيان وجنوده. كان هناك رجل مصاب بما اعتُبر استحواذًا شيطانيًا، فأخذ المعالج اليهودي إليعازار خاتمًا وضع تحت ختمه جذر نبات نُسب إلى تعليم سليمان، وقرّبه من أنف الرجل، ثم تلا تعاويذ منسوبة إلى سليمان وأمر الروح ألا

تعود. ويقول يوسيفوس إن الرجل سقط، ثم خرجت الروح، ولإثبات خروجها أُمرت بأن تقلب إناءً من الماء موضوعًا بالقرب منه.

سواء صدقنا وصف يوسيفوس للمعجزة أم نظرنا إليه باعتباره شهادة على معتقدات عصره، فإن أهمية القصة تاريخيًا لا تكمن في إثبات أن الشيطان خرج فعلًا من جسد الرجل، وإنما في أنها تقدم لنا وصفًا مبكرًا جدًا لممارسة يهودية لطرد الأرواح، وتربط هذه الممارسة باسم سليمان وبالخاتم والنبات والتعويذة في آن واحد.

خاتم سليمان والشياطين

تطورت قصة سليمان لاحقًا بصورة أكبر، حتى أصبح الخاتم نفسه عنصرًا أساسيًا في الأدبيات السحرية المنسوبة إليه. ومن أشهر النصوص في هذا المجال «وصية سليمان»، وهي مؤلَّف باللغة اليونانية امتلأ بقصص الشياطين وطرق إخضاعها، وتاريخ تأليفه وصيغته النهائية موضع نقاش بين الباحثين. وفيه يتحول الخاتم إلى أداة للسيطرة على الشياطين وطردها.

وهنا يجب أن ننتبه إلى نقطة مهمة الخاتم السحري المنسوب إلى سليمان ليس قطعة أثرية ثبت امتلاك سليمان التاريخي لها. أقدم شاهد واضح على خاتم مرتبط بممارسة طرد الأرواح يأتي من رواية يوسيفوس عن إليعازار، أما الصورة الأشهر لخاتم سليمان ذي القوة الخاصة فتطورت في الأدبيات اللاحقة.

ومع مرور الزمن أصبح سليمان في التراث اليهودي واحدًا من أعظم الشخصيات المرتبطة بمعرفة الأسرار والأسماء الإلهية والشياطين، ثم انتقلت هذه الصورة إلى تقاليد سحرية أوسع في الشرق الأدنى والعالم المتوسطي.

كتاب الأسرار (عالم كامل من الملائكة والتعاويذ)

ومن أغنى النصوص اليهودية السحرية التي وصلت إلينا «سفر الرَّازيم» أو كتاب الأسرار، ويرجح تأريخه إلى أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الميلادي، في بيئة يهودية من فلسطين الرومانية. وهو ليس مجرد مجموعة تعاويذ قصيرة، بل كتاب منظم يقدم تصورًا للكون السماوي ثم يربط كل مستوى منه بجماعات من الملائكة وأسماء وقواعد لاستدعائهم.

يقسم الكتاب العالم السماوي إلى سبع سماوات، ويورد أسماء أعداد كبيرة جدًا من الملائكة. ثم يقدم بعد وصف كل سماء طقوسًا وتعليمات عملية للحصول على نتائج محددة؛ منها الشفاء، والتنبؤ، والحصول على الحظ، والتأثير في الآخرين، بل وحتى الإضرار بالخصوم. وتظهر في النص أهمية ترديد الأسماء مرات محددة، واستعمال الشراب أو القرابين، والملابس، والتوقيت، والألفاظ السرية.

واللافت أن الكتاب لا يقدم هذه الممارسات باعتبارها مجرد حكايات عن السحر، بل في صورة وصفات عملية ماذا يقول الشخص، وكم مرة يقوله، وأي اسم ينادي، وما الذي يفعله أثناء الطقس. وفي إحدى الوصفات مثلًا يُطلب تكرار الاستدعاء إحدى وعشرين مرة، ثم استعمال اسم مرتبط بكوكب الزهرة، إلى جانب اسم ملاك، للحصول على نفوذ على ملك وجيشه.

وهذا الكتاب يكشف لنا شيئًا مهمًا جدًا السحر اليهودي لم يكن دائمًا مجرد استعمال آيات من الكتاب المقدس، بل أصبح في بعض البيئات نظامًا كاملًا من الأسماء الملائكية والطقوس والأرقام والأدوات والتصورات الكونية، وتأثر كذلك بالمحيط اليوناني والمصري والسحري في العالم المتوسطي.

أسماء الله والكتاب المقدس كأدوات للحماية

ومن أكثر الجوانب إثارة أن النصوص السحرية اليهودية لم تكن مضطرة إلى اختراع كلمات جديدة؛ فقد استُخدمت آيات الكتاب المقدس نفسه في التعاويذ. وتشير الدراسات إلى أن استخدام النص العبري المقدس في السحر اليهودي القديم والوسيط كان واسعًا جدًا، سواء عن طريق اقتباس آيات كاملة أو استخدام قصص وشخصيات كتابية داخل الطقس السحري.

ولهذا نجد التميمة قد تحمل اسم الله، أو أسماء ملائكة، أو آية كتابية، ثم تُطوى وتُحمل على الجسد. لم يكن الاعتقاد قائمًا بالضرورة على معنى الآية وحده، وإنما على قوة الكلمات المقدسة وأسماء القوى السماوية التي تحتويها.

ومن فلسطين الرومانية مثال واضح على ذلك تمائم معدنية كتبت بالعبرية والآرامية، يعود بعضها إلى القرنين الرابع والسابع الميلاديين، وكانت تُلف وتحمل على الجسد أو توضع في البيوت والمعابد. وقد استُخدمت للحماية من المرض والعين الشريرة والأرواح ولأغراض صحية أخرى.

السحر من أجل الحمل والولادة

ولم يكن الخوف من الأرواح هو المشكلة الوحيدة التي حاولت التعاويذ معالجتها. فالولادة نفسها كانت من أخطر مراحل حياة المرأة في المجتمعات القديمة، ولذلك ظهرت تمائم يهودية مخصصة لتسهيل الولادة وتسريعها وحماية الأم والجنين.

وتكشف مواد من الجنيزة القاهرية (مجموعة من المخطوطات والوثائق اليهودية القديمة التي عثر عليها في كنيس بن عزرا في الفسطاط القاهرة

القديمة)عن تمائم يهودية استُخدمت لهذا الغرض، بعضها يجمع بين آيات الكتاب المقدس، وأسماء الملائكة، والمربعات السحرية، والتعاويذ القصيرة. وكانت الغاية أن تساعد المرأة على الولادة أو على إخراج جنين ميت عالق في الرحم. وتكتسب هذه الشواهد أهمية خاصة لأنها لا تخبرنا فقط بما كان الناس يؤمنون به، بل تكشف لنا كيف دخلت الممارسات السحرية مباشرة في أكثر لحظات الحياة اليومية خوفًا وحساسية.

لكن في القرن الأول الميلادي كانت بلاد الشام تعيش مرحلة دينية شديدة التنوع، وكانت داخل اليهودية نفسها أفكار وانتظارات مختلفة حول المسيح والخلاص وملكوت الله. وفي هذه البيئة بالذات ظهرت حركة دينية جديدة ستترك أثرًا هائلًا في تاريخ المنطقة والعالم ومن هنا نصل إلى المحور الثالث المسيحية وبداياتها في بلاد الشام.

يسوع الناصري وبداية الحركة المسيحية

نشأت المسيحية في بيئة دينية يهودية، ولذلك لا يمكن فهم بداياتها من دون النظر إلى المجتمع الذي ظهر فيه يسوع الناصري. كانت يهودا والجليل في القرن الأول الميلادي تعيشان تحت الهيمنة الرومانية، بينما كانت الحياة الدينية اليهودية تقوم على الإيمان بإله واحد، وعلى الشريعة والتقاليد الدينية، مع وجود تيارات وجماعات متعددة اختلفت في تفسيرها للدين وفي موقفها من السلطة الرومانية.

في هذه البيئة ظهر يسوع الناصري، الذي تُرجح الدراسات التاريخية أنه وُلد في أواخر القرن الأول قبل الميلاد، وعاش معظم حياته في الجليل. ولا تقدم المصادر التاريخية معلومات واسعة عن طفولته وشبابه، إذ تتركز الروايات الإنجيلية بصورة أساسية على فترة نشاطه العلني.

وترتبط بداية نشاطه بشخصية يوحنا المعمدان، الذي كان يعظ الناس ويدعوهم إلى التوبة، ويجري لهم المعمودية في نهر الأردن. وتضع الأناجيل يسوع ضمن هذه البيئة الدينية، وتروي أنه تعمّد على يد يوحنا، ثم بدأ بعد ذلك نشاطه الخاص.

اتخذ يسوع من الجليل مركزًا أوليًا لدعوته، وتنقل بين القرى والمناطق، داعيًا إلى التوبة ومعلنًا اقتراب ملكوت الله. ولم تكن تعاليمه مجرد مجموعة من القواعد الدينية، بل ركزت على العلاقة بين الإنسان والله، وعلى الرحمة والتوبة ومغفرة الخطايا ومحبة الآخرين، بما في ذلك التعامل مع الفقراء والمهمشين والمرضى والمنبوذين اجتماعيًا.

ومن أشهر ما ارتبط بتعاليمه ما عُرف لاحقًا بـالعظة على الجبل، التي تتضمن مجموعة من التعاليم الأخلاقية والدينية، ومنها الدعوة إلى محبة الأعداء، والعفو، والرحمة، وعدم الاقتصار على المظاهر الخارجية للتدين.

ومع انتشار دعوته، التف حوله عدد من الأتباع، وكان من أبرزهم الاثنا عشر تلميذًا الذين ارتبطوا به بصورة خاصة. ومن بينهم سمعان بطرس، ويعقوب بن زبدي، ويوحنا، وأندراوس وغيرهم. وأصبح هؤلاء التلاميذ النواة الأولى للجماعة التي ستواصل نشر تعاليمه بعد موته.

وتروي الأناجيل أن يسوع قام أيضًا بأعمال ومعجزات، منها شفاء المرضى وإخراج الأرواح الشريرة وإحياء الموتى، كما تنسب إليه معجزات أخرى. وهذه الروايات تشكل جزءًا أساسيًا من الإيمان المسيحي، لكن المؤرخ عند دراسة شخصية يسوع يميز بين وجود الرواية في المصادر الدينية وبين إمكانية إثبات الحدث الخارق تاريخيًا؛ ولذلك تُدرس المعجزات أساسًا بوصفها جزءًا من الإيمان والتقاليد المسيحية المبكرة.

ومع الوقت أصبحت تعاليم يسوع أكثر إثارة للجدل، خصوصًا بسبب خلافاته مع بعض القيادات الدينية حول تفسير الشريعة والممارسات الدينية. وتروي الأناجيل أحداثًا عديدة جرت في هذا السياق، من بينها جدالات حول السبت والطهارة وبعض أحكام الشريعة.

ثم توجه يسوع إلى أورشليم في المرحلة الأخيرة من حياته. وهناك دخل في مواجهة متزايدة مع السلطات الدينية، وانتهت الأحداث باعتقاله وتسليمه إلى السلطة الرومانية.

كان الحكم الروماني هو صاحب السلطة في تنفيذ عقوبة الصلب، ولذلك ارتبطت نهاية حياة يسوع بالوالي الروماني بيلاطس البنطي. وتجمع المصادر

المسيحية على أن يسوع صُلب في أورشليم، في عهد بيلاطس، في النصف الأول من القرن الأول الميلادي. لكن موت يسوع لم يكن نهاية الحركة بل كان، بالنسبة إلى أتباعه، بداية مرحلة جديدة تمامًا.

فقد آمن أتباعه بأن الله أقامه من الموت، وأنه ظهر لهم بعد قيامته. وأصبح الإيمان بقيامته حجر الأساس في الرسالة التي حملها تلاميذه بعد ذلك.

ومن هنا بدأت الجماعة الأولى في أورشليم، وهي الجماعة التي ستصبح النواة الأولى للمسيحية.

الجماعة الأولى في أورشليم

بعد موت يسوع، بقي أتباعه في أورشليم، وكانوا في البداية جماعة يهودية تؤمن بأن يسوع هو المسيح المنتظر. ولم يكن أتباعه الأوائل يرون أنفسهم في البداية مؤسسي ديانة منفصلة عن اليهودية، بل جماعة تؤمن بأن الوعود الدينية التي عرفها اليهود قد تحققت في يسوع.

وكان من أبرز قادة هذه الجماعة بطرس، إلى جانب يعقوب أخي يسوع، الذي أصبح شخصية محورية في جماعة أورشليم.

ومع ازدياد عدد الأتباع، بدأت الحركة تنتشر خارج أورشليم. وهنا ظهرت إحدى أهم التحولات في تاريخها انتقال الرسالة من حركة يهودية محلية إلى دين يتوجه أيضًا إلى غير اليهود.

وكان لهذا التحول أكثر من شخصية، لكن أبرزها كان رجلًا لم يكن من تلاميذ يسوع خلال حياته، بل كان في البداية معارضًا لأتباعه.

كان اسمه شاول الطرسوسي، المعروف لاحقًا ببولس الرسول.

من أورشليم إلى دمشق التحول الذي غيّر مسار المسيحية

لم تكن جماعة أتباع يسوع في أورشليم جماعة متجانسة تمامًا. فقد كان أعضاؤها الأوائل يهودًا، وكانوا يمارسون كثيرًا من العادات الدينية اليهودية، لكن انضمام أتباع جدد من خارج الدائرة الأولى بدأ يثير أسئلة حول حدود الجماعة وطبيعة الرسالة التي تحملها.

ومن بين الشخصيات التي ظهرت في هذه المرحلة استفانوس، وهو أحد السبعة الذين اختارتهم الجماعة لخدمة أعضائها. وتصفه المصادر المسيحية بأنه كان من أبرز الدعاة في أورشليم، وقد دخل في جدالات دينية مع معارضيه.

وانتهت هذه المواجهات باتهامه بالتجديف، ثم رجمه حتى الموت. ويُعد استفانوس في التقليد المسيحي أول شهيد للمسيحية.

كان مقتل استفانوس نقطة مهمة في تاريخ الجماعة، إذ أعقبه اضطهاد دفع عددًا من أتباع الحركة إلى مغادرة أورشليم. وبدل أن يؤدي ذلك إلى اختفاء الجماعة، ساهم انتشار أعضائها في نقل الدعوة إلى مناطق جديدة.

ومن بين الذين ارتبطوا باضطهاد أتباع يسوع في تلك الفترة رجل يُدعى شاول الطرسوسي.

شاول الطرسوسي

كان شاول يهوديًا من طرسوس في كيليكية، وهي مدينة مهمة في جنوب الأناضول. وكان متعلمًا في التقاليد اليهودية، وقد عارض الجماعة التي آمنت بيسوع، وشارك في ملاحقة أتباعها وفق الرواية الواردة في سفر أعمال الرسل ورسائل بولس.

لكن حياته تغيرت بصورة جذرية عندما كان في طريقه إلى دمشق.

بحسب الرواية المسيحية، خرج شاول متوجهًا إلى دمشق بهدف ملاحقة أتباع يسوع الموجودين فيها، إلا أنه رأى نورًا سماويًا وسمع صوتًا يخاطبه، فعرف أن يسوع الذي كان يضطهده هو المسيح. وبعد هذه التجربة أصبح من أبرز المدافعين عن الإيمان الذي كان يحاربه. وهنا تدخل دمشق للمرة الأولى بصورة مباشرة في قصة المسيحية.

فقد كان في المدينة أتباع ليسوع، ومن بينهم رجل يدعى حنانيا. وتروي الرواية أن المسيح ظهر لحنانيا وأمره بالذهاب إلى شاول، فاستقبله واهتم به، ثم استعاد شاول بصره وتعمّد. ومنذ ذلك الوقت أصبح شاول، الذي عُرف لاحقًا باسم بولس، أحد أهم الشخصيات في تاريخ المسيحية.

ولم يكن تحوله مجرد تغيير شخصي؛ فقد أصبح لاحقًا أحد أبرز الدعاة إلى المسيحية خارج البيئة اليهودية، وأسهمت رحلاته ورسائله في تشكيل الفكر المسيحي المبكر.

دمشق وبداية بولس

تذكر المصادر المسيحية أن بولس بدأ في دمشق بإعلان إيمانه الجديد، الأمر الذي أثار دهشة من عرفوه سابقًا بسبب عدائه لأتباع يسوع.

ثم غادر المدينة، وعاد لاحقًا إلى دمشق، قبل أن ينتقل إلى مناطق أخرى. وتشير رسالته إلى أهل غلاطية إلى أنه ذهب بعد تحوله إلى العربية، ثم عاد إلى دمشق، قبل أن يتوجه إلى أورشليم.

ولا يزال تحديد المقصود بكلمة العربية في رسالته موضع نقاش بين الباحثين؛ فقد كانت العربية في ذلك العصر تشير إلى مناطق واسعة مرتبطة

بالعرب، وليس بالضرورة إلى مفهوم الدولة الحديثة التي تحمل الاسم نفسه. وبعد فترة، ارتبط بولس بـأنطاكية، المدينة التي ستصبح أحد أعظم مراكز المسيحية في العالم القديم.

أنطاكية المدينة التي حملت اسم المسيحيين

كانت أنطاكية على نهر العاصي واحدة من أهم مدن شرق المتوسط. أسسها سلوقس الأول في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وتحولت في العصر الروماني إلى مركز سياسي واقتصادي وثقافي كبير.

وفي أنطاكية اجتمعت جماعة مسيحية ذات أهمية خاصة، وكان فيها أتباع من خلفيات يهودية وغير يهودية. وهنا تذكر سفر أعمال الرسل أن أتباع يسوع دُعوا للمرة الأولى باسم المسيحيين.

ومن أنطاكية بدأت حركة تبشيرية واسعة، وأصبحت المدينة قاعدة مهمة لنشر المسيحية في مناطق سورية وآسيا الصغرى.

وكان برنابا من الشخصيات المهمة في هذه المرحلة، ثم انضم إليه بولس، وبدأ الاثنان نشاطًا تبشيريًا واسعًا.

ومن أنطاكية خرجت رحلات بولس التبشيرية التي نقلت الرسالة إلى مدن كثيرة، وكان بعضها داخل بلاد الشام والأناضول، وبعضها في العالم اليوناني والروماني.

هل انفصلت المسيحية عن اليهودية فورًا؟ لا. لم تظهر المسيحية منذ يومها الأول كدين منفصل تمامًا عن اليهودية. فقد كان يسوع نفسه يهوديًا، وكان تلاميذه الأوائل يهودًا، وكانت الجماعة الأولى في أورشليم ذات طابع يهودي واضح. لكن دخول أعداد متزايدة من غير اليهود خلق مشكلة جديدة

هل يجب على من يريد اتباع المسيح من غير اليهود أن يصبح يهوديًا أولًا، وأن يلتزم بكل أحكام الشريعة اليهودية؟

أصبحت هذه المسألة من أكبر القضايا التي واجهت المسيحية المبكرة.

وكان بولس من أبرز المدافعين عن قبول غير اليهود في الجماعة المسيحية من دون إلزامهم بالتحول الكامل إلى اليهودية.

وهذا الخلاف لم يكن تفصيلًا صغيرًا، بل كان من العوامل الأساسية التي ساعدت على تحديد شكل المسيحية في القرون التالية.

وفي منتصف القرن الأول الميلادي تقريبًا انعقد اجتماع مهم في أورشليم، عُرف في التقليد المسيحي باسم مجمع أورشليم، لمناقشة هذه القضية.

وانتهى النقاش إلى موقف سمح بقبول غير اليهود في الجماعة المسيحية دون إلزامهم بكل أحكام الشريعة اليهودية، مع وضع بعض الالتزامات الدينية والأخلاقية عليهم.

كان هذا القرار نقطة تحول حقيقية؛ لأنه فتح الباب أمام توسع المسيحية خارج المجتمع اليهودي، وأصبح بالإمكان أن تدخل مدنًا ومجتمعات جديدة دون أن يكون اعتناق اليهودية شرطًا مسبقًا.

ومن هنا بدأت المسيحية تتحول تدريجيًا من حركة يهودية تؤمن بأن يسوع هو المسيح إلى حركة دينية متعددة الشعوب واللغات والثقافات. وكانت أنطاكية إحدى أهم المدن التي شهدت هذا التحول.

رحلات بولس وانتشار المسيحية في بلاد الشام

بعد أن أصبحت أنطاكية مركزًا مهمًا للجماعة المسيحية، خرج منها بولس وبرنابا في رحلات تبشيرية نقلت الرسالة إلى مدن ومناطق جديدة. ولم يكن انتشار المسيحية في هذه المرحلة عملية منظمة من مركز واحد، بل اعتمد على جماعات صغيرة كانت تتشكل في المدن ثم ترتبط بغيرها من الجماعات.

كان بولس يتحرك بصورة خاصة بين المدن ذات الطابع اليوناني والروماني، ويدخل أولًا إلى المجامع اليهودية حيث يعرض رسالته، ثم يتوجه إلى غير اليهود أيضًا. وفي بعض المدن أدى نشاطه إلى جدالات وانقسامات، وأحيانًا إلى اضطرابات ومواجهات مع السكان أو السلطات المحلية.

وكانت أنطاكية نقطة انطلاق أساسية في هذا النشاط، بينما أصبحت مدن أخرى مراكز مسيحية مهمة مع مرور الوقت.

ومن أبرز المناطق التي وصلت إليها الدعوة في هذه الفترة آسيا الصغرى واليونان، إضافة إلى مناطق من بلاد الشام. وأصبحت الرسائل التي كتبها بولس إلى الجماعات التي أسسها أو ارتبط بها من أهم المصادر التي بقيت لنا عن المسيحية في القرن الأول الميلادي.

بولس ودمشق وأورشليم

على الرغم من أن بولس أصبح لاحقًا أحد أبرز الشخصيات المسيحية، فإنه لم يكن قائد الجماعة الأولى في أورشليم. ولذلك كان بحاجة إلى بناء علاقة مع التلاميذ والقيادات التي عرفت يسوع خلال حياته. وتذكر رسائله أنه التقى بطرس في أورشليم، كما ارتبط بيعقوب أخي الرب، الذي كان من أبرز شخصيات الجماعة هناك.

وهذا يكشف لنا أن المسيحية المبكرة لم تكن منذ البداية ذات قيادة واحدة؛ فقد ظهرت فيها مراكز وشخصيات متعددة، وكان لكل جماعة ظروفها ومشكلاتها.

وكانت جماعة أورشليم ذات أهمية خاصة لأنها ارتبطت مباشرة بالتلاميذ الأوائل، بينما أخذت أنطاكية دورًا متزايدًا في نشر الرسالة خارج البيئة اليهودية.

المسيحية تدخل المدن السورية

لم تكن دمشق وأنطاكية المدينتين الوحيدتين اللتين عرفتا المسيحية.

فمع انتشار الحركة خلال القرن الأول الميلادي، ظهرت جماعات مسيحية في عدد من مدن سورية وبلاد الشام، وإن كانت المعلومات المتوفرة عن بعض هذه الجماعات أقل بكثير من المعلومات المتعلقة بأنطاكية.

وكانت المدن الكبرى والطرق التجارية بيئة مناسبة لانتشار الأفكار الجديدة؛ فالتجار والمسافرون والجماعات الدينية كانوا ينتقلون باستمرار بين المدن، وكانت اللغة اليونانية منتشرة على نطاق واسع إلى جانب الآرامية واللغات المحلية. وهذا ساعد المسيحية على الانتقال من مدينة إلى أخرى.

ولم يكن الانتشار محصورًا في طبقة اجتماعية واحدة. فقد اجتذبت المسيحية أشخاصًا من خلفيات مختلفة، وشكلت الجماعات المسيحية الأولى مجتمعات صغيرة تقوم على العبادة المشتركة، وتبادل المساعدة، ورعاية الفقراء والأرامل والمحتاجين. لكن توسع الحركة لم يكن سهلًا.

فمع ازدياد عدد أتباعها، بدأت المسيحية تواجه مقاومة من جهات مختلفة، بعضها ديني وبعضها اجتماعي وبعضها سياسي.

الاضطهادات الأولى

من الخطأ تصور أن الإمبراطورية الرومانية بدأت منذ البداية بحملة موحدة للقضاء على المسيحية في جميع أنحاء أراضيها. فالواقع كان أكثر تعقيدًا.

في القرن الأول الميلادي كانت ردود الفعل تختلف من مدينة إلى أخرى، ومن حاكم إلى آخر. وفي كثير من الأحيان كان المسيحيون يتعرضون للملاحقة نتيجة نزاعات محلية أو اتهامات مرتبطة بممارساتهم الدينية، وليس بسبب سياسة إمبراطورية ثابتة ومستمرة.

وكان أحد الأسباب المهمة للتوتر أن المسيحيين رفضوا المشاركة في بعض الطقوس المرتبطة بالعبادة العامة وبالولاء الديني للإمبراطور، بينما كان المجتمع الروماني يربط بين الطقوس الدينية واستقرار الدولة. وبذلك أصبح رفض بعض المسيحيين المشاركة في هذه الطقوس يُنظر إليه أحيانًا باعتباره خروجًا عن الأعراف العامة.

نيرون وحريق روما

في سنة ٦٤م اندلع حريق ضخم في روما، واستمر عدة أيام وألحق دمارًا واسعًا بأجزاء من المدينة. وتذكر المصادر القديمة أن الإمبراطور نيرون اتهم المسيحيين بالمسؤولية عن الحريق، ثم تعرض عدد منهم لعقوبات قاسية.

وقد أصبحت هذه الحادثة من أشهر محطات اضطهاد المسيحيين في القرن الأول، إلا أن نطاقها كان محليًا في روما، ولا يصح اعتبارها بداية اضطهاد إمبراطوري شامل في جميع أنحاء الدولة الرومانية. وفي العقود التالية استمرت الجماعات المسيحية في النمو، رغم ما تعرض له بعض أتباعها من ملاحقات.

المسيحية في نهاية القرن الأول

مع اقتراب نهاية القرن الأول، كانت المسيحية قد خرجت بوضوح من حدود الجماعة الصغيرة التي بدأت في أورشليم.

كان لها وجود في بلاد الشام وآسيا الصغرى واليونان وروما، وبدأت تظهر جماعات في مناطق أخرى من الإمبراطورية. وفي الوقت نفسه كانت الحركة تتغير من الداخل.

فالجيل الذي عرف يسوع مباشرة بدأ بالاختفاء، وبرزت أجيال جديدة لم تعرفه شخصيًا، وإنما تعرفت إلى تعاليمه من خلال التلاميذ والرسل والروايات التي بدأت تُتداول بين الجماعات. وفي هذه الفترة بدأت تتشكل بصورة تدريجية النصوص والتقاليد التي ستصبح لاحقًا أساس العهد الجديد.

لكن المسيحيين لم يكونوا جماعة موحدة تمامًا؛ فقد ظهرت بينهم اختلافات في تفسير شخصية يسوع، وطبيعة الخلاص، والعلاقة بالشريعة اليهودية، وطريقة تنظيم الجماعات.

وهذه الاختلافات ستصبح أكثر وضوحًا في القرنين الثاني والثالث الميلاديين.

أما أنطاكية فستستمر في لعب دور استثنائي في هذا التاريخ. فمن هذه المدينة لم تنتشر المسيحية فقط إلى المناطق المحيطة، بل أصبحت لاحقًا واحدة من المراكز الكبرى للمسيحية في العالم القديم، إلى جانب أورشليم وروما والإسكندرية والقسطنطينية.

المسيحية في القرنين الثاني والثالث

من الجماعات الصغيرة إلى الكنائس المنظمة

مع بداية القرن الثاني الميلادي كانت المسيحية قد تجاوزت مرحلة الجيل الأول. اختفى معظم الرسل الذين ارتبطوا مباشرة بيسوع، وبدأت الجماعات المسيحية تعتمد بصورة أكبر على قيادات محلية تتولى تنظيم العبادة وتعليم المؤمنين والحفاظ على تقاليد الجماعة.

وفي هذه المرحلة أخذت البنية الكنسية تتضح تدريجيًا. فظهر الأسقف بوصفه صاحب دور قيادي في الجماعة المحلية، إلى جانب القساوسة والشمامسة، وأصبحت بعض المدن مراكز دينية تتبعها جماعات أصغر في المناطق المحيطة بها. ولم تكن هذه العملية متطابقة في جميع أنحاء العالم المسيحي منذ البداية، لكنها أصبحت أكثر وضوحًا مع مرور الوقت.

وكانت أنطاكية من أهم المدن التي شهدت هذا التطور.

أنطاكية ومكانتها المسيحية

احتفظت أنطاكية بمكانتها بوصفها أحد أهم مراكز المسيحية الشرقية. وقد ارتبط اسمها منذ القرن الأول ببطرس وبولس وبرنابا، ثم أصبحت في القرون التالية مركزًا لأسقفية قوية ذات نفوذ واسع. وفي القرن الثاني ظهر فيها أحد أشهر الشخصيات المسيحية المبكرة، وهو إغناطيوس الأنطاكي.

كان إغناطيوس أسقف أنطاكية، وقد اعتُقل في عهد الإمبراطور تراجان ونُقل إلى روما، حيث مات شهيدًا، ويرجح أن ذلك حدث في بدايات القرن الثاني.

وخلال رحلته كتب عددًا من الرسائل إلى جماعات مسيحية مختلفة، وهي من أقدم الوثائق المسيحية التي تكشف لنا كيف كانت الكنائس تنظم نفسها وكيف كانت تفهم العلاقة بين الأسقف والجماعة والمؤمنين.

وتظهر في كتاباته أهمية الوحدة الكنسية، كما يظهر فيها استعمال مبكر واضح لكلمة «الكنيسة الكاثوليكية» بمعنى الكنيسة الجامعة.

وهكذا لم تعد المسيحية في بلاد الشام مجرد جماعات صغيرة متفرقة؛ فقد بدأت تظهر فيها مؤسسات دينية وقيادات محلية وتقاليد خاصة بها.

المسيحية السورية واللغة الآرامية

كان لبلاد الشام دور مهم أيضًا في المحافظة على تقاليد مسيحية مرتبطة باللغات المحلية. فإلى جانب اليونانية، التي كانت لغة مهمة في المدن والثقافة والتعليم، ظلت الآرامية مستخدمة على نطاق واسع في سورية وبلاد الرافدين. ومع توسع المسيحية ظهرت تقاليد مسيحية آرامية مميزة، وستتطور لاحقًا إلى ما يعرف بالتراث السرياني.

وهنا يجب التمييز بين السريانية بوصفها شكلًا أدبيًا ولغويًا من الآرامية، وبين استخدامها لاحقًا للدلالة على تقاليد كنسية وهوية دينية وثقافية.

وفي القرون التالية ستصبح اللغة السريانية من أهم لغات المسيحية في المشرق، وتنتج بها نصوص دينية ولاهوتية كثيرة.

ظهور الاختلافات والتيارات المسيحية

لم تكن المسيحية في القرنين الثاني والثالث موحدة في كل تعاليمها.

فمع انتشارها في مناطق مختلفة، ظهرت تفسيرات متعددة لشخصية يسوع وطبيعته وعلاقته بالله، ولطريقة فهم الخلاص والكتب المقدسة.

ظهرت مثلًا تيارات عُرفت باسم الغنوصية، وهي مجموعة واسعة من الاتجاهات لم تكن مذهبًا واحدًا متجانسًا، لكنها اشتركت في إعطاء المعرفة الروحية دورًا أساسيًا في الخلاص، وظهرت لدى بعضها تصورات مختلفة جذريًا عن العالم المادي وعن طبيعة المسيح.

كما ظهرت تيارات أخرى مثل المارقيونية، التي ارتبطت بمارقيون، ورفضت أجزاء كبيرة من التراث اليهودي، وقدمت تصورًا خاصًا للعلاقة بين إله العهد القديم والإله الذي أعلن عنه المسيح.

وفي المقابل بدأت القيادات الكنسية التي أصبحت لاحقًا جزءًا من التيار المسيحي السائد بتحديد مجموعة من التعاليم والكتب التي اعتبرتها صحيحة، ورفضت تعاليم أخرى بوصفها خارجة عن الإيمان الذي تسلمته من الرسل.

ومن هنا بدأت عملية طويلة أدت في النهاية إلى تشكل ما سيعرف لاحقًا باسم العقيدة المسيحية الأرثوذكسية بمعناها التاريخي، وإلى تحديد مجموعة الكتب التي ستشكل العهد الجديد. لكن هذه العملية لم تحدث في اجتماع واحد أو في سنة واحدة؛ بل كانت نتيجة تطور طويل امتد عبر القرون.

الاضطهاد لم يكن مستمرًا

وفي هذه الفترة أيضًا استمرت العلاقة بين المسيحيين والسلطات الرومانية في التغير. فلم يكن المسيحيون يتعرضون للاضطهاد طوال الوقت، كما لم تكن هناك دائمًا سياسة واحدة تجاههم في كل أنحاء الإمبراطورية.

أحيانًا كان المسؤولون المحليون يتجاهلون وجودهم، وأحيانًا كانت تحدث محاكمات وعقوبات عندما يرفض المسيحيون المشاركة في الطقوس العامة أو عندما تُثار ضدهم شكاوى. وفي القرن الثالث أصبحت الإمبراطورية تمر بأزمات سياسية وعسكرية واقتصادية، وبدأ بعض الأباطرة ينظرون إلى توحيد الطقوس والولاء للإمبراطور بوصفه وسيلة لتعزيز وحدة الدولة. وكان لهذا أثر مباشر في المسيحيين الذين رفضوا المشاركة في بعض الطقوس الدينية الرسمية.

اضطهاد ديوسيوس

في عهد الإمبراطور ديوسيوس، نحو سنة ٢٥٠م، اتخذت الدولة خطوة أكثر تنظيمًا؛ إذ فُرض على سكان الإمبراطورية تقديم القرابين للآلهة وفق إجراءات رسمية، والحصول على شهادات تثبت قيامهم بذلك. لم يكن الهدف المعلن هو المسيحيون وحدهم، لكن الإجراء وضع المسيحيين أمام مشكلة كبيرة، لأن تقديم القرابين كان يتعارض مع معتقدات كثير منهم. فرفض بعضهم، وامتثل آخرون خوفًا من العقوبة. وظهرت بعد انتهاء الاضطهاد مشكلة حادة ماذا يحدث للمسيحي الذي أنكر إيمانه أو قدم القرابين ثم أراد العودة إلى الكنيسة؟ وهذه القضية ستؤدي إلى خلافات طويلة داخل بعض الكنائس حول التوبة والمغفرة وقبول من تراجعوا تحت الضغط.

الاضطهاد الكبير

بلغ الصراع مرحلة أشد في عهد الإمبراطور دقلديانوس في بداية القرن الرابع. فابتداءً من سنة ٣٠٣م تقريبًا بدأت سلسلة من الإجراءات ضد المسيحيين، شملت هدم الكنائس ومصادرة الكتب الدينية ومنع بعض أشكال التجمع، ثم تصاعدت العقوبات في مناطق مختلفة من الإمبراطورية. وعُرفت هذه المرحلة باسم الاضطهاد الكبير.

لكنها لم تستمر بالقوة نفسها في جميع أنحاء الإمبراطورية؛ فقد اختلف تطبيقها بحسب المنطقة والحاكم.

وفي بلاد الشام كانت للمسيحيين جماعات قوية، ولذلك أصبحت المنطقة مسرحًا لعدد من عمليات الاضطهاد والاستشهاد. ومن بين المدن التي ارتبط اسمها بالشهداء المسيحيين في هذه المرحلة أنطاكية وغيرها من مدن سورية وفينيقية وفلسطين. وبالرغم من الاضطهاد، لم تختفِ المسيحية. بل دخلت بعد سنوات قليلة مرحلة ستغيّر تاريخها بالكامل.

ففي بداية القرن الرابع ظهر قسطنطين، الذي انتصر في الصراع على السلطة، ثم اتخذ موقفًا مؤيدًا للمسيحية.

وفي سنة ٣١٣م صدر ما يعرف تقليديًا باسم مرسوم ميلانو، الذي أتاح للمسيحيين ممارسة دينهم بصورة قانونية وأوقف سياسة الاضطهاد الرسمي.

قسطنطين والتحول الكبير

كان اعتراف الإمبراطورية بالمسيحية نقطة تحول لا تقل أهمية عن نشأتها نفسها. فبعد قرون من وجود الجماعات المسيحية داخل المجتمع الروماني،

بعضها في الخفاء وبعضها تحت ضغط السلطات، أصبح المسيحيون قادرين على ممارسة عبادتهم بصورة قانونية. ارتبط هذا التحول بالإمبراطور قسطنطين الأول، الذي انتصر على منافسه ماكسنتيوس في معركة جسر ميلفيوس سنة ٣١٢م. وبعد انتصاره اتخذ موقفًا مؤيدًا للمسيحية، ثم شارك مع الإمبراطور ليسينيوس في إصدار الاتفاق المعروف بمرسوم ميلانو سنة ٣١٣م، الذي منح المسيحيين وغيرهم حق ممارسة شعائرهم الدينية وأعاد إليهم الممتلكات المصادرة.

ولم تصبح المسيحية دين الدولة في عهد قسطنطين، كما يُعتقد أحيانًا، لكنه منحها امتيازات ودعمًا إمبراطوريًا واسعًا، وأصبح بناء الكنائس واستعادة ممتلكات الكنيسة ممكنًا بصورة علنية. وكان لهذا التغيير أثر كبير في بلاد الشام. فقد بدأت الكنائس تظهر بصورة أكثر وضوحًا في المدن، وأصبح الأساقفة يتمتعون بمكانة اجتماعية وسياسية أكبر، وتحولت المدن التي كانت تضم جماعات مسيحية صغيرة إلى مراكز دينية مهمة.

لكن انتهاء الاضطهاد لم ينهِ الخلافات المسيحية. بل حدث العكس تقريبًا.

فبعد أن أصبح بإمكان المسيحيين الاجتماع علنًا، ظهرت الخلافات العقائدية بصورة أكثر وضوحًا، وأصبحت الإمبراطورية نفسها معنية بالحفاظ على وحدة الكنيسة.

أريوس والخلاف حول طبيعة المسيح

كان من أكبر الخلافات التي ظهرت في القرن الرابع الخلاف المرتبط بالكاهن أريوس في الإسكندرية. كان أريوس يرى، بصورة مبسطة، أن الابن ليس مساويًا للآب في الأزلية والجوهر، وأنه مخلوق من الله، وإن كان أسمى من

سائر المخلوقات. اعترض خصومه على هذا التصور، ورأوا أنه ينتقص من ألوهية المسيح. ولم يبقَ الخلاف مسألة محلية في الإسكندرية، بل امتد إلى الكنائس في أنحاء الإمبراطورية، ومنها بلاد الشام.

وكان لكثير من أساقفة الشرق مواقف مختلفة من القضية، وأصبحت المسألة شديدة التعقيد بسبب تداخل اللاهوت مع السياسة الإمبراطورية. لذلك دعا قسطنطين إلى اجتماع كبير للأساقفة.

مجمع نيقية

في سنة ٣٢٥م اجتمع الأساقفة في مدينة نيقية في آسيا الصغرى، في أول مجمع مسكوني كبير تعترف به الكنائس المسيحية التقليدية. كان الهدف الأساسي حسم الخلاف حول علاقة الابن بالآب.

وانتهى المجمع إلى رفض تعليم أريوس، وأقر أن الابن من جوهر الآب، وأنه ليس مخلوقًا مثل سائر المخلوقات.

وظهر في صياغة الإيمان مصطلح يوناني مهم هو هوموأوسيوس، أي مساوٍ في الجوهر أو من الجوهر نفسه، للدلالة على العلاقة بين الآب والابن.

كما صدر عن المجمع قانون إيمان أصبح أساسًا مهمًا في العقيدة المسيحية اللاحقة. لكن قرار نيقية لم يُنهِ الخلاف.

فبعد المجمع استمرت الانقسامات، وتغيرت مواقف الأباطرة، وعاد أتباع أريوس أو الاتجاهات القريبة منه إلى النفوذ في فترات مختلفة.

وهنا ظهر دور مهم لأساقفة بلاد الشام في الجدل العقائدي.

أنطاكية في قلب الصراع

كانت أنطاكية من أهم المدن التي شاركت في هذه الصراعات. فموقعها ومكانتها القديمة جعلها مركزًا كنسيًا كبيرًا، وكان أسقفها من الشخصيات ذات الوزن في الكنيسة الشرقية.

وفي العقود التي تلت نيقية شهدت أنطاكية سلسلة من الخلافات حول الأساقفة والعقيدة، وأصبحت المدينة واحدة من ساحات الصراع بين التيارات المختلفة.

وهذا مهم لفهم تاريخ المسيحية في بلاد الشام؛ لأن المنطقة لم تكن مجرد متلقٍ للقرارات التي تصدر من الإسكندرية أو روما، بل كان لأساقفتها وعلمائها دور فعلي في صياغة النقاش اللاهوتي المسيحي.

من قسطنطين إلى ثيودوسيوس

استمر الوضع الديني في التغير خلال القرن الرابع. فبعد وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧م، انقسمت الإمبراطورية بين أبنائه، وتبدلت مواقف الأباطرة من التيارات المسيحية المختلفة. وفي النصف الثاني من القرن ظهر الإمبراطور ثيودوسيوس الأول، الذي اتخذ موقفًا أكثر حسمًا لصالح العقيدة النيقية.

وفي سنة ٣٨٠م أصدر مرسومًا جعل المسيحية النيقية المرتبطة بأسقف روما والإسكندرية معيار الإيمان المسيحي الرسمي للإمبراطورية، ثم جاءت إجراءات لاحقة حدّت من ممارسة الطقوس الوثنية وأضعفت المؤسسات الدينية القديمة. وبذلك دخلت المسيحية مرحلة جديدة لم تعد ديانة مضطهدة أو مجرد ديانة مسموح بها، بل أصبحت القوة الدينية الأساسية في الإمبراطورية الرومانية. وكانت بلاد الشام من أكثر المناطق التي ظهر فيها هذا التحول بوضوح.

المسيحية تغيّر وجه مدن الشام

مع انتشار المسيحية وتزايد نفوذ الكنيسة، بدأت الحياة الدينية في مدن الشام تتغير. ظهرت الكنائس والأديرة، وتحولت بعض المواقع المرتبطة بحياة يسوع والرسل إلى أماكن للحج، وازدادت أهمية المدن التي تضم مقرات الأساقفة. وأصبحت فلسطين بصورة خاصة مركزًا للحج المسيحي، بسبب ارتباطها بأحداث حياة يسوع وموته وقيامته وفق التقليد المسيحي.

وفي أورشليم شُيدت كنائس كبرى في عهد قسطنطين، ومن أشهرها كنيسة القيامة، التي ارتبطت بالمكان الذي اعتقد المسيحيون أنه شهد صلب المسيح ودفنه وقيامته. أما في سورية، فبرزت أنطاكية إلى جانب مدن أخرى، وبدأت حركة رهبانية واسعة ستترك أثرًا عميقًا في تاريخ المنطقة. لكن التحول لم يكن مجرد انتقال من دين إلى دين.

فالكثير من العناصر الثقافية والاجتماعية القديمة استمرت، بينما أعادت المسيحية تفسير بعضها أو استبدلت المؤسسات الدينية القديمة بمؤسسات جديدة. وفي الأرياف خصوصًا استمر وجود المعتقدات والممارسات القديمة مدة طويلة، ولذلك لم يكن تنصير بلاد الشام حدثًا وقع في سنة محددة، وإنما عملية طويلة امتدت قرونًا. ومن هنا نصل إلى واحدة من أكثر الظواهر تميزًا في مسيحية الشام الرهبنة. فبينما كانت الكنيسة تزداد قوة داخل المدن، خرج رجال ونساء إلى الصحارى والجبال والكهوف بحثًا عن حياة تقوم على الزهد والعبادة. وفي بلاد الشام ومصر ظهرت واحدة من أهم الحركات الرهبانية في التاريخ المسيحي، وكان لها تأثير هائل على المجتمع والدين والثقافة.

ومن أبرز وجوهها في الشام سمعان العمودي، الذي سيصبح واحدًا من أشهر نساك سورية، ويجسد مرحلة جديدة من تاريخ المسيحية الشامية.

الرهبنة في بلاد الشام

مع انتشار المسيحية وتحولها إلى دين معترف به ثم إلى الدين الغالب في الإمبراطورية، تغيرت طبيعة الحياة الدينية لدى المسيحيين. فبعد أن كان الاستشهاد في سبيل الإيمان من أبرز صور التقوى خلال فترات الاضطهاد، ظهرت صورة أخرى للتفرغ الديني، تمثلت في النسك والرهبنة.

بدأ بعض المسيحيين بالابتعاد عن المدن والمجتمع، والعيش في الصحارى والجبال والكهوف، بحثًا عن حياة تقوم على الصلاة والصوم والزهد والتفرغ للعبادة. وكانت مصر من أهم مواطن الرهبنة المبكرة، لكن الحركة انتقلت سريعًا إلى بلاد الشام، ولا سيما إلى المناطق الصحراوية والجبلية في سورية وفلسطين. ولم تكن الرهبنة نوعًا واحدًا؛ فمن النساك من عاش منفردًا، ومنهم من اجتمع مع غيره في جماعات منظمة داخل الأديرة. ومع مرور الزمن أصبحت الأديرة مؤسسات دينية واجتماعية لها أراضٍ ومرافق وأعمال زراعية، وأصبحت مراكز للعبادة والتعليم ونسخ الكتب.

سمعان العمودي

ومن أشهر نساك سورية سمعان العمودي، الذي عاش في القرن الخامس الميلادي. وُلد سمعان في شمال بلاد الشام، واتجه منذ شبابه إلى حياة شديدة الزهد. ثم ارتبط بأسلوب نسكي أصبح مشهورًا في المسيحية الشرقية، إذ عاش سنوات طويلة فوق عمود، ومن هنا جاءت تسميته العمودي.

كان يقضي معظم وقته في الصلاة والتأمل، وأصبح الناس يقصدونه من مناطق مختلفة طلبًا للنصيحة والبركة. وبعد وفاته أصبح موضعه مقصدًا للحجاج، وشُيد بالقرب منه مجمع ديني ضخم عُرف لاحقًا باسم دير سمعان

في شمال سورية. لكن أهمية سمعان لا تكمن في غرابة أسلوب حياته فقط؛ بل في أنه يمثل ظاهرة أوسع انتشرت في سورية، وهي انتقال الزهد من ممارسة فردية إلى ظاهرة اجتماعية ودينية واسعة.

وانتشرت الأديرة والنساك في مناطق عديدة من بلاد الشام، وأصبح بعضهم يتمتع بنفوذ كبير لدى السكان وحتى لدى الحكام.

الأديرة والريف الشامي

ساهمت الرهبنة في انتشار المسيحية خارج المدن. فالأديرة لم تكن مجرد أماكن يعيش فيها الرهبان، بل أصبحت في بعض المناطق مراكز للاستقرار والعمل الزراعي والتعليم والرعاية الاجتماعية.

وكان الراهب قد يتحول إلى شخصية معروفة في القرى المحيطة، فيقصده السكان للاستشارة أو العلاج أو طلب المساعدة.

وبذلك أصبحت المسيحية أكثر حضورًا في الحياة اليومية لسكان الريف. ومع ذلك، لم تختفِ المعتقدات القديمة بسرعة.

ففي بعض مناطق بلاد الشام استمرت طقوس وعادات ذات جذور وثنية إلى جانب المسيحية، وأحيانًا اندمجت بعض العادات الشعبية القديمة في الممارسات الاجتماعية الجديدة.

ولهذا فإن تنصير بلاد الشام كان تدريجيًا وغير متساوٍ؛ فقد كانت بعض المدن مسيحية بدرجة كبيرة، بينما احتفظت بعض المناطق الريفية بممارسات دينية قديمة لفترة أطول.

الصراع حول العقيدة

وفي الوقت الذي كانت فيه المسيحية تنتشر بين السكان، كانت الكنائس نفسها تدخل في واحدة من أعقد مراحل تاريخها. فبعد أن حسم مجمع نيقية مسألة علاقة الابن بالآب، ظهرت قضية أخرى أكثر تعقيدًا كيف نفهم طبيعة المسيح نفسه؟ هل هو إله وإنسان في الوقت نفسه؟ وكيف تجتمع الطبيعتان؟ وهل يمكن القول إن له طبيعة واحدة أم طبيعتين؟

هذه الأسئلة لم تكن مجرد نقاشات فلسفية، بل أصبحت سببًا في انقسامات كنسية عميقة، وكان لأساقفة أنطاكية والإسكندرية وروما والقسطنطينية أدوار رئيسية فيها.

وفي بلاد الشام ظهر تيار لاهوتي قوي ارتبط بمدرسة أنطاكية، وكان يميل إلى التشديد على التمييز بين الطبيعة الإلهية والطبيعة الإنسانية في المسيح، بينما كانت مدرسة الإسكندرية أكثر ميلًا إلى التأكيد على وحدة المسيح.

ومع الوقت أصبح الخلاف مرتبطًا أيضًا بالصراع على النفوذ بين الكراسي الكنسية الكبرى.

مجمع أفسس

بلغ الخلاف مرحلة مهمة في القرن الخامس، عندما انعقد مجمع أفسس سنة ٤٣١م. وكان من أبرز أطراف الصراع نستورية، الذي أصبح لاحقًا مرتبطًا بالتيار المعروف باسم النسطورية، وإن كان وصف أتباعه بهذه التسمية يحتاج إلى شيء من الحذر التاريخي. كان الخلاف يدور بصورة خاصة حول لقب والدة الإله أو ثيوطوكوس الذي أُطلق على مريم.

رفض نسطور استخدام اللقب بهذه الصورة، خشية أن يؤدي إلى الخلط بين الطبيعة الإلهية والطبيعة الإنسانية للمسيح، بينما رأى خصومه أن رفض اللقب يهدد وحدة شخص المسيح. وانتهى المجمع إلى إدانة نسطور وتأكيد استخدام لقب والدة الإله لمريم. لكن الخلاف لم ينتهِ. بل انتقل بعد سنوات إلى مرحلة أكثر حدة.

مجمع خلقيدونية

في سنة ٤٥١م انعقد مجمع خلقيدونية قرب القسطنطينية، وأصدر تعريفًا عقائديًا مهمًا أكد أن المسيح واحد، وأنه يُعرف في طبيعتين، إلهية وإنسانية، دون اختلاط أو تغيير أو انقسام أو انفصال.

قبلت هذا التعريف الكنائس التي ستصبح لاحقًا جزءًا من التقليد البيزنطي والكاثوليكي، لكن عددًا من الكنائس الشرقية رفضه. وكان لهذا الرفض أثر هائل في بلاد الشام. فقد انقسم المسيحيون في المنطقة بين اتجاهات مختلفة، وظهرت كنائس وتقاليد ستستمر قرونًا طويلة.

ومن أهم هذه الكنائس الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، التي ارتبطت بالتقليد السرياني وبالمسيحيين الذين رفضوا صيغة خلقيدونية.

وبذلك لم تعد بلاد الشام مجرد مركز لنشر المسيحية، بل أصبحت أيضًا أحد أهم ميادين الانقسام داخل العالم المسيحي.

سورية بين أنطاكية والأديرة

أصبحت سورية في القرنين الخامس والسادس من أغنى مناطق العالم المسيحي من حيث الأديرة والكنائس والنشاط اللاهوتي.

وكانت أنطاكية مركزًا حضريًا كبيرًا، بينما انتشرت الأديرة والنساك في الريف والجبال. كما ازدهرت مناطق كاملة بالكنائس، ولا سيما ما يعرف اليوم باسم المدن الميتة في شمال سورية، حيث تكشف الآثار عن شبكة واسعة من القرى والمزارع والكنائس والأديرة التي ازدهرت خلال العصر الروماني المتأخر والبيزنطي.

وهذه الآثار مهمة جدًا لأنها تُظهر أن المسيحية لم تكن ظاهرة مدينية فقط؛ بل أصبحت جزءًا من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للريف الشامي أيضًا.

لكن الخلافات العقائدية لم تكن قد انتهت، بل ستتداخل في المرحلة التالية مع السياسة الإمبراطورية والصراع بين البيزنطيين والفرس، ثم مع الحدث الذي سيغير وجه بلاد الشام بالكامل الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي.

وهنا سنصل إلى المرحلة التي يصبح فيها السؤال أكثر تعقيدًا ماذا حدث للمسيحيين في بلاد الشام عندما انتقلت المنطقة من الحكم البيزنطي إلى الحكم الإسلامي؟ وكيف تعامل المسلمون الأوائل مع الكنائس والطوائف المسيحية المختلفة؟ وكيف بقيت المسيحية حاضرة في دمشق وأنطاكية والقدس وسائر مدن الشام؟

المسيحية في بلاد الشام قبيل الفتح الإسلامي

مع بداية القرن السابع الميلادي كانت بلاد الشام جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية، وكانت المسيحية قد أصبحت الدين الغالب في معظم مدنها، لكن المسيحيين أنفسهم لم يكونوا جماعة واحدة.

فبعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، انقسمت الكنائس في المنطقة بصورة عميقة. وكانت الإمبراطورية البيزنطية تميل إلى دعم العقيدة الخلقيدونية، في

حين حافظ عدد كبير من المسيحيين السوريين على تقاليدهم اللاخلقيدونية، ولا سيما أتباع الكنيسة السريانية. وهكذا كانت سورية وفلسطين تضم جماعات مسيحية متعددة، بينها اختلافات عقائدية وكنسية واضحة.

ولم يكن الخلاف دينيًا مجردًا؛ فقد تدخلت السلطة الإمبراطورية في تعيين الأساقفة ومحاولة فرض الوحدة العقائدية، مما أدى أحيانًا إلى اضطهاد أو عزل رجال دين من التيارات المخالفة.

وكانت أنطاكية مركزًا مهمًا للخلقيدونيين، بينما حافظت جماعات سريانية واسعة على استقلالها الكنسي، خصوصًا في المناطق الداخلية والشمالية من سورية. ثم جاءت الحرب بين البيزنطيين والفرس الساسانيين لتزيد أوضاع المنطقة اضطرابًا.

الحرب الفارسية البيزنطية

في بداية القرن السابع شنّ الفرس الساسانيون هجومًا واسعًا على الأراضي البيزنطية، وتمكنوا من السيطرة على سورية وفلسطين ومصر لفترة من الزمن. وسقطت القدس في يد الفرس سنة ٦١٤م، ثم استعاد الإمبراطور البيزنطي هرقل الأراضي التي فقدتها الإمبراطورية خلال العقد التالي.

لكن الحروب أضعفت الدولة البيزنطية واستنزفت مواردها، وكانت بلاد الشام قد خرجت من الصراع وهي تعاني اضطرابات سياسية واقتصادية. وبعد سنوات قليلة ظهر عامل جديد في المنطقة.

كان العرب المسلمون قد أسسوا دولة جديدة في شبه الجزيرة العربية، وبعد وفاة النبي محمد سنة ٦٣٢م بدأت الدولة الإسلامية بالتوسع خارج الجزيرة. وكانت بلاد الشام أولى المناطق الكبرى التي اتجه إليها هذا التوسع.

فتح بلاد الشام

بدأت الجيوش الإسلامية حملاتها على بلاد الشام في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، ثم استمر التوسع في عهد عمر بن الخطاب. دخلت الجيوش الإسلامية مناطق فلسطين والأردن وسورية، ووقعت عدة معارك حاسمة مع البيزنطيين.

وكان أبرزها معركة اليرموك سنة ٦٣٦م، التي انتهت بانتصار المسلمين على الجيش البيزنطي، وأصبحت بعدها سيطرة البيزنطيين على معظم بلاد الشام غير قابلة للاستعادة. ثم دخلت مدن المنطقة تباعًا في الحكم الإسلامي، ومن بينها دمشق التي أصبحت لاحقًا عاصمة الدولة الأموية.

لكن الانتقال من الحكم البيزنطي إلى الحكم الإسلامي لم يكن مجرد تبديل للسلطة السياسية؛ فقد دخلت بلاد الشام مرحلة دينية واجتماعية جديدة استمرت فيها المسيحية، ولكن داخل دولة ذات أغلبية مسلمة آخذة في التشكل.

المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي

لم يختفِ المسيحيون بعد الفتح. بل بقيت جماعات مسيحية كبيرة في مدن وقرى كثيرة، واستمرت الكنائس والأديرة في العمل بدرجات مختلفة بحسب المكان والفترة والسلطة الحاكمة. وكان المسيحيون من أهل الكتاب، ولذلك احتلوا وضعًا قانونيًا مميزًا مقارنة بالجماعات الوثنية التي كانت تواجه أحكامًا مختلفة. وفي مقابل الحماية التي وفرتها الدولة لهم، ارتبط وضع غير المسلمين بنظام الجزية، مع اختلاف تطبيق هذا النظام عبر العصور والمناطق. ولم يكن التحول الديموغرافي من المسيحية إلى الإسلام فوريًا.

ففي القرون الأولى بعد الفتح ظل المسيحيون يشكلون نسبة كبيرة من سكان بلاد الشام، واستمرت لغاتهم وتقاليدهم وكنائسهم. بل إن اللغة العربية نفسها انتشرت تدريجيًا بين المسيحيين كما انتشرت بين المسلمين، وأصبح المسيحيون العرب جزءًا مهمًا من الثقافة العربية في العصور الإسلامية اللاحقة.

دمشق

كان لدمشق وضع خاص. فبعد أن أصبحت عاصمة الدولة الأموية في القرن الثامن، تحولت إلى واحدة من أهم مدن العالم الإسلامي.

وكان فيها مجتمع مسيحي قديم، ومن أبرز معالم وجوده كنيسة يوحنا المعمدان، التي كانت تقع في المنطقة التي سيقام فيها المسجد الأموي لاحقًا.

وتروي المصادر أن الموقع كان مستخدمًا من المسيحيين، ثم أصبح في العصر الأموي جزءًا من مشروع المسجد الكبير.

وقد بقيت للمسيحيين كنائس في دمشق، واستمرت الجماعات المسيحية المختلفة في المدينة. وهكذا أصبحت دمشق مثالًا واضحًا على التعايش والتنافس والتحول الديني الذي شهدته بلاد الشام خلال القرون الإسلامية الأولى.

أنطاكية بعد الفتح

أما أنطاكية، التي كانت لقرون أحد أعظم مراكز المسيحية في الشرق، فقد فقدت جزءًا كبيرًا من مكانتها السياسية بعد انتقال المنطقة إلى الحكم الإسلامي، لكنها لم تفقد أهميتها الدينية فورًا.

استمر فيها وجود مسيحي قوي، وظلت مرتبطة بالتقاليد الكنسية السريانية والبيزنطية. لكن المدينة تعرضت لاحقًا للحروب والزلازل وتغير طرق التجارة والصراعات بين القوى الإقليمية، فتراجع نفوذها تدريجيًا مقارنة بما كانت عليه في العصرين الروماني والبيزنطي. ومع ذلك بقي اسم كرسي أنطاكية واحدًا من أهم الأسماء في تاريخ المسيحية الشرقية.

المسيحية العربية

ومع مرور القرون، لم تعد المسيحية في بلاد الشام مرتبطة باليونانية أو السريانية فقط. فقد ظهرت طبقة من المسيحيين الناطقين بالعربية، وبدأ علماء ورجال دين مسيحيون يكتبون بالعربية، ويناقشون العقائد المسيحية مع المسلمين، ويترجمون النصوص الدينية والفلسفية.

وفي العصر العباسي خصوصًا برز عدد من المسيحيين في الطب والفلسفة والترجمة والإدارة. وكان هذا استمرارًا لدور قديم للمسيحيين في الحياة الثقافية للمنطقة، لكنه أخذ شكلًا جديدًا داخل الحضارة الإسلامية.

وهكذا لم تنتهِ قصة المسيحية في بلاد الشام بالفتح الإسلامي، وإنما تغيرت البيئة السياسية والدينية التي عاشت فيها.

فمن جماعة صغيرة ظهرت في يهودا والجليل، أصبحت المسيحية خلال بضعة قرون دينًا واسع الانتشار، ثم أصبحت جزءًا أساسيًا من هوية بلاد الشام، وشهدت المنطقة فيها نشوء الكنائس والمدارس اللاهوتية والرهبنة والانقسامات الكبرى، ثم استمرت هذه الكنائس بعد دخول المنطقة في الدولة الإسلامية.

الكنائس والطوائف المسيحية في بلاد الشام

لم تكن الانقسامات المسيحية في بلاد الشام وليدة العصر الحديث، بل تعود جذورها إلى الخلافات اللاهوتية التي ظهرت في القرون الأولى للمسيحية. وكان مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م أحد أهم الأحداث التي قسمت المسيحيين في المشرق. ومنذ ذلك الوقت أخذت تظهر في المنطقة تقاليد كنسية مختلفة، ثم ازدادت هذه الاختلافات تعقيدًا مع مرور القرون، نتيجة الصراعات السياسية والاختلافات اللاهوتية وظهور علاقات جديدة بين الكنائس الشرقية وكنيسة روما.

الروم الأرثوذكس

يمثل الروم الأرثوذكس تقليدًا مسيحيًا شرقيًا ارتبط تاريخيًا بالكنيسة البيزنطية وببطريركية أنطاكية. وكانت اليونانية لغة مهمة في الحياة الكنسية والتعليم اللاهوتي، ولذلك ارتبط اسم الروم بالتراث البيزنطي، مع أن أتباع هذه الكنيسة في بلاد الشام أصبحوا في مراحل لاحقة من العرب الناطقين بالعربية.

وبقي بطريرك أنطاكية أحد أهم المراكز الروحية للمسيحية الشرقية، واستمرت له مكانة كبيرة في سورية ولبنان وفلسطين والأردن.

ومع انتشار العربية، أخذت العربية تحل تدريجيًا محل اليونانية في الحياة اليومية لدى كثير من أبناء الطائفة، بينما بقيت اليونانية حاضرة في التقليد الكنسي والصلوات بدرجات مختلفة. وهكذا أصبح الروم في بلاد الشام عربًا في لغتهم وثقافتهم اليومية، مع احتفاظهم بتراث كنسي يعود إلى العصر البيزنطي.

السريان الأرثوذكس

أما السريان الأرثوذكس فيرتبطون بالتقليد السرياني اللاخلقيدوني الذي رفض مقررات مجمع خلقيدونية. وكانت السريانية، وهي لغة أدبية آرامية، لغة أساسية في عبادتهم وكتاباتهم الدينية، وأنتجت كنيستهم تراثًا واسعًا في اللاهوت (العقيدة) والتفسير والتاريخ والأدب. ومن أبرز الشخصيات التي ارتبطت بتاريخهم يعقوب البرادعي في القرن السادس الميلادي، الذي ساهم في إعادة تنظيم الأساقفة والكهنة والجماعات اللاخلقيدونية في مناطق واسعة من المشرق، حتى أصبحت الكنيسة المرتبطة بهذا التقليد تعرف في المصادر باسم الكنيسة اليعقوبية، بينما تفضل الكنيسة نفسها اسم السريانية الأرثوذكسية. وكان وجودهم قويًا في مناطق من سورية، ولا سيما الجزيرة وشمال البلاد ومناطق قريبة من أنطاكية، كما امتد وجودهم إلى لبنان وفلسطين ومناطق أخرى. وقد حافظوا على السريانية بوصفها لغة دينية وثقافية، بينما أصبحت العربية اللغة اليومية لغالبية أتباعهم مع مرور الزمن.

السريان الكاثوليك

ظهر السريان الكاثوليك في سياق مختلف وأحدث بكثير. فهم يرتبطون بالتقاليد السريانية نفسها، لكنهم دخلوا في شركة مع الكنيسة الكاثوليكية، وتبلورت كنيستهم المستقلة تدريجيًا خلال العصر الحديث. وهكذا لا ينبغي وضع السريان الكاثوليك والسريان الأرثوذكس في خانة واحدة لمجرد اشتراكهما في التراث السرياني؛ فلكل منهما تنظيم كنسي وعلاقة مختلفة بالكنائس الأخرى. وبقي للسريان الكاثوليك وجود في بلاد الشام، ولا سيما في سورية ولبنان، مع استمرار استخدام السريانية في الطقوس إلى جانب العربية.

الموارنة

ومن أهم الكنائس التي ارتبط تاريخها بلبنان الكنيسة المارونية. تعود جذور الموارنة إلى حركة رهبانية نشأت حول تقليد القديس مارون، الذي عاش في أواخر القرن الرابع وبدايات القرن الخامس، ثم تطورت جماعته وانتقلت إلى مناطق مختلفة من بلاد الشام. ومع مرور الوقت أصبح لبنان الجبل مركزًا أساسيًا للموارنة، وأسهمت طبيعة المنطقة الجبلية في توفير ملاذ نسبي للجماعات المسيحية خلال فترات الصراع السياسي والديني.

وترتبط الكنيسة المارونية اليوم بالكنيسة الكاثوليكية في شركة كاملة، لكن هذه العلاقة تطورت تاريخيًا عبر مراحل طويلة، ولا يصح إسقاط شكلها الحالي بصورة مباشرة على بدايات الحركة المارونية.

وحافظ الموارنة على تقليد ليتورجي سرياني غربي، بينما أصبحت العربية اللغة الأساسية للحياة اليومية لدى معظمهم.

الروم الكاثوليك

ظهرت كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك في القرن الثامن عشر نتيجة الانقسام داخل بطريركية أنطاكية للروم الملكيين، عندما انقسمت جماعات من المسيحيين إلى اتجاه مؤيد للشركة مع روما وآخر بقي ضمن الكنيسة الأرثوذكسية. ويُعرف أتباع هذا التقليد اليوم باسم الروم الكاثوليك أو الملكيين الكاثوليك. وكان وجودهم مهمًا في سورية ولبنان وفلسطين، ولا سيما في المدن والمناطق التي عرفت تاريخيًا حضورًا قويًا للمسيحية العربية.

وتميزوا باحتفاظهم بالطقس البيزنطي، رغم ارتباطهم بالكنيسة الكاثوليكية.

وهذا يوضح أن الكاثوليكي والأرثوذكسي لا يعنيان دائمًا اختلافًا في الطقس؛ فقد توجد كنائس كاثوليكية تستخدم الطقس البيزنطي نفسه الذي تستخدمه كنائس أرثوذكسية شرقية.

الأرمن في بلاد الشام

أما الأرمن فقد كان لهم حضور مسيحي مهم في بلاد الشام، وخصوصًا في سورية ولبنان وفلسطين. وتعود جذور المسيحية الأرمنية إلى تحول مملكة أرمينيا إلى المسيحية في بداية القرن الرابع، لتصبح من أقدم الدول التي تبنت المسيحية على مستوى الدولة.

وتتبع الكنيسة الأرمنية الرسولية التقليد الشرقي اللاخلقيدوني، ولذلك فهي تشترك في بعض الجذور العقائدية والتاريخية مع الكنيسة السريانية الأرثوذكسية والكنيسة القبطية وغيرها من الكنائس الأرثوذكسية المشرقية.

ومع مرور الزمن، وخصوصًا نتيجة الحروب والهجرات التي شهدتها المنطقة، ازداد وجود الأرمن في مدن بلاد الشام، وأصبحت لهم أحياء ومؤسسات ومدارس وكنائس خاصة بهم. وكان حلب من أهم المراكز الأرمنية في بلاد الشام، إلى جانب بيروت ودمشق والقدس وغيرها.

كنائس أخرى في بلاد الشام

ولم يقتصر التنوع المسيحي على هذه الكنائس. فقد عرفت بلاد الشام أيضًا وجود جماعات تتبع الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية، والكنيسة السريانية الكاثوليكية، والكنيسة اللاتينية الكاثوليكية، إلى جانب كنائس بروتستانتية ظهرت في المنطقة خلال العصر الحديث.

كما ارتبطت القدس بصورة خاصة بوجود عدد كبير من الكنائس والجماعات المسيحية، بسبب مكانتها باعتبارها المدينة التي شهدت، وفق الإيمان المسيحي، أحداث صلب المسيح ودفنه وقيامته. وهكذا أصبحت بلاد الشام مع مرور القرون واحدة من أكثر مناطق العالم المسيحي تنوعًا.

لماذا بقي هذا التنوع؟ لم يكن السبب دينيًا فقط.

فالجغرافيا والسياسة كانتا مهمتين أيضًا. فالجبال، مثل جبال لبنان ومناطق شمال سورية، ساعدت بعض الجماعات على الحفاظ على استقلالها وتقاليدها. أما المدن الكبرى مثل دمشق وحلب وبيروت والقدس فكانت مراكز للتجارة والثقافة والحياة الكنسية، ولذلك اجتمعت فيها جماعات مسيحية متعددة.

كما أن ارتباط بعض الكنائس بالإمبراطوريات والقوى الخارجية أدى أحيانًا إلى زيادة الانقسام، بينما ساعدت الهجرات والحروب في نقل جماعات مسيحية من منطقة إلى أخرى.

ولهذا فإن الخريطة المسيحية الحالية لبلاد الشام هي نتيجة قرون طويلة من الانقسامات والهجرات والتحولات السياسية واللغوية، وليست انعكاسًا مباشرًا لخلاف واحد حدث في القرن الخامس.

من دين واحد إلى فسيفساء كنسية

وهكذا بدأت المسيحية في القرن الأول كحركة خرجت من البيئة اليهودية في فلسطين، ثم انتشرت في مدن الشام والعالم الروماني، وتحولت بعد قسطنطين إلى دين واسع النفوذ. لكنها لم تبقَ موحدة.

فمن أورشليم ودمشق وأنطاكية خرجت الجماعات الأولى، ومن أنطاكية خصوصًا نشأت تقاليد لاهوتية وكنسية كان لها تأثير عميق في المسيحية

الشرقية. ثم جاءت المجامع والخلافات العقائدية، فظهرت خطوط الانقسام التي ستتحول مع الزمن إلى كنائس مستقلة. وبقيت هذه الكنائس، رغم تغير الدول واللغات والحكام، جزءًا من تاريخ بلاد الشام حتى العصر الحديث.

لكن قصة المسيحية الشامية لا تكتمل بالحديث عن الكنائس وحدها. فهناك جانب آخر شديد الأهمية كيف عاش المسيحيون فعلًا؟ ماذا كانوا يعبدون؟ كيف كانت صلواتهم وأعيادهم وصيامهم وزواجهم ودفن موتاهم؟ وما هي أهم رموزهم وكتبهم وأماكنهم المقدسة؟

الحياة الدينية للمسيحيين في بلاد الشام

لم تكن المسيحية بالنسبة إلى سكان بلاد الشام مجرد عقيدة يؤمن بها الإنسان، بل أصبحت مع مرور الوقت نظامًا دينيًا واجتماعيًا يدخل في تفاصيل الحياة اليومية، من الولادة والتعميد إلى الزواج والموت، ومن الصيام والأعياد إلى الصلاة وزيارة الأماكن المقدسة. وكانت تفاصيل هذه الحياة تختلف بين الكنائس والطوائف، لكن عددًا من الممارسات الأساسية اشترك فيها معظم المسيحيين.

المعمودية

كانت المعمودية من أهم الطقوس المسيحية، لأنها تمثل دخول الإنسان في الجماعة المسيحية. وكانت تتم بالماء، وترتبط بفكرة التوبة وغفران الخطايا والولادة الروحية الجديدة. وفي الكنائس الأولى كان الشخص البالغ يستطيع أن يتلقى المعمودية بعد فترة من التعليم والاستعداد، ثم أصبح تعميد الأطفال ممارسة واسعة الانتشار في معظم التقاليد المسيحية. وكانت المعمودية تتم في الكنائس أو في أماكن مخصصة لها، وأحيانًا في المياه الجارية،

مستحضرةً في ذلك التقليد المسيحي المرتبط بمعمودية يسوع على يد يوحنا المعمدان في نهر الأردن. ولهذا اكتسب نهر الأردن مكانة دينية خاصة لدى المسيحيين، وأصبح عبر القرون مقصدًا للحجاج.

الصلاة والقداس

كانت الصلاة جزءًا أساسيًا من حياة المسيحي، سواء الصلاة الفردية أو الصلاة الجماعية. أما العبادة الجماعية فكانت تتمحور حول القداس، الذي تختلف تفاصيله بين التقاليد الكنسية، لكنه يتضمن عادةً قراءة النصوص المقدسة، والترانيم والصلوات، ثم الاحتفال بالإفخارستيا.

وتقوم الإفخارستيا على الخبز والخمر بوصفهما مرتبطين بجسد المسيح ودمه وفق الإيمان المسيحي.

وكانت الكنائس في بلاد الشام تستخدم لغات متعددة بحسب الجماعة والمرحلة التاريخية، من أبرزها اليونانية والسريانية والعربية، بينما بقيت بعض اللغات حاضرة في الطقوس حتى بعد تحول لغة الحياة اليومية.

الكتاب المقدس

احتل الكتاب المقدس مكانة مركزية في الحياة المسيحية. ويتكون الكتاب المقدس المسيحي من قسمين رئيسيين

العهد القديم، الذي يشترك في جزء كبير من كتبه مع الكتاب المقدس اليهودي، وإن كانت الكنائس تختلف في ترتيب الكتب وعدد بعضها.

والعهد الجديد، الذي يضم الأناجيل الأربعة، وأعمال الرسل، والرسائل، وسفر الرؤيا.

وتروي الأناجيل حياة يسوع وتعاليمه وموته وقيامته وفق الإيمان المسيحي، بينما تقدم أعمال الرسل صورة عن الجماعة المسيحية الأولى وانتشار الدعوة، وتضم الرسائل تعاليم ومناقشات موجهة إلى جماعات مسيحية مختلفة. وفي بلاد الشام كان للترجمة السريانية أهمية خاصة، وظهرت ترجمات ونصوص مسيحية سريانية مبكرة، من بينها تقاليد ارتبطت لاحقًا بما يعرف باسم البشيطة.

ومع انتشار العربية أصبحت الترجمات العربية للكتاب المقدس أكثر أهمية، خصوصًا في العصور الإسلامية.

الصوم

عرف المسيحيون عددًا من فترات الصيام، وكان أهمها الصوم الكبير الذي يسبق عيد القيامة. وتختلف مدته وتفاصيله بين الكنائس، لكن فكرته الأساسية ترتبط بالتوبة والزهد والاستعداد الروحي لعيد القيامة، واستحضار فترة صيام المسيح في البرية.

وكان الصيام في التقاليد القديمة أكثر تشددًا في بعض المناطق مما هو عليه في كثير من الممارسات الحديثة، إذ لم يكن يقتصر دائمًا على الامتناع عن نوع معين من الطعام، بل قد يشمل الامتناع عن الطعام خلال ساعات معينة ثم تناول وجبة محددة.

كما عرفت الكنائس صيامات أخرى مرتبطة بأعياد ومناسبات مختلفة.

عيد الميلاد (الكريسماس)

يحتفل المسيحيون بـميلاد يسوع المسيح في عيد الميلاد. لكن تاريخ الاحتفال لم يكن موحدًا منذ بدايات المسيحية، كما أن الاحتفال بعيد الميلاد في ٢٥ ديسمبر تبلور في القرون اللاحقة، بينما تحتفل بعض الكنائس الشرقية بتاريخ مختلف نتيجة اختلاف التقويمات والتقاليد الكنسية.

وفي بلاد الشام ارتبط عيد الميلاد بطقوس وصلوات واحتفالات تختلف من طائفة إلى أخرى، لكنه بقي واحدًا من أهم أعياد المسيحيين.

عيد القيامة

أما عيد القيامة فهو أهم أعياد المسيحية. فالإيمان بقيامة المسيح من الموت يمثل جوهرًا أساسيًا في العقيدة المسيحية، ولذلك ارتبط العيد بطقوس طويلة تبدأ بفترة الصوم وتنتهي بالاحتفال بالقيامة. وتحتل القدس مكانة خاصة في هذه المناسبة، إذ يقصدها الحجاج المسيحيون لزيارة الأماكن المرتبطة بآلام المسيح وصلبه ودفنه وقيامته وفق التقليد المسيحي.

مريم العذراء

احتلت مريم العذراء مكانة كبيرة في المسيحية، وازدادت أهمية تكريمها بصورة خاصة بعد النقاشات اللاهوتية (العقائدية) في القرون الأولى.

وكان مجمع أفسس سنة ٤٣١م محطة مهمة في هذا التاريخ، عندما أقر استخدام لقب ثيوطوكوس، الذي يُترجم عادةً إلى والدة الإله، في إشارة إلى أن الذي ولدته مريم هو المسيح الذي يؤمن المسيحيون بألوهيته. وأصبحت مريم شخصية مركزية في الصلاة والفن والاحتفالات المسيحية، وظهرت

صورها وتماثيلها في الكنائس وفق تقاليد مختلفة. وفي بلاد الشام ارتبط بها عدد كبير من الكنائس والأديرة والمزارات.

القديسون والشهداء

مع انتهاء عصر الاضطهادات الكبرى، لم تختفِ فكرة البطولة الدينية المرتبطة بالموت في سبيل الإيمان. بل تحولت ذكرى الشهداء إلى جزء أساسي من الحياة المسيحية. كان المسيحيون يحتفظون بذكريات الشهداء، ويحتفلون بأيام وفاتهم بوصفها مناسبات دينية، وأصبحت بعض قبورهم ومواقع استشهادهم أماكن للزيارة.

ثم توسع مفهوم القداسة ليشمل الرهبان والنساك والأساقفة وغيرهم من الشخصيات التي اعتُبرت نماذج للإيمان والزهد. ولهذا امتلأت بلاد الشام بأسماء القديسين، وأصبحت بعض المدن والمناطق مرتبطة بشخصيات دينية محددة. ومن أشهر الأمثلة سمعان العمودي في شمال سورية، الذي تحولت منطقة نسكه إلى مركز ديني كبير قلعة سمعان و تعرف أيضاً باسم دير سمعان في جبل سمعان شمال غربي حلب.

الأيقونات والصور المقدسة

استخدمت الكنائس المسيحية الصور والرموز للتعبير عن الشخصيات والأحداث المقدسة، لكن موقف المسيحيين من الصور لم يكن دائمًا واحدًا.

وفي الإمبراطورية البيزنطية اندلع في القرنين الثامن والتاسع خلاف كبير عُرف باسم تحطيم الأيقونات، دار حول مشروعية تكريم الصور الدينية واستخدامها في العبادة. لكن في النهاية انتصر الاتجاه المؤيد لتكريم الأيقونات، مع التأكيد على التمييز بين تكريم الصورة وبين عبادة الله.

وفي بلاد الشام ظهرت تقاليد فنية مسيحية مهمة، ولا سيما في الكنائس والأديرة، كما بقيت الفسيفساء والرسوم الجدارية التي عُثر عليها في مواقع عديدة شاهدًا على ازدهار الفن المسيحي في المنطقة.

الكنائس والأديرة

لم تكن الكنيسة مجرد مكان للصلاة. ففي المدن الكبرى أصبحت الكنائس مؤسسات دينية واجتماعية، بينما تحولت الأديرة في بعض المناطق إلى مراكز للزراعة والتعليم والنسخ والرعاية. وكان للأسقف دور يتجاوز الجانب الديني أحيانًا، فقد أصبح شخصية اجتماعية مهمة، يتوسط في النزاعات، ويرعى الفقراء، ويتعامل مع السلطات.

أما الأديرة فكانت تحفظ الكتب وتنتج المخطوطات، وكان الرهبان ينسخون النصوص الدينية ويترجمونها، مما ساهم في حفظ جزء كبير من التراث المسيحي القديم.

وهنا يظهر دور بلاد الشام في تاريخ الثقافة المسيحية بصورة واضحة؛ فقد كانت المنطقة جسرًا بين التراث اليوناني والآرامي والسرياني والعربي.

من التعاليم الشفهية إلى الأناجيل

لم يترك يسوع المسيح، بحسب ما وصل إلينا من المصادر، كتابًا مكتوبًا بيده يحمل اسم «الإنجيل»، ولم يكن الإنجيل في بدايات المسيحية كتابًا واحدًا نزل عليه ثم انتقل إلى أتباعه. عاش يسوع في البيئة اليهودية في القرن الأول الميلادي، وكان يستند في تعاليمه إلى الكتب المقدسة اليهودية التي كانت موجودة قبله، بينما انتقلت تعاليمه وأقواله وأمثاله وأخبار أعماله في البداية

بين أتباعه بصورة شفوية، إلى جانب رواية الأحداث المرتبطة بحياته وموته وقيامته بحسب الإيمان المسيحي.

ومع انتشار الجماعات المسيحية الأولى، بدأت هذه التقاليد الشفهية تُدوَّن، فظهرت كتابات متعددة تتناول حياة يسوع وتعاليمه ورسالته. ولم يكن الأمر أن كل واحد من أتباعه قرر أن يكتب إنجيلًا خاصًا به، وإنما نشأت روايات وتقاليد مكتوبة متعددة، بعضها وصل إلينا وبعضها لم يصل، وبعضها حمل لاحقًا أسماء شخصيات مسيحية معروفة.

ومن بين هذه الكتابات برزت أربعة أناجيل أصبحت لاحقًا جزءًا من العهد الجديد، وهي إنجيل متّى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا. وهذه الأناجيل ليست أربعة كتب أعطاها يسوع لأتباعه، بل أربعة كتب تروي حياته وتعاليمه ورسالته من خلال تقاليد ووجهات نظر مختلفة. ولهذا نجد بينها تشابهًا كبيرًا في كثير من الأحداث والأقوال، مع اختلاف في ترتيب بعض الأحداث وفي التفاصيل وطريقة عرض شخصية يسوع ورسالته.
ويُرجّح تاريخيًا أن إنجيل مرقس هو الأقدم بينها، ثم جاءت بعده روايتا متّى ولوقا، بينما يُعد إنجيل يوحنا مختلفًا في أسلوبه وبنيته عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، مع استمرار النقاش العلمي حول تواريخ التأليف وبعض تفاصيل نشأتها.

كما ظهرت في القرون المسيحية الأولى كتابات أخرى عُرفت بأسماء مثل إنجيل توما وإنجيل بطرس وإنجيل يهوذا وغيرها، لكنها لم تدخل ضمن الأناجيل الأربعة التي استقرت في العهد الجديد. ومع تطور التقليد الكنسي، أصبحت الأناجيل الأربعة هي النصوص الإنجيلية القانونية المعتمدة، بينما بقيت كتابات أخرى خارج القانون الكنسي.

ومن هنا ينبغي التمييز بين الإنجيل والأناجيل فالإنجيل في معناه العام هو البشارة أو الخبر السار، وأصبح في المسيحية يدل على الرسالة المتعلقة بيسوع المسيح، أما الأناجيل بالجمع فهي الكتب الأربعة التي تنقل هذه البشارة وتروي حياة يسوع وتعاليمه. وهكذا لم يبدأ تاريخ المسيحية بكتاب واحد مكتوب تركه يسوع، وإنما بدأت الدعوة بتعاليمه وتقاليده التي تناقلها أتباعه، ثم دُوّنت في روايات وكتابات متعددة، قبل أن يستقر التقليد المسيحي على أربعة أناجيل ضمن العهد الجديد.

النبوءات والرؤى الأخروية في المسيحية

احتلت النبوءة والرؤى المتعلقة بالمستقبل مكانًا مهمًا في الفكر المسيحي منذ بداياته، وارتبط جانب كبير منها بفكرة نهاية الأزمنة، والمجيء الثاني للمسيح، وقيام الموتى، والدينونة. وقد حفظت الأناجيل أقوالًا ليسوع تتناول أحداثًا مستقبلية واضطرابات وحروبًا وظهور علامات تسبق نهاية الأزمنة.

وتظهر أبرز هذه الأقوال في ما يعرف بالخطاب الأخروي في إنجيل متى

٢٤–٢٥، حيث تحدث يسوع عن خراب الهيكل، والحروب والأخبار عن الحروب، والاضطرابات، وظهور علامات مرتبطة بنهاية العصر، ثم تحدث عن مجيء ابن الإنسان والدينونة. وتظهر موضوعات قريبة من ذلك في مرقس ١٣ ولوقا ٢١، حيث تتكرر الإشارة إلى الحروب والاضطهادات والاضطرابات الكونية، وإلى مجيء ابن الإنسان في نهاية الأزمنة. وتضم هذه النصوص كذلك دعوة إلى اليقظة والاستعداد، لأن زمن النهاية لا يُقدَّم بوصفه موعدًا يمكن للإنسان تحديده بسهولة. ويرتبط بهذه النصوص الاعتقاد المسيحي بـ المجيء الثاني للمسيح، أي عودة المسيح في نهاية الأزمنة، وما يتبع ذلك من قيامة الموتى والدينونة. وقد أصبح هذا الاعتقاد جزءًا أساسيًا

من العقيدة المسيحية، وإن اختلفت الكنائس والتيارات المسيحية في تفسير بعض تفاصيل الأحداث السابقة للمجيء الثاني وتسلسلها.

ويُعد سفر رؤيا يوحنا أكثر النصوص المسيحية ارتباطًا بالرؤى الأخروية. ويقدم السفر سلسلة من الرؤى والرموز التي تتناول الصراع بين قوى الخير والشر، والدينونة، وسقوط القوى المعادية لله، ثم الوصول إلى النهاية التي يظهر فيها أورشليم الجديدة. وتبرز في السفر رموز عديدة، من بينها الأختام السبعة، والأبواق السبعة، والجامات السبعة، والوحش، والرقم ٦٦٦، والتنين، وهي رموز أثارت منذ العصور المسيحية الأولى تفسيرات متعددة.

ولا تُقرأ هذه النصوص اليوم بمعنى واحد؛ فقد اختلف المسيحيون في تفسير رموزها وفي تحديد المقصود بالأحداث والشخصيات الواردة فيها. وفي أزمنة مختلفة حاول بعض المفسرين ربط الوحش أو رقم ٦٦٦ أو علامات نهاية الأزمنة بأباطرة أو دول أو حروب أو أحداث سياسية معاصرة لهم. لذلك ينبغي التمييز بين النص النبوي والرؤيوي في سياقه التاريخي والديني الأول، وبين التأويلات التي أُسقطت عليه في عصور لاحقة.

وهكذا شكّلت النبوءات الأخروية جزءًا مهمًا من المسيحية منذ بداياتها، لا بوصفها أخبارًا عن المستقبل فحسب، بل باعتبارها خطابًا دينيًا عن مصير العالم، وعدالة الله، وقيامة الموتى، والدينونة، وانتصار الخير في النهاية. وبقيت هذه النصوص حاضرة في العقيدة والعبادة والفكر المسيحي، كما ظلت موضوعًا للتفسير والجدل عبر القرون.

المسيحية الشامية في العصر الحديث

مع دخول المنطقة في العصور الحديثة، استمرت الطوائف المسيحية القديمة، لكنها واجهت تحولات سياسية واجتماعية كبيرة.

أدت الإصلاحات العثمانية، والتدخل الأوروبي، والإرساليات التبشيرية، وظهور المدارس الحديثة والمطابع، إلى تغيرات عميقة في حياة المسيحيين.

وظهرت مدارس وجامعات ومطابع مسيحية، وأصبح للمسيحيين دور بارز في النهضة الثقافية العربية.

وفي بيروت ودمشق وحلب والقدس نشطت مؤسسات تعليمية وثقافية مسيحية، وأسهم عدد من المسيحيين في الصحافة والترجمة والأدب والتعليم.

وبذلك لم تعد المسيحية في بلاد الشام مجرد إرث ديني قديم، بل أصبحت جزءًا من الحياة الثقافية الحديثة للمنطقة.

من فلسطين إلى سورية ولبنان

إذا نظرنا إلى تاريخ المسيحية في بلاد الشام كله، نجد أن المنطقة احتفظت بمكانة استثنائية في الدين المسيحي.

ففي فلسطين ارتبطت أهم أحداث حياة يسوع، وأصبحت القدس مركزًا للحج.

وفي دمشق ارتبطت قصة تحول بولس، إحدى أكثر القصص تأثيرًا في تاريخ المسيحية.

وفي أنطاكية تشكلت جماعة مسيحية مبكرة أصبحت واحدة من أهم مراكز العالم المسيحي.

وفي لبنان تطورت تقاليد رهبانية وكنسية قوية، وكان للموارنة حضور تاريخي بارز.

وفي شمال سورية والجزيرة ازدهرت التقاليد السريانية والأديرة والكنائس.

وهكذا لا يمكن فهم تاريخ المسيحية من دون بلاد الشام؛ فالمنطقة لم تكن مجرد المكان الذي ظهرت فيه المسيحية، بل كانت واحدة من البيئات التي تشكلت فيها عقائدها وكنائسها ولغاتها وتراثها الرهباني.

القدس

كانت القدس أهم مدينة في المسيحية الأولى، إذ ارتبطت بها الأحداث التي شكّلت أساس الإيمان المسيحي دخول يسوع إلى المدينة، العشاء الأخير بحسب التقليد المسيحي، القبض عليه ومحاكمته وصلبه ودفنه، ثم الإيمان بقيامته.

بعد ذلك أصبحت القدس مركز الجماعة المسيحية الأولى. وتشير رواية سفر أعمال الرسل إلى اجتماع التلاميذ فيها، ومنها انطلقت مراحل مهمة من انتشار الدعوة. كما أصبحت المدينة مقصدًا للحجاج المسيحيين من مناطق مختلفة من الإمبراطورية الرومانية.

في القرن الرابع تغيّر وضع القدس بصورة كبيرة بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية. أُقيمت كنائس كبرى في المواقع المرتبطة بحياة يسوع، وكان أبرزها مجمع كنيسة القيامة، الذي ارتبط بموقع الصلب والدفن بحسب التقليد المسيحي، وكنيسة المهد في بيت لحم.

وأصبحت القدس خلال العصر البيزنطي مركزًا أساسيًا للحج المسيحي، وانتشرت حولها الكنائس والأديرة. ثم دخلت المدينة تحت الحكم الإسلامي في

القرن السابع، لكن وجود المسيحيين ومؤسساتهم الدينية استمر، وأصبحت القدس لاحقًا إحدى أهم المدن في تاريخ المسيحية الشرقية والغربية معًا.

بيت لحم

ارتبطت بيت لحم في الذاكرة المسيحية بميلاد يسوع، ولذلك أصبحت منذ القرون الأولى للمسيحية واحدة من أهم مدن الحج المسيحي.

وفي عهد قسطنطين أُقيمت كنيسة فوق الموقع الذي ارتبط بميلاد المسيح، ثم أعاد الإمبراطور جستنيان بناءها في القرن السادس بعد تعرض المبنى السابق للدمار. وأصبحت كنيسة المهد مركزًا للحجاج القادمين إلى فلسطين.

ولم تكن أهمية بيت لحم ناتجة عن حجمها السياسي، بل عن مكانتها الدينية. فقد جعلها ارتباطها بقصة الميلاد جزءًا ثابتًا من الخريطة المسيحية في بلاد الشام، وظلت الكنيسة والموقع المحيط بها شاهدًا على استمرارية الوجود المسيحي في المدينة عبر عصور متعاقبة.

الناصرة

كانت الناصرة قرية في الجليل ارتبط اسمها بيسوع منذ طفولته، ولذلك أصبح لقب الناصري من الأسماء التي ارتبطت به في المصادر المسيحية.

لم تكن الناصرة في بدايات المسيحية بمكانة القدس أو أنطاكية، لكنها اكتسبت أهمية متزايدة مع تطور الحج المسيحي إلى الأماكن المرتبطة بحياة يسوع. وأقيمت فيها كنائس فوق المواقع التي ارتبطت بالتقاليد المسيحية المتعلقة بالبشارة وحياة العائلة المقدسة. وهكذا انتقلت الناصرة من قرية صغيرة في

الجليل إلى مدينة ذات أهمية دينية، وأصبحت جزءًا من مسار الحجاج المسيحيين في فلسطين.

حلب

لم تكن حلب في بدايات المسيحية بمكانة القدس أو أنطاكية، لكنها أصبحت مع مرور القرون مدينة مسيحية مهمة، مستفيدة من موقعها التجاري الذي جعلها نقطة اتصال بين شمال بلاد الشام والأناضول وبلاد الرافدين.

انتشر المسيحيون في حلب والمناطق المحيطة بها خلال العصور المتأخرة من الإمبراطورية الرومانية والعصر البيزنطي، وظهرت فيها تقاليد كنسية متعددة، خصوصًا السريانية واليونانية، ثم تعزز حضور الأرمن في المدينة خلال العصور اللاحقة. وفي العصور الإسلامية استمرت جماعات مسيحية في حلب، وظهرت أحياء وكنائس مرتبطة بالطوائف المختلفة. ثم ازدادت أهمية حلب المسيحية بصورة خاصة في العصر الحديث، عندما أصبحت المدينة موطنًا لجماعات أرمنية وسريانية وملكية وغيرها.

ولهذا فإن تاريخ المسيحية في حلب لا يرتبط بحدث واحد، وإنما باستمرار مدينة تجارية كبرى في استقبال جماعات مسيحية متعددة حافظت على لغاتها وطقوسها وتقاليدها.

حمص

كانت حمص، المعروفة في العصور القديمة باسم إيميسا، مدينة مهمة في وسط بلاد الشام. ومع انتشار المسيحية في سورية خلال العصر الروماني المتأخر، أصبحت المدينة جزءًا من الشبكة الكنسية التي امتدت عبر المنطقة.

وتشير الأدلة التاريخية إلى وجود أسقفية في المنطقة، كما ارتبطت حمص بتقاليد مسيحية سريانية ويونانية. ومع ازدهار المسيحية في سورية، لم يقتصر وجودها على المدن الكبرى، بل امتد إلى القرى والريف المحيط بحمص، وهو ما يظهر بوضوح في انتشار الكنائس والأديرة في مناطق وسط سورية. وأصبحت المنطقة المحيطة بحمص لاحقًا جزءًا من المجال الذي ازدهرت فيه الرهبنة السورية، فكان الدين المسيحي حاضرًا في المدينة والريف معًا.

طرطوس

كانت طرطوس، أو طرطوس القديمة وما حولها من المراكز الساحلية، مرتبطة بشبكة المدن الساحلية في شرق المتوسط. وفي العصر المسيحي أصبحت المنطقة جزءًا من المجال الكنسي لأنطاكية وسورية.

واكتسبت المدينة أهمية أكبر في العصور الوسطى، ولا سيما خلال الفترة الصليبية، عندما أصبحت مركزًا لاتينيًا محصنًا على الساحل، قبل أن تعود المنطقة إلى الحكم الإسلامي.

وهكذا تمثل طرطوس مثالًا على تحول بعض المدن الساحلية بين مراكز دينية وسياسية مختلفة، مع استمرار ارتباطها بتاريخ المسيحية الشرقية ثم الغربية في مراحل متعاقبة.

بيروت

كانت بيروت، المعروفة في العصر الروماني باسم بيريتوس، مدينة رومانية مزدهرة وميناءً مهمًا على الساحل الشرقي للمتوسط.

ظهر فيها الوجود المسيحي خلال العصور الرومانية المتأخرة، وأصبحت لها أسقفية ضمن التنظيم الكنسي في المنطقة. ومع تحول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية، دخلت بيروت تدريجيًا في الحياة الدينية المسيحية التي غطت مدن الساحل والداخل. كما جعل موقع بيروت التجاري والثقافي منها نقطة اتصال بين المدن الساحلية ومناطق الداخل، ولذلك استمر وجود الجماعات المسيحية فيها خلال العصور الإسلامية، ثم ازداد تنوعها الطائفي بصورة واضحة في العصور الحديثة.

صور

كانت صور واحدة من أقدم وأهم مدن الساحل الفينيقي، لكنها دخلت أيضًا في تاريخ المسيحية المبكر. يذكر سفر أعمال الرسل أن بولس مرّ بمدينة صور والتقى فيها بالمسيحيين، وهو ما يدل على وجود جماعة مسيحية فيها في مرحلة مبكرة من انتشار المسيحية.

وفي القرون اللاحقة أصبحت صور مركزًا أسقفيًا مهمًا، وارتبطت بالكنيسة الأنطاكية وبالحياة الكنسية في الساحل الشرقي للمتوسط. كما استمرت مكانتها خلال العصور البيزنطية، ثم دخلت في مراحل سياسية ودينية جديدة بعد الفتح الإسلامي، قبل أن تصبح خلال العصور الصليبية أحد المراكز المهمة للمسيحيين اللاتين في الساحل.

صيدا

كانت صيدا، مثل صور، من المدن الفينيقية الكبرى التي استقبلت المسيحية في مرحلة مبكرة.

وتظهر في المصادر المسيحية صلات المدينة بالشبكة الرسولية الأولى، ثم أصبحت لها أسقفية، وشاركت في الحياة الكنسية التي ربطت مدن الساحل بمدن الداخل وبأنطاكية. ومع مرور القرون حافظت صيدا على وجود مسيحي، وأصبحت لاحقًا موطنًا لجماعات كنسية متعددة، كما حدث في مدن الساحل الأخرى.

طرابلس

لم تكن طرابلس من أبرز مراكز المسيحية الرسولية المبكرة بالدرجة نفسها التي كانت عليها القدس وأنطاكية وصور، لكن موقعها الساحلي جعلها جزءًا من الشبكة المسيحية التي انتشرت في مدن الساحل.

وازداد حضور المسيحية اللاتينية فيها خلال العصر الصليبي، عندما أصبحت طرابلس مركزًا لإحدى الإمارات الصليبية في بلاد الشام. ولذلك ارتبط تاريخ المسيحية في طرابلس بطبقتين مختلفتين طبقة مسيحية شرقية أقدم، ثم حضور لاتيني قوي خلال العصور الوسطى.

المسيحيون في العصر العباسي

بعد سقوط الدولة الأموية وانتقال مركز الخلافة إلى بغداد، دخلت بلاد الشام مرحلة سياسية جديدة.

واستمر المسيحيون في ممارسة أدوار مختلفة في المجتمع، ولا سيما في الطب والترجمة والكتابة والإدارة. وكان الأطباء المسيحيون، خصوصًا من التقاليد السريانية، معروفين في العالم الإسلامي، كما شارك مترجمون مسيحيون في نقل مؤلفات فلسفية وعلمية من اليونانية والسريانية إلى العربية.

ولم تكن هذه المشاركة مقتصرة على دمشق؛ فقد ارتبطت شبكات العلماء والأطباء والمترجمين بمدن مختلفة في سورية والعراق ومناطق أخرى.

وأصبحت المسيحية السريانية، بفضل تراثها اللغوي والعلمي، واحدة من الجسور المهمة التي عبرت من خلالها مؤلفات العالم القديم إلى الحضارة العربية الإسلامية.

العصر الفاطمي

عندما خضعت أجزاء من بلاد الشام للحكم الفاطمي، ظل المسيحيون موجودين في المدن والقرى.

لكن العلاقات بين السلطة والمجتمعات المسيحية لم تكن ثابتة. ففي بعض الفترات كانت الحياة الدينية تسير بصورة طبيعية، بينما شهدت فترات أخرى قيودًا واضطهادات، وكان أبرزها في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في أوائل القرن الحادي عشر.

ارتبط عهده بإجراءات شديدة تجاه المسيحيين واليهود، وشملت القيود على المظاهر الدينية وبعض الكنائس والأديرة، ووصلت في بعض الحالات إلى هدم كنائس، ومن أشهر الأحداث المرتبطة بهذه المرحلة تدمير كنيسة القيامة في القدس سنة ١٠٠٩م.

لكن هذه السياسات لم تستمر على الصورة نفسها بعد وفاة الحاكم، وعادت الحياة المسيحية إلى قدر من الاستقرار في مراحل لاحقة.

الحملات الصليبية

في أواخر القرن الحادي عشر دخلت بلاد الشام مرحلة جديدة مع الحملات الصليبية. كان للصليبيين أثر عميق في تاريخ المسيحية في المنطقة، لكن من المهم عدم النظر إليهم باعتبارهم امتدادًا بسيطًا للمسيحيين الشرقيين الموجودين أصلًا في البلاد.

فالمجتمعات المسيحية المحلية كانت تضم أرثوذكس وسريانًا وأرمنًا ومسيحيين شرقيين آخرين، بينما جاء الصليبيون في معظمهم من أوروبا الغربية وكانوا مرتبطين بالكنيسة اللاتينية.

وأدى قيام الإمارات الصليبية إلى إنشاء مراكز لاتينية في القدس وأنطاكية وطرابلس والرها وغيرها، وبُنيت الكنائس والقلاع والأديرة وفق التقاليد الغربية. وفي الوقت نفسه استمرت الكنائس الشرقية في الوجود، وإن خضعت في بعض المناطق للسلطات الجديدة أو دخلت في علاقات معقدة معها.

سقوط الممالك الصليبية

ابتداءً من القرن الثاني عشر أخذت القوى الإسلامية تستعيد مناطق واسعة من بلاد الشام. وكانت معركة حطين سنة ١١٨٧م نقطة تحول كبرى، إذ انتصر صلاح الدين على الجيش الصليبي، ثم دخل القدس في العام نفسه.

ولم يؤدِّ ذلك إلى اختفاء المسيحية من القدس أو بلاد الشام، بل بقيت الجماعات المسيحية المحلية موجودة، واستمر الحجاج المسيحيون في الوصول إلى الأماكن المقدسة. وفي الساحل استمر الوجود الصليبي فترة أطول، قبل أن تنتهي المراكز اللاتينية الكبرى تدريجيًا في القرن الثالث عشر.

العصر المملوكي

بعد انتهاء الوجود الصليبي الرئيسي، أصبحت معظم بلاد الشام تحت حكم المماليك. وكان المسيحيون جزءًا من المجتمع الحضري والريفي، لكنهم واجهوا في بعض الفترات قيودًا وضغوطًا، خصوصًا في أوقات التوتر السياسي أو الصراع مع القوى المسيحية الأوروبية.

ومع ذلك استمرت الكنائس والأديرة، وظلت القدس وأنطاكية ودمشق ومدن الساحل مرتبطة بالحياة المسيحية، كما استمرت الجماعات السريانية والأرمنية وغيرها في الحفاظ على مؤسساتها.

العهد العثماني

دخلت بلاد الشام تحت الحكم العثماني في القرن السادس عشر، واستمر هذا الحكم قرابة أربعة قرون.

وخلال هذه الفترة أصبحت الجماعات المسيحية جزءًا من نظام إداري اعتمد على الاعتراف بالطوائف الدينية وتنظيم شؤونها من خلال قياداتها الدينية.

واختلف وضع المسيحيين بين المناطق والفترات، لكن وجودهم ظل مستمرًا في المدن والقرى.

وفي هذه المرحلة أخذت بعض المدن الشامية تتحول إلى مراكز مهمة للطباعة والتعليم والتجارة المسيحية، وازدادت الروابط مع أوروبا، خصوصًا من خلال البعثات والمؤسسات التعليمية والتجارية.

ظهور الكنائس الكاثوليكية الشرقية

شهدت القرون الحديثة تحولات مهمة في الخريطة المسيحية الشامية، إذ ظهرت أو ترسخت كنائس شرقية دخلت في شركة مع الكنيسة الكاثوليكية في روما، مع احتفاظها بطقوسها ولغاتها وتقاليدها الشرقية.

ومن أبرز هذه الكنائس السريان الكاثوليك، والروم الكاثوليك، والأرمن الكاثوليك، والموارنة، إلى جانب الكنيسة اللاتينية.

ولم يكن ظهور هذه الكنائس مجرد نتيجة لتغيير عقائدي واحد، بل ارتبط أيضًا بالانقسامات الداخلية، والاتصالات مع أوروبا، والبعثات الكاثوليكية، والتطورات السياسية والاجتماعية داخل الدولة العثمانية.

المدارس والمطابع المسيحية

كان للمسيحيين دور بارز في النهضة الثقافية العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

فانتشرت المدارس المسيحية في مدن بلاد الشام، وظهرت مطابع ومؤسسات تعليمية، وأسهم رجال دين ومثقفون مسيحيون في تطوير التعليم واللغة العربية والصحافة والترجمة.

ولم تكن هذه النهضة منفصلة عن تاريخ المنطقة العام؛ فقد شارك المسيحيون في الحركة الثقافية العربية، وفي تأسيس الصحف والجمعيات والمدارس، وأصبح بعض المدن الشامية مراكز مهمة للحياة الفكرية العربية.

المسيحية الشامية في العصر الحديث

مع نهاية الدولة العثمانية وظهور الدول الحديثة تغيرت الخريطة السياسية لبلاد الشام، وتغير معها وضع الجماعات المسيحية.

ازدادت الهجرة المسيحية إلى الأمريكيتين وأستراليا وأوروبا وغيرها، كما أدت الحروب والاضطرابات السياسية خلال القرن العشرين إلى موجات جديدة من الهجرة.

ومع ذلك بقيت للمسيحيين مجتمعات تاريخية في سورية ولبنان وفلسطين والأردن، واستمرت الكنائس والأديرة والمدارس والمؤسسات الاجتماعية.

وتتميز المسيحية الشامية الحديثة بتنوع استثنائي؛ ففي المنطقة كنائس أرثوذكسية شرقية، وكنائس سريانية، وكنائس أرمنية، وكنائس كاثوليكية شرقية، وكنائس لاتينية، إضافة إلى جماعات بروتستانتية.

وهذا التنوع ليس ظاهرة حديثة بالكامل، بل هو نتيجة تاريخ طويل من الانقسامات اللاهوتية والهجرات والتغيرات السياسية والتفاعل بين اللغات والثقافات.

المسيحية الشامية بوصفها تراثًا حيًا

رغم التراجع الكبير في أعداد المسيحيين في أجزاء من بلاد الشام خلال العصر الحديث، فإن آثار وجودهم التاريخي ما زالت واضحة في المدن والقرى. فالكنائس القديمة، والأديرة، والمخطوطات السريانية، والآثار البيزنطية، والقرى الحجرية، والأحياء المسيحية في المدن الكبرى، كلها تشكل طبقات من تاريخ المنطقة.

ومن القدس وبيت لحم والناصرة، إلى دمشق وأنطاكية وحلب، ومن الأديرة الجبلية في لبنان إلى الكنائس القديمة في شمال سورية، بقيت المسيحية جزءًا أصيلًا من تاريخ بلاد الشام، لا باعتبارها دينًا وافدًا في العصر الحديث، بل باعتبارها واحدة من الديانات التي تشكل تاريخ المنطقة منذ القرن الأول الميلادي. وهكذا انتقلت المسيحية الشامية من جماعات صغيرة في مدن فلسطين وسورية إلى شبكة واسعة من الكنائس والمجتمعات التي امتدت عبر الإمبراطوريات الرومانية والبيزنطية والإسلامية والعثمانية، ثم دخلت العصر الحديث وهي تحمل تراثًا دينيًا ولغويًا وثقافيًا تشكل على أرض الشام نفسها.

الكنائس والطوائف المسيحية في بلاد الشام

الكنيسة الأرثوذكسية الأنطاكية

تعود جذور الكنيسة الأنطاكية إلى الجماعة المسيحية القديمة في أنطاكية، التي أصبحت منذ القرن الأول مركزًا رئيسيًا للتبشير والتنظيم الكنسي. ومع تطور البنية الكنسية في القرون الأولى، أصبحت أنطاكية أحد الكراسي البطريركية الكبرى في العالم المسيحي، إلى جانب روما والإسكندرية والقسطنطينية والقدس.

ارتبطت الكنيسة الأنطاكية بالتقليد البيزنطي، واستخدمت اليونانية في مراحل طويلة من تاريخها، ثم أصبحت العربية لغة أساسية لدى غالبية رعاياها في بلاد الشام. أما في العبادة فاستقر استعمال الطقس البيزنطي.

بعد الفتح الإسلامي استمر البطريرك الأنطاكي في ممارسة دوره على الجماعات التابعة له، وإن تغير مركز البطريركية أكثر من مرة بسبب الظروف السياسية. وفي العصر الحديث أصبح مقر البطريركية في دمشق.

وينتشر أتباعها بصورة خاصة في سورية ولبنان، مع وجود تاريخي في فلسطين والأردن، وتُعرف هذه الجماعة في المنطقة باسم الروم الأرثوذكس.

الكنيسة السريانية الأرثوذكسية

تنتمي الكنيسة السريانية الأرثوذكسية إلى التقليد السرياني غير الخلقيدوني، وتبلور تميزها الكنسي بصورة خاصة بعد الخلافات التي أعقبت مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م.

رفض أتباع هذا التقليد صيغة المجمع الخلقيدوني المتعلقة بطبيعة المسيح، وتمسكوا بصياغة لاهوتية ترى في المسيح طبيعة واحدة متحدة، ولذلك يُصنفون ضمن الكنائس الأرثوذكسية المشرقية غير الخلقيدونية.

كانت السريانية لغة العبادة والأدب الكنسي، وظهرت حول الأديرة السريانية حركة واسعة لنسخ المخطوطات وترجمة المؤلفات.

ومن أهم مراكزها التاريخية في بلاد الشام مناطق شمال سورية والجزيرة وريف أنطاكية، إضافة إلى دمشق وحلب وغيرها. وتعرض وجودها في القرن العشرين لتغيرات كبيرة بسبب الهجرة والاضطرابات السياسية.

الكنيسة السريانية الكاثوليكية

نشأت الكنيسة السريانية الكاثوليكية من داخل التقليد السرياني الغربي، وتطورت علاقتها بالكنيسة الكاثوليكية في روما بصورة تدريجية، خصوصًا منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر. لم تتخلَّ الكنيسة عن طقسها السرياني، بل حافظت على الليتورجيا السريانية وعلى تقاليدها الكنسية، مع اعترافها بسلطة البابا ودخولها في الشركة الكاملة مع الكنيسة الكاثوليكية.

ومن أبرز مراكزها الحديثة دمشق وحلب ولبنان والعراق، كما انتشرت جماعاتها في بلدان أخرى نتيجة الهجرة.

وتُظهر هذه الكنيسة كيف يمكن لجماعة مسيحية أن تحافظ على تقليدها الشرقي ولغتها وطقوسها، مع ارتباطها بالكنيسة الكاثوليكية الغربية.

الكنيسة المارونية

ترتبط المارونية بجذور رهبانية سورية تعود إلى القديس مارون، الذي عاش في أواخر القرن الرابع وبدايات الخامس، ثم انتشرت جماعته الرهبانية في شمال سورية. أصبح دير مار مارون مركزًا مهمًا للحركة الرهبانية المارونية، وارتبط أتباعها لاحقًا بالجبال اللبنانية، حيث وجدوا فيها مجالًا مناسبًا لاستمرار مجتمعهم ومؤسساتهم. احتفظ الموارنة بتراثهم السرياني الغربي، وظل السرياني حاضرًا في الطقس الماروني، رغم التحول التدريجي إلى العربية في الحياة اليومية. أما علاقتهم بروما فقد تطورت تاريخيًا على مراحل، وأصبح الارتباط بالكرسي الرسولي عنصرًا ثابتًا في هوية الكنيسة المارونية خلال القرون الوسطى وما بعدها.

تركز وجود الموارنة تاريخيًا في جبل لبنان، ثم انتشروا في بيروت ومدن الساحل وسورية وفلسطين، وفي العصر الحديث أصبح الانتشار الماروني عالميًا نتيجة الهجرة.

كنيسة الروم الكاثوليك

تعود جذور الروم الكاثوليك إلى البيئة الملكية البيزنطية، لكن الكنيسة بصورتها المستقلة عن البطريركية الأرثوذكسية الأنطاكية ظهرت نتيجة الانقسام الذي حدث في القرن الثامن عشر.

ففي سنة ١٧٢٤ انقسمت بطريركية أنطاكية للروم إلى فرعين رئيسيين فرع بقي أرثوذكسيًا، وفرع دخل في الشركة مع روما وأصبح أساس كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك.

احتفظ الروم الكاثوليك بالطقس البيزنطي والروحانية الشرقية، ولم يتحولوا إلى الطقس اللاتيني رغم اتحادهم مع الكنيسة الكاثوليكية.

انتشروا خصوصًا في سورية ولبنان وفلسطين والأردن، وكان لهم حضور بارز في دمشق وحلب وحمص وطرطوس ومدن وقرى أخرى.

ومن أهم ما يميزهم أن الانتماء إلى روما لم يُلغِ هويتهم الشرقية؛ فاللغة العربية أصبحت لغتهم الأساسية في المنطقة، بينما بقي الطقس البيزنطي أساس عبادتهم.

الكنيسة الأرمنية الرسولية

دخلت أرمينيا المسيحية في مرحلة مبكرة جدًا، ويرتبط تقليدها الكنسي بالقديسين غريغوريوس المنور وتيريدات الثالث. وتُعد أرمينيا تقليديًا أول دولة اعتنقت المسيحية رسميًا في أوائل القرن الرابع.

تنتمي الكنيسة الأرمنية الرسولية إلى عائلة الكنائس الأرثوذكسية المشرقية غير الخلقيدونية، ولذلك تشترك مع السريان الأرثوذكس والأقباط والأحباش في رفض مجمع خلقيدونية، مع احتفاظها بتقاليدها الخاصة.

وصل الأرمن إلى مدن بلاد الشام في مراحل مختلفة، لكن وجودهم ازداد بصورة كبيرة نتيجة الهجرات القسرية والحروب التي شهدتها الأناضول وأرمينيا في أواخر العهد العثماني. وأصبحت حلب أحد أهم المراكز الأرمنية خارج أرمينيا التاريخية، كما نشأت مجتمعات أرمنية مهمة في بيروت

ودمشق والقدس. وحافظ الأرمن على لغتهم وكتابتهم وطقسهم الكنسي، وأنشأوا المدارس والمطابع والمؤسسات الثقافية، فكان وجودهم الديني مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحفاظ على هويتهم الثقافية.

الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية

نشأت الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية نتيجة تطور العلاقات بين بعض الجماعات الأرمنية والكنيسة الكاثوليكية، وتأسست بطريركيتها الأرمنية الكاثوليكية في القرن الثامن عشر. وتحافظ هذه الكنيسة على التقليد الأرمني في الليتورجيا (نظام العبادة والصلوات والطقوس الكنسية) واللغة والروحانية، لكنها في شركة كاملة مع روما. كان لها وجود في مدن بلاد الشام، وخاصة حلب وبيروت ودمشق، إلى جانب مجتمعات أرمنية في مناطق أخرى.

الكنيسة الكلدانية

ترتبط الكنيسة الكلدانية بالتقاليد السريانية الشرقية، وهي مختلفة عن الكنائس السريانية الغربية التي سبق ذكرها.

تعود جذورها التاريخية إلى كنيسة المشرق، ثم دخل جزء من أتباعها في شركة مع روما خلال القرون الوسطى، وتبلورت البطريركية الكلدانية الكاثوليكية في القرن السادس عشر.

كان مركز ثقلها التاريخي في بلاد الرافدين، لذلك لم تكن من الكنائس الأصلية الكبرى في بلاد الشام، لكن جماعات كلدانية وصلت إلى سورية ولبنان وفلسطين في مراحل مختلفة، ولا سيما نتيجة الهجرة الحديثة.

وتستخدم الكنيسة الكلدانية طقسًا سريانيًا شرقيًا، ولذلك تمثل أحد الفروع المختلفة للتراث المسيحي السرياني.

الكنيسة اللاتينية

كان الوجود اللاتيني في بلاد الشام محدودًا في العصور المسيحية الأولى مقارنة بالكنائس الشرقية، لكنه ازداد بصورة كبيرة مع الحملات الصليبية في العصور الوسطى. أُنشئت مؤسسات كنسية لاتينية في القدس والمناطق الخاضعة للصليبيين، وازداد حضور رجال الدين والرهبان القادمين من أوروبا الغربية. وبعد انتهاء الحكم الصليبي بقي الوجود اللاتيني، خصوصًا في الأماكن المقدسة، من خلال الرهبان والمؤسسات الكنسية والحجاج. وفي العصر الحديث تعزز هذا الوجود عبر الإرساليات الكاثوليكية والمدارس والمؤسسات التعليمية، وأصبح للكنيسة اللاتينية حضور في القدس وبيت لحم والناصرة وعمّان وبيروت ودمشق وغيرها.

الكنائس البروتستانتية

وصلت الكنائس البروتستانتية إلى بلاد الشام بصورة أساسية في العصر الحديث، ولا سيما خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مع توسع البعثات الأوروبية والأمريكية.

ركزت هذه البعثات على التعليم والطباعة وإنشاء المدارس والمستشفيات، وكان لها أثر واضح في النهضة التعليمية والثقافية في المنطقة.

ولم تشكل الطوائف البروتستانتية امتدادًا مباشرًا للانقسامات المسيحية القديمة مثل الانقسام بين الخلقيدونيين وغير الخلقيدونيين، بل جاءت من الإصلاح الديني الأوروبي الذي بدأ في القرن السادس عشر.

وانتشرت جماعات بروتستانتية في لبنان وسورية وفلسطين والأردن، وظهرت مدارس ومؤسسات تعليمية مرتبطة بها.

لماذا تعددت الكنائس المسيحية في بلاد الشام؟

لا يمكن اختزال هذا التنوع في الخلافات العقائدية وحدها.

ففي القرون الأولى أدت الخلافات حول طبيعة المسيح إلى انقسامات كبرى، كان أبرزها الخلاف الذي انتهى إلى انفصال الكنائس غير الخلقيدونية عن الكنائس التي قبلت مجمع خلقيدونية.

ثم لعبت الإمبراطوريات والصراعات السياسية دورًا في ترسيخ بعض الانقسامات؛ فكان الانتماء الكنسي أحيانًا مرتبطًا بموقف جماعة محلية من السلطة البيزنطية أو بمصالح سياسية واجتماعية. كما كان اختلاف اللغات عاملًا مهمًا. فقد استخدمت الكنائس في بلاد الشام اليونانية والسريانية والأرمنية والعربية، ولم تكن اللغة مجرد وسيلة للعبادة، بل كانت جزءًا من هوية الجماعة.

ثم جاءت العلاقات مع روما والبعثات الأوروبية في العصور الحديثة، فأضافت انقسامات كاثوليكية جديدة إلى الخريطة المسيحية القديمة، من دون أن تختفي التقاليد الشرقية التي سبقتها.

ولهذا فإن الخريطة المسيحية في بلاد الشام اليوم هي نتيجة تراكم تاريخي طويل المسيحية الرسولية الأولى، والانقسامات اللاهوتية في العصور القديمة، والتقاليد السريانية والبيزنطية والأرمنية، ثم الاتصالات الكاثوليكية والغربية، وأخيرًا التحولات الحديثة والهجرة.

الممارسات الدينية والحياة الشعبية عند مسيحيي بلاد الشام

لم تكن المسيحية عند سكان بلاد الشام مجرد عقيدة تُمارس داخل الكنيسة، بل دخلت في تفاصيل الحياة اليومية، من لحظة ولادة الطفل إلى الزواج والموت،

ومن مواسم الصوم والأعياد إلى زيارة الأديرة والمزارات. ومع اختلاف الطقوس بين الكنائس، ظهرت مجموعة واسعة من الممارسات التي أصبحت جزءًا من الحياة الاجتماعية للمجتمعات المسيحية الشامية.

كانت المعمودية أول طقس أساسي يدخل به الإنسان إلى الجماعة المسيحية.

وكان الطفل يُعمَّد في كثير من المجتمعات المسيحية منذ الصغر، بينما كان التعميد في المراحل الأولى من انتشار المسيحية يرتبط بصورة أكبر بالبالغين الذين يعتنقون الدين. واختلفت طريقة إجراء المعمودية بين الكنائس، لكن الماء بقي عنصرها الأساسي. وفي بعض التقاليد يتم غمس الشخص في الماء، وفي أخرى يُسكب الماء على الرأس.

وللمعمودية أهمية تتجاوز الطقس نفسه؛ فهي علامة الانضمام إلى الكنيسة، وترتبط في الفكر المسيحي بالموت عن الحياة القديمة والبدء بحياة جديدة.

وكان اختيار العرّاب أو العرّابة جزءًا من الممارسة الاجتماعية في كثير من المجتمعات، إذ يتولى هؤلاء دورًا دينيًا واجتماعيًا تجاه الطفل.

التثبيت والمسحة

في عدد من الكنائس الشرقية يُمنح الطفل بعد المعمودية مباشرة سر التثبيت، بينما تفصل بعض الكنائس الأخرى بين الطقسين.

ويرتبط التثبيت بمسحة الزيت المقدس، التي ترمز إلى حلول الروح القدس وتقوية المؤمن في حياته المسيحية.

وهذه المسحة جزء من تقليد قديم جدًا في الكنائس الشرقية، وتُستخدم زيوت مكرسة في طقوس مختلفة بحسب الكنيسة.

البخور

استُخدم البخور في التقاليد المسيحية بوصفه رمزًا للصلاة الصاعدة إلى الله، وأصبح جزءًا من بعض الطقوس الكنسية، حيث يُبخَّر المذبح والإنجيل وأحيانًا المصلّون، ولا سيما في الكنائس الشرقية. كما ارتبط البخور في الممارسات الدينية الشعبية برائحة القداسة وتهيئة المكان للصلاة، واستخدم في بعض البيئات عند زيارة الكنائس والمقامات والمناسبات الدينية.

وتختلف طريقة استعماله و درجة حضوره بين الكنائس والطوائف، لكنه ظل من أبرز العناصر الحسية المرتبطة بالعبادة المسيحية في بلاد الشام.

اختلاف الصوم

طريقة الصوم تختلف بين الطوائف. فبعض الكنائس تمنع اللحوم ومشتقات الحليب والبيض خلال فترات معينة، بينما تختلف القواعد في كنائس أخرى.

وكان الصوم في المجتمعات القديمة مرتبطًا أيضًا بنظام الحياة الزراعية، لأن المواسم الدينية كانت تتداخل أحيانًا مع دورة السنة والعمل الزراعي.

يحتفل المسيحيون بعيد الميلاد إحياءً لذكرى ميلاد يسوع. ويرتبط العيد في بلاد الشام بالقداس والصلوات والتراتيل، ثم بالاجتماع العائلي وتبادل التهاني والطعام. لكن تاريخ الاحتفال بالعيد يختلف بين الكنائس. فمعظم الكنائس تحتفل به في ٢٥ كانون الأول، بينما تحتفل بعض الكنائس التي تستخدم التقويم اليولياني (وهو تقويم قديم وضع في عهد يوليوس قيصر في روما) بعيد الميلاد في ٧ كانون الثاني بحسب التقويم الغريغوري الحالي (التقويم الذي أدخل لاحقاً في اوروبا في عهد البابا غريغوريوس الثالث عشر وهو التقويم المدني المستخدم اليوم في معظم العالم والفرق بينهما ١٣ يوماً)

وأصبحت بعض مظاهر الميلاد الحديثة، مثل شجرة الميلاد والمغارة، جزءًا من الاحتفالات الشعبية، لكنها ليست من أصل واحد ولا تنتمي جميعها إلى أقدم الممارسات المسيحية.

عيد الفصح

يُعد الفصح أهم الأعياد المسيحية، لأنه يرتبط بقيامة المسيح بحسب الإيمان المسيحي. وتسبقه فترة الصوم الكبير وأسبوع الآلام، الذي يتضمن تذكّر الأحداث الأخيرة في حياة يسوع بحسب الرواية المسيحية.

وفي بلاد الشام ارتبط الفصح بالصلوات الليلية والقداديس، وبإضاءة الشموع، وبزيارة الكنائس، ثم بالاجتماعات العائلية بعد انتهاء الصوم.

وكان اختلاف موعد الفصح بين بعض الكنائس نتيجة لاختلاف التقويمات وطرق حساب تاريخ العيد، ولذلك لا يحتفل جميع المسيحيين به بالضرورة في اليوم نفسه.

أحد الشعانين

يأتي أحد الشعانين قبل الفصح بأسبوع، ويرتبط بذكرى دخول يسوع إلى القدس. يحمل المؤمنون في هذا اليوم أغصان الزيتون أو سعف النخيل، بحسب البيئة المحلية وتوافر النباتات.

وفي بلاد الشام أصبح الزيتون عنصرًا أساسيًا في الاحتفال، خصوصًا في المناطق التي تنتشر فيها أشجار الزيتون، فأصبح الغصن الذي يُبارك في الكنيسة يُحمل إلى المنزل ويُحتفظ به. وهذه الممارسة مثال واضح على انتقال الطقس الديني من الكنيسة إلى الحياة المنزلية.

الجمعة العظيمة

تُعد الجمعة العظيمة من أقدس أيام السنة المسيحية، وتحيي فيها الكنائس ذكرى صلب يسوع المسيح وموته، وتأتي ضمن أسبوع الآلام قبيل عيد القيامة. ويغلب على هذا اليوم طابع الحزن والصمت والتأمل، فتقام صلوات وقراءات خاصة تتناول آلام المسيح وصلبه، وتختلف تفاصيل الطقوس بين الكنائس والطوائف. وفي كثير من التقاليد المسيحية يمتنع المؤمنون عن بعض الأطعمة أو يصومون في هذا اليوم، تعبيرًا عن المشاركة الرمزية في آلام المسيح وانتظار القيامة.

القديسون والشهداء

احتل القديسون مكانة كبيرة في التدين المسيحي الشامي، خصوصًا في الكنائس الشرقية. ولكل كنيسة تقويمها الخاص الذي يضم أعياد القديسين والشهداء، وكانت بعض المدن والقرى ترتبط بقديس معين، كما ارتبطت الأديرة بأسماء رهبان وقديسين. وفي بعض المجتمعات أصبحت أسماء القديسين أسماء شخصية متداولة، مثل جرجس وبطرس وبولس ويوحنا ومارون وغيرها. وكان إحياء ذكرى القديس يتم عادة بالصلاة والقداس وزيارة الكنيسة أو الدير المرتبط به.

المزارات والنذور

ظهرت في بلاد الشام أماكن ارتبطت بقديسين أو شهداء أو رهبان، وأصبحت مقصدًا للزيارة. وكان بعض المؤمنين يقدمون النذور طلبًا للشفاء أو النجاة أو تحقيق أمنية، ثم يعودون إلى المكان لتقديم ما نذروه وتختلف هذه الممارسات في قبولها وتفسيرها بين الكنائس؛ فبعضها يندرج ضمن تقاليد الزيارة

والصلاة وطلب الشفاعة، بينما حذرت السلطات الكنسية في أوقات مختلفة من تحولها إلى ممارسات خرافية أو تجارية.

الأيقونات

الأيقونة ليست مجرد لوحة دينية في التقليد المسيحي الشرقي، بل لها وظيفة دينية ورمزية. تُصوَّر فيها شخصيات مثل المسيح ومريم والقديسين والأحداث الكتابية، وفق قواعد فنية ورمزية تطورت عبر القرون. وشهد العالم المسيحي البيزنطي جدلًا شديدًا حول الأيقونات خلال القرنين الثامن والتاسع، فيما عُرف بأزمة تحطيم الأيقونات. وانتهى الصراع في الكنائس الشرقية المؤيدة للأيقونات إلى تثبيت مكانتها الدينية.

ومنذ ذلك الحين أصبحت الأيقونات عنصرًا أساسيًا في الكنائس البيزنطية والسريانية وغيرها، وإن اختلف أسلوب رسمها بين التقاليد.

الصليب

أصبح الصليب العلامة الأكثر ارتباطًا بالمسيحية، لكنه لم يتحول إلى رمز مسيحي شائع منذ اللحظة الأولى.

ففي القرون الأولى كان المسيحيون يستخدمون رموزًا متعددة، مثل السمكة والمرساة والراعي، بينما أصبح الصليب تدريجيًا أكثر وضوحًا بعد القرن الرابع، خصوصًا بعد التحول الذي أحدثه عهد قسطنطين.

وصار الصليب حاضرًا في الكنائس والبيوت والمقابر وعلى الكتب والأدوات الطقسية، وأصبح رسمه أو حمله جزءًا من الممارسات الدينية لدى كثير من المسيحيين.

الصلاة المنزلية

لم تكن الصلاة محصورة داخل الكنيسة. كانت الأسر المسيحية تصلي في المنزل، خصوصًا قبل الطعام وفي المناسبات الدينية، كما ارتبطت بعض البيوت بالأيقونات أو الصلبان التي توضع في مكان مخصص للصلاة.

وكانت الأسرة تنقل إلى الأطفال الصلوات الأساسية وقصص الكتاب المقدس وحياة القديسين، ولذلك أصبحت العائلة إحدى أهم الوسائل التي حافظت من خلالها المجتمعات المسيحية على تقاليدها.

الزواج المسيحي

كان الزواج يُنظر إليه باعتباره رابطة دينية واجتماعية، وليس مجرد عقد مدني. وتتضمن طقوس الزواج في الكنائس الشرقية صلوات خاصة وتلاوة نصوص دينية ووضع التيجان على رأسي العروسين في بعض التقاليد، ولذلك يُعرف الطقس في الكنائس البيزنطية باسم «الإكليل».

وفي المجتمعات المسيحية التقليدية كان الزواج يتم داخل الجماعة الدينية نفسها في كثير من الحالات، وكانت الكنيسة والأسرة تشتركان في تنظيم العلاقات الزوجية.

الموت والدفن

كان الموت مناسبة دينية واجتماعية تتدخل فيها الكنيسة منذ اللحظات الأولى.

تُقام صلوات خاصة للمتوفى، ثم يُحمل إلى الكنيسة أو مباشرة إلى المقبرة بحسب العادات المحلية، ويُدفن وفق الطقس المتبع في طائفته.

وأقيمت المقابر المسيحية بالقرب من الكنائس أو في مواقع مخصصة، وحملت شواهد القبور الصلبان وأسماء المتوفين وأحيانًا عبارات دينية.

كما عرفت المجتمعات المسيحية تذكارات للمتوفى وصلوات تقام في أيام محددة بعد الوفاة، وتختلف تفاصيلها بين الطوائف والمناطق.

الممارسات الشعبية

إلى جانب الطقوس الرسمية للكنائس، ظهرت لدى المجتمعات المسيحية ممارسات شعبية اختلفت من منطقة إلى أخرى.

فقد احتفظت بعض الأسر بأغصان مباركة من الأعياد، أو بماء مبارك، أو بزيت مرتبط بمزار ديني، كما انتشرت قصص القديسين والمعجزات والحكايات المرتبطة بالأديرة.

لكن هذه الممارسات لا تمثل بالضرورة تعاليم الكنيسة الرسمية. بعضها نشأ من التدين الشعبي، وبعضها تأثر بعادات محلية أقدم أو بممارسات مشتركة بين سكان المنطقة من ديانات مختلفة.

ولهذا يجب التمييز بين العقيدة والطقس الكنسي الرسمي من جهة، والتدين الشعبي والعادات الاجتماعية من جهة أخرى.

حضور المسيحية في الحياة اليومية

أصبح التقويم المسيحي نفسه وسيلة لتنظيم السنة الاجتماعية. فالأعياد تحدد مواسم الاحتفال، والأصوام تغير نوع الطعام، وأيام القديسين ترتبط أحيانًا بالزيارات المحلية، والمناسبات الكنسية ترافق الإنسان منذ الولادة حتى الموت.

وفي القرى المسيحية كان للكنيسة دور يتجاوز العبادة، فقد تكون مركزًا للتعليم وحفظ السجلات وتنظيم المناسبات ومساعدة المحتاجين، بينما كانت الأديرة تؤدي أدوارًا دينية واقتصادية وثقافية.

وبذلك لم تكن المسيحية في بلاد الشام مجرد مجموعة من المعتقدات اللاهوتية، بل أصبحت نظامًا دينيًا واجتماعيًا ترك أثره في الأسرة والقرية والمدينة والتعليم واللغة والفن والعمارة، واستمر هذا الأثر رغم التحولات السياسية التي مرت بها المنطقة.

أبرز الشخصيات المسيحية في تاريخ بلاد الشام

لم يتشكل تاريخ المسيحية في بلاد الشام من الأحداث والمجامع وحدها، بل تركت فيه شخصيات دينية وفكرية أثرت في الكنائس واللغة والرهبنة واللاهوت.

إغناطيوس الأنطاكي

كان إغناطيوس أسقف أنطاكية في أواخر القرن الأول وبدايات القرن الثاني الميلادي، ويُعد من أقدم الشخصيات المسيحية المرتبطة مباشرة بالكنيسة الأنطاكية.

اقتيد إلى روما في عهد الإمبراطور تراجان، وفي أثناء رحلته كتب رسائل إلى عدد من الجماعات المسيحية، أصبحت من أهم المصادر المبكرة لفهم تنظيم الكنائس والعلاقة بين الأسقف والجماعة المسيحية. وتكتسب كتاباته أهمية خاصة لأنها تعود إلى فترة مبكرة جدًا من تاريخ المسيحية، قبل أن تتبلور المؤسسات الكنسية بصورتها اللاحقة.

يوحنا الذهبي الفم

وُلد يوحنا في أنطاكية في القرن الرابع الميلادي، وأصبح أحد أشهر الوعاظ في المسيحية القديمة. اشتهر بخطبه التي تناولت الأخلاق والحياة الاجتماعية وتفسير الكتاب المقدس، حتى لُقّب بـ«الذهبي الفم» بسبب بلاغته. انتقل لاحقًا إلى القسطنطينية وأصبح بطريركًا لها، لكن خلافاته مع البلاط وبعض رجال الكنيسة أدت إلى عزله ونفيه، وتوفي أثناء الطريق إلى منفاه. وبقيت مؤلفاته وخطبه جزءًا مهمًا من التراث المسيحي الشرقي، خصوصًا في التقليد البيزنطي.

أفرام السرياني

كان أفرام السرياني من أبرز كتّاب المسيحية السريانية في القرن الرابع. ارتبط بمدينة الرها في بلاد الرافدين، لكنه ترك تأثيرًا واسعًا في المسيحية السريانية التي امتدت إلى بلاد الشام. كتب الأناشيد والصلوات والتفاسير والنصوص اللاهوتية بالسريانية، واستخدم الشعر والترنيم وسيلة للتعليم الديني. وتكمن أهميته في أنه ساهم في تحويل السريانية إلى لغة أدبية ولاهوتية غنية، وأصبح شعره جزءًا من التراث الكنسي السرياني.

مارون

يرتبط اسم مارون بأصول التقليد الرهباني الذي نشأت منه الكنيسة المارونية. عاش مارون في أواخر القرن الرابع وبدايات القرن الخامس، واتخذ حياة نسكية تقوم على العزلة والصلاة. وبعد وفاته انتشرت جماعته الرهبانية، وأصبح دير مار مارون مركزًا مهمًا لأتباعه. ومع التحولات السياسية

والدينية في سورية، انتقل مركز الثقل الماروني تدريجيًا نحو لبنان، حيث تشكل مجتمع ماروني قوي حافظ على تقاليده وكنيسته.

سمعان العمودي

كان سمعان العمودي من أشهر نسّاك سورية في القرن الخامس الميلادي. اشتهر باتخاذه عمودًا مرتفعًا مكانًا للإقامة والتعبد، ولذلك عُرف باسم العمودي. عاش قرب أنطاكية، واجتذب إليه عددًا كبيرًا من الزوار الذين كانوا يقصدونه للاستماع إلى مواعظه وطلب المشورة الدينية. وأصبحت سيرته مثالًا شهيرًا على أشكال الزهد القاسية التي ظهرت في سورية خلال ازدهار الحركة الرهبانية.

يعقوب البرادعي

كان يعقوب البرادعي أحد أهم الشخصيات في تاريخ الكنيسة السريانية غير الخلقيدونية خلال القرن السادس. في فترة كانت فيها هذه الجماعات تعاني من ضغوط سياسية وكنسية، قام برحلات واسعة بين مناطق سورية وبلاد الرافدين ومصر، ورسم عددًا كبيرًا من الأساقفة والكهنة، وساهم في إعادة تنظيم الكنيسة. ولهذا كان تأثيره حاسمًا في بقاء التسلسل الكنسي السرياني واستمراره، رغم القيود التي فرضتها السلطة البيزنطية على أتباع التقليد غير الخلقيدوني.

يوحنا الدمشقي

كان يوحنا الدمشقي من أبرز علماء المسيحية في القرن الثامن. عاش في دمشق في بداية حياته، ثم ارتبط لاحقًا بدير مار سابا قرب القدس، حيث تفرغ للكتابة اللاهوتية. اشتهر بدفاعه عن تكريم الأيقونات خلال فترة الصراع

البيزنطي حولها، وكتب مؤلفات لاهوتية وفلسفية أصبحت من أهم أعمال الفكر المسيحي الشرقي. وتكمن أهميته أيضًا في أنه عاش في ظل الحكم الإسلامي، وكتب في بيئة كانت فيها المسيحية والإسلام متجاورين بصورة مباشرة.

وبهذا تنتهي رحلة المسيحية في بلاد الشام، من الجماعات الأولى في القدس وأنطاكية ودمشق، إلى الكنائس المتعددة التي تحمل اليوم تراثًا تشكل جزء كبير منه على أرض الشام نفسها.

نشأة الإسلام

ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي في شبه الجزيرة العربية، في بيئة دينية واجتماعية واقتصادية كانت تضم معتقدات وتقاليد متعددة. كان العرب قبل الإسلام يمارسون عبادات وثنية متنوعة، إلى جانب وجود جماعات يهودية ومسيحية، وأفراد عُرفوا بالحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام وتمسكوا بفكرة التوحيد.

كانت مكة أهم المراكز الدينية والتجارية في غرب الجزيرة العربية، واحتلت الكعبة مكانة دينية لدى القبائل العربية، إذ كانت تضم عددًا كبيرًا من الأصنام التي ارتبطت بعبادات مختلفة.

وفي هذه البيئة ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب في مكة نحو سنة ٥٧٠م، ونشأ يتيم الأب، ثم توفيت أمه وهو صغير، فكفله جده عبد المطلب، وبعد وفاته كفله عمه أبو طالب. عمل محمد في التجارة، وعُرف بين قومه بالأمانة، ثم تزوج خديجة بنت خويلد، وكانت تاجرة ذات مكانة في مكة.

بداية الوحي

بحسب المصادر الإسلامية، بدأ محمد يتعبد في غار حراء قرب مكة، وهناك تلقى أول وحي عن طريق جبريل. وتربط الرواية الإسلامية بداية الوحي بسورة العلق، التي تبدأ بالأمر بالقراءة. بعد ذلك بدأت مرحلة الدعوة إلى عبادة الله الواحد، وترك عبادة الأصنام، والإيمان بالبعث والحساب، والدعوة إلى الصدق والعدل ومساعدة الفقراء والمحتاجين. كانت الدعوة في بدايتها محدودة بين المقربين، ثم أعلن محمد دعوته على نطاق أوسع داخل مكة.

الدعوة المكية

واجهت الدعوة الجديدة معارضة شديدة من قريش، خصوصًا بعدما بدأت تنتقد عبادة الأصنام والنظام الديني والاجتماعي السائد في مكة.

تعرض بعض المسلمين الأوائل للتعذيب والاضطهاد، واضطر قسم منهم إلى الهجرة إلى الحبشة، حيث وجدوا حماية لدى ملكها المعروف في المصادر الإسلامية باسم النجاشي.

وفي مكة استمرت الدعوة رغم المعارضة، وانضم إليها أفراد من قبائل مختلفة. وكان من أبرز الذين أسلموا في المرحلة المكية أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم من الصحابة.

عام الحزن

شهدت المرحلة المكية وفاة خديجة بنت خويلد وأبي طالب، وكان كلاهما من أهم الأشخاص الذين أحاطوا بمحمد بالدعم والحماية. وسُمّيت تلك الفترة في المصادر الإسلامية بـعام الحزن.

وبعد اشتداد المعارضة في مكة اتجه محمد إلى الطائف، حيث دعا قبيلة ثقيف إلى الإسلام، لكنها رفضت دعوته. ثم بدأت مرحلة جديدة عندما التقى عدد من أهل يثرب بمحمد، واعتنقوا الإسلام وتعهدوا بنصرته.

الهجرة إلى المدينة

كانت يثرب، التي أصبحت تُعرف لاحقًا بالمدينة المنورة، تضم قبيلتي الأوس والخزرج، إلى جانب جماعات يهودية. وبعد بيعات العقبة، أذن محمد لأتباعه بالهجرة من مكة إلى يثرب.

وفي سنة ٦٢٢م غادر محمد مكة متجهًا إلى يثرب، ووصل إليها بعد رحلة الهجرة. شكّلت الهجرة نقطة تحول أساسية في تاريخ الإسلام؛ فمنذها لم تعد الجماعة المسلمة مجرد جماعة دينية مضطهدة في مكة، بل أصبحت مجتمعًا منظمًا له مركز سياسي واجتماعي في المدينة. ولهذا اتخذ المسلمون لاحقًا سنة الهجرة بداية للتقويم الهجري.

بناء مجتمع المدينة

بعد وصوله إلى المدينة أقام محمد مسجدًا أصبح مركزًا للعبادة والاجتماع وإدارة شؤون المجتمع. كما نظم العلاقات بين المهاجرين من مكة والأنصار من سكان المدينة، وظهرت في هذه المرحلة وثيقة عُرفت في المصادر باسم «صحيفة المدينة»، ونظمت العلاقات بين الجماعات المختلفة في المدينة.

وخلال السنوات التالية أصبحت المدينة مركز الدولة الإسلامية الناشئة.

الصراع مع مكة

لم تنتهِ المواجهة بين المسلمين وقريش بعد الهجرة. وقعت معركة بدر سنة ٦٢٤م، وانتهت بانتصار المسلمين على قوة من قريش.

وفي سنة ٦٢٥م وقعت معركة أُحد، التي تمكن فيها جيش قريش من إلحاق خسائر كبيرة بالمسلمين.

ثم جاءت غزوة الخندق سنة ٦٢٧م، عندما تحالفت قوى من مكة وقبائل أخرى وحاصرت المدينة، لكن الحصار انتهى دون إسقاطها. ومع مرور الوقت تغير ميزان القوى لمصلحة المسلمين.

صلح الحديبية

في سنة ٦٢٨م خرج محمد وأتباعه باتجاه مكة لأداء العمرة، وانتهت المفاوضات مع قريش بعقد صلح الحديبية. أوقف الصلح القتال بين الطرفين لفترة، وسمح للمسلمين بزيادة اتصالاتهم بالقبائل العربية. وبعد نقض التحالف المرتبط بالصلح، تحرك المسلمون نحو مكة.

فتح مكة

دخل محمد مكة سنة ٦٣٠م، وأصبحت المدينة تحت الحكم الإسلامي. وأزيلت الأصنام من الكعبة، وأصبحت مكة المركز الديني الرئيسي للمسلمين.

بعد فتح مكة دخلت قبائل عربية عديدة في الإسلام، وأصبح نفوذ الدولة الإسلامية يمتد بسرعة خارج المدينة ومكة.

وفاة محمد

في سنة ٦٣٢م أدى محمد حجة عُرفت باسم حجة الوداع، ثم عاد إلى المدينة. توفي في المدينة في العام نفسه، ودُفن في الموضع الذي أصبح لاحقًا داخل المسجد النبوي.

بعد وفاته بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام، إذ تولى أبو بكر قيادة الجماعة الإسلامية، وبدأت الدولة تتوسع خارج شبه الجزيرة العربية.

الإسلام يتجه نحو بلاد الشام

كانت بلاد الشام معروفة للعرب قبل ظهور الإسلام، وكانت العلاقات التجارية بين الحجاز ومدن الشام قديمة.

وكان محمد نفسه قد ارتبط بالشام قبل البعثة من خلال رحلات التجارة، كما تذكر المصادر الإسلامية لقاءه في طفولته أو شبابه بالراهب بحيرا، وإن كانت تفاصيل هذه القصة محل نقاش بين الباحثين ولا تعتمد عليها الرواية التاريخية الحديثة بوصفها واقعة ثابتة.

أما بعد ظهور الدولة الإسلامية، فقد أصبحت بلاد الشام أحد أهم الاتجاهات التي تحركت إليها الجيوش الإسلامية.

وكانت المنطقة في ذلك الوقت تحت الحكم البيزنطي، وكانت مدنها الكبرى مثل دمشق وحمص وحلب وأنطاكية والقدس مراكز سياسية واقتصادية ودينية مهمة.

وبذلك بدأ فصل جديد من تاريخ الشام انتقال المنطقة من الحكم البيزنطي إلى الحكم الإسلامي، وهو تحول سياسي وديني ترك أثرًا عميقًا في تاريخها اللاحق.

فتح بلاد الشام ودخولها في الدولة الإسلامية

لم يكن انتقال الإسلام إلى بلاد الشام حدثًا مفاجئًا بدأ من الصفر بعد وفاة النبي محمد، فالعلاقة بين عرب الجزيرة وبلاد الشام كانت قديمة، وكانت القوافل التجارية تتحرك بين الحجاز ومدن الشام منذ قرون. كما أن القبائل العربية المنتشرة على أطراف البادية الشامية، وفي مقدمتها الغساسنة، كانت مرتبطة سياسيًا وعسكريًا بالإمبراطورية البيزنطية. لذلك وجد المسلمون، عندما بدأوا التحرك شمالًا، منطقة لها حدود سياسية وعسكرية واضحة، ومدن كبيرة، وحاميات بيزنطية، ومجتمعات مسيحية متعددة التقاليد. وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد خرجت قبل ذلك بسنوات قليلة من حرب طويلة مع الدولة

الساسانية. فقد تمكن الفرس في بدايات القرن السابع من السيطرة على أجزاء واسعة من الشام وفلسطين، ثم استعاد الإمبراطور هرقل المناطق التي فقدتها بيزنطة. تركت هذه الحرب آثارًا عميقة في المنطقة، وأضعفت موارد الدولة البيزنطية وقدرتها العسكرية، وهو عامل سيظهر أثره خلال الفتح الإسلامي.

من مؤتة إلى حدود الشام

كان أول احتكاك عسكري كبير بين المسلمين والقوى المرتبطة ببيزنطة في بلاد الشام في معركة مؤتة سنة ٦٢٩م، في المنطقة الواقعة جنوب بلاد الشام. أرسل النبي محمد جيشًا بقيادة زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة بعد مقتل القادة تباعًا. وبعد استشهادهم تولى خالد بن الوليد القيادة، وتمكن من إخراج الجيش الإسلامي من المواجهة والعودة به إلى المدينة.

لم تؤدِّ مؤتة إلى فتح منطقة واسعة، لكنها كشفت للمسلمين طبيعة القوة التي سيواجهونها شمال الجزيرة، وأظهرت أهمية الحدود الجنوبية لبلاد الشام.

وفي أواخر حياة النبي خرج المسلمون أيضًا إلى تبوك سنة ٦٣٠م تقريبًا، في حملة وصلت إلى شمال الحجاز على طريق الشام. لم تقع معركة كبرى مع الجيش البيزنطي، لكن الحملة أكدت أن الحدود الشمالية أصبحت جزءًا من المجال الذي بدأت الدولة الإسلامية تتحرك فيه.

بداية الفتح في عهد أبي بكر

بعد وفاة النبي سنة ٦٣٢م تولى أبو بكر الصديق قيادة الدولة الإسلامية. وبعد انتهاء حروب الردة، اتجه اهتمامه إلى الجبهة الشمالية، فأرسل الجيوش نحو بلاد الشام.

وتذكر المصادر التقليدية أن أربعة جيوش أُرسلت في اتجاهات مختلفة، بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص. ثم انضم خالد بن الوليد إلى جبهة الشام بعد انتقاله من العراق.

كان الهدف السيطرة على الطرق والمدن الرئيسية وإضعاف الحاميات البيزنطية، ولم يكن الطريق إلى ذلك سهلًا؛ فالمسلمون كانوا يواجهون دولة إمبراطورية تملك مدنًا محصنة وقوات نظامية، إضافة إلى قوات عربية حليفة لبيزنطة في المناطق الحدودية.

أجنادين وبداية الانهيار البيزنطي

وقعت معركة أجنادين سنة ٦٣٤م في فلسطين، وكانت من أبرز المواجهات الأولى بين المسلمين والبيزنطيين في بلاد الشام. قاد خالد بن الوليد القوات الإسلامية، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، الأمر الذي فتح الطريق أمامهم نحو مناطق واسعة من فلسطين وجنوب الشام. وفي العام نفسه توفي أبو بكر، وتولى عمر بن الخطاب الخلافة. وفي عهده اتسعت العمليات العسكرية، وأصبحت الجبهة الشامية أكثر تنظيمًا.

كان خالد بن الوليد من أبرز القادة في هذه المرحلة، لكن عمر أعاد ترتيب القيادة، وأصبح أبو عبيدة بن الجراح القائد العام لجبهة الشام، مع استمرار خالد في قيادة العمليات العسكرية لفترة من الزمن.

فتح دمشق

كانت دمشق من أهم أهداف الفتح؛ فهي مدينة قديمة ذات موقع استراتيجي، تقع عند ملتقى طرق تصل جنوب بلاد الشام بوسطها وشمالها، كما كانت من أهم مدن الإقليم البيزنطي.

حاصر المسلمون المدينة، وتختلف الروايات في تفاصيل فتحها وتوقيت بعض مراحل الحصار والدخول، لكن السيطرة عليها تمت في منتصف ثلاثينيات القرن السابع، وأصبحت بعد ذلك قاعدة أساسية للمسلمين في الشام.

لم يكن سقوط دمشق مجرد خسارة لمدينة واحدة؛ فقد أدى إلى فتح الطريق نحو الداخل الشامي، وأصبح المسلمون قادرين على التحرك باتجاه حمص وفلسطين ومناطق أخرى.

فحل وحمص وبقية مدن الشام

تواصلت المواجهات في أكثر من جبهة. ففي منطقة فحل قرب بيسان وقعت مواجهة مهمة بين المسلمين والبيزنطيين، ثم اتجهت العمليات شمالًا نحو حمص، إحدى أهم مدن الداخل الشامي. دخلت حمص في الدولة الإسلامية بعد حصار ومفاوضات، وأصبحت من المراكز المهمة في الإدارة الجديدة. كما امتد النفوذ الإسلامي إلى مناطق واسعة من فلسطين والأردن.

أما المدن الساحلية فكان وضعها أكثر تعقيدًا؛ إذ بقيت بعض المواقع الساحلية والحصون مرتبطة بالقوة البيزنطية فترة أطول من المدن الداخلية، بسبب قدرة البيزنطيين على استخدام البحر وإمداد الحاميات الساحلية.

معركة اليرموك

بلغ الصراع ذروته في معركة اليرموك سنة ٦٣٦م، بالقرب من نهر اليرموك في المنطقة الواقعة اليوم بين سوريا والأردن. واجه الجيش الإسلامي قوة بيزنطية كبيرة، وكانت المعركة من أهم المعارك في تاريخ المنطقة. تولى أبو عبيدة القيادة العامة، وكان خالد بن الوليد أحد أبرز القادة الميدانيين.

انتهت المعركة بانتصار المسلمين، وكان أثرها حاسمًا؛ إذ فقدت بيزنطة قدرتها على الاحتفاظ بمعظم بلاد الشام الداخلية، ولم تعد قادرة على إعادة بناء جبهة عسكرية كبيرة تستعيد بها المنطقة بسهولة. ومن هنا أصبح الانتقال من السيطرة العسكرية على مدن منفردة إلى تثبيت الحكم في معظم بلاد الشام ممكنًا.

القدس ودخول المدينة في الدولة الإسلامية

كانت القدس حالة خاصة بسبب مكانتها الدينية والسياسية. وبعد تراجع القوة البيزنطية في المنطقة حوصرت المدينة، ثم جرى التفاوض على تسليمها.

وتربط الروايات الإسلامية دخول القدس بالخليفة عمر بن الخطاب، الذي قدم إليها لتسلم المدينة بعد الاتفاق على شروط الاستسلام.

حافظت المدينة على طابعها الديني، وبقي سكانها المسيحيون فيها، ولم يتحول السكان جميعًا إلى الإسلام بمجرد انتقال السلطة. وهذه نقطة مهمة لفهم تاريخ الشام؛ فالفتح الإسلامي كان في البداية تحولًا سياسيًا وعسكريًا، أما التحول الديني واللغوي للسكان فكان عملية طويلة امتدت لقرون.

سقوط أنطاكية

بعد خسارة بيزنطة لمعظم مناطق الشام الداخلية، تراجعت قدرتها على الدفاع عن الشمال. وسقطت أنطاكية، إحدى أعظم مدن الشام وأهم مراكز المسيحية الشرقية، في أواخر ثلاثينيات القرن السابع. كان سقوطها ذا أهمية خاصة؛ فهي لم تكن مدينة عادية، بل مركزًا سياسيًا ودينيًا وثقافيًا كبيرًا، وكانت صلتها بالداخل الشامي وبالأناضول تجعلها آخر المواقع الكبرى التي يمكن أن تشكل قاعدة بيزنطية في المنطقة.

وبسقوطها استقر الحكم الإسلامي على معظم بلاد الشام، بينما ظلت بعض المناطق الحدودية والساحلية تشهد صراعًا متقطعًا مع البيزنطيين.

من الفتح إلى الحكم

لم تتوقف المسألة عند السيطرة العسكرية. فقد احتاجت الدولة الإسلامية إلى تنظيم الأراضي والمدن التي دخلت تحت حكمها.

أُبقي على كثير من السكان في مدنهم وأراضيهم، وجرى عقد اتفاقات مع عدد من المدن والبلدات، مقابل الخراج أو الجزية بحسب وضع السكان والاتفاق المعقود. واستمرت الكنائس والمؤسسات المسيحية في العمل بدرجات متفاوتة بحسب المكان والمرحلة السياسية.

وكانت العربية في البداية لغة السلطة والإدارة الجديدة إلى جانب اللغات التي كانت مستخدمة أصلًا، ومنها الآرامية واليونانية والسريانية. ولم تصبح العربية لغة السكان جميعًا في وقت واحد، بل بدأت عملية التعريب تدريجيًا، وارتبطت بالإدارة والجيش والتجارة ثم بالحياة اليومية.

وكذلك لم يحدث اعتناق جماعي وفوري للإسلام. ظل المسيحيون يشكلون نسبة كبيرة من سكان بلاد الشام لعدة قرون، في حين ازداد عدد المسلمين تدريجيًا مع مرور الزمن.

وهكذا انتهى الفتح العسكري للشام تقريبًا في العقود الأولى من القرن السابع، لكن دخول الشام في الحضارة الإسلامية كان قد بدأ للتو؛ إذ ستشهد المنطقة بعد ذلك تحولًا إداريًا ولغويًا وسياسيًا عميقًا، وسيكون لدمشق دور غير مسبوق عندما تصبح عاصمة الدولة الأموية.

الشام في عهد الخلفاء الراشدين

بعد استقرار الفتح الإسلامي في معظم بلاد الشام، أصبحت المنطقة واحدة من أهم أقاليم الدولة الإسلامية. وقُسّمت إداريًا إلى أجناد، وكان من أبرزها جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن، وجند فلسطين، ثم ظهر جند قنسرين في شمال الشام في مرحلة لاحقة. وأصبحت دمشق مركزًا إداريًا وعسكريًا رئيسيًا، بينما احتفظت مدن أخرى بمكانتها القديمة، مثل حمص والقدس وأنطاكية وحلب. ولم تختفِ البنية السكانية السابقة مع تغير السلطة؛ فقد بقيت جماعات مسيحية كبيرة، إلى جانب جماعات يهودية، كما استمر استخدام اللغات المحلية، وبدأت العربية تتوسع تدريجيًا.

وفي عهد عمر بن الخطاب اتجهت الدولة إلى تثبيت الإدارة بدل الاكتفاء بالسيطرة العسكرية. فتم تنظيم موارد الأراضي والضرائب، وإعادة توزيع القوات، وربط مدن الشام بمركز الدولة في المدينة.

معاوية بن أبي سفيان واليًا على الشام

كان معاوية بن أبي سفيان من أبرز الشخصيات التي ارتبط تاريخها بالشام في هذه المرحلة. عيّنه عمر واليًا على دمشق، ثم أصبح نفوذه يشمل مناطق أوسع من الشام. وخلال سنوات ولايته الطويلة، تحولت دمشق إلى مركز سياسي وعسكري مهم. اهتم معاوية بتنظيم الجيش، ولا سيما القوات التي تعمل على الحدود البيزنطية، وبناء القوة البحرية التي استخدمتها الدولة في شرق البحر المتوسط. وكانت المواجهة مع بيزنطة مستمرة؛ فلم يكن سقوط مدن الشام نهاية الصراع، بل استمرت الغارات والحملات العسكرية عبر الحدود، خصوصًا باتجاه الأناضول.

الشام في الفتنة الأولى

بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان سنة ٦٥٦م، دخلت الدولة الإسلامية في أزمة سياسية عُرفت بالفتنة الأولى.

بايع أهل المدينة علي بن أبي طالب خليفة، بينما رفض معاوية، الذي كان واليًا على الشام، مبايعته قبل الاقتصاص من قتلة عثمان.

وتواجه الطرفان في معركة صفين سنة ٦٥٧م على ضفاف الفرات قرب الرقة. وانتهت المعركة بالتحكيم، لكن الخلاف لم ينتهِ، بل أدى إلى انقسام سياسي عميق داخل الدولة الإسلامية. وبعد مقتل علي سنة ٦٦١م، آلت الخلافة إلى معاوية، وبذلك بدأت الدولة الأموية.

دمشق عاصمة الدولة الأموية

كان انتقال مركز الحكم إلى دمشق أهم تحول سياسي شهدته بلاد الشام منذ الفتح. ففي سنة ٦٦١م أصبحت دمشق عاصمة الدولة الأموية، وانتقل مركز القرار السياسي من الجزيرة العربية إلى الشام. ومنذ ذلك الوقت لم تعد الشام مجرد إقليم مفتوح حديثًا، بل أصبحت مركزًا لإمبراطورية امتدت من حدود الصين وآسيا الوسطى شرقًا إلى الأندلس والمغرب غربًا.

اختيار دمشق عاصمة لم يكن مصادفة. فالمدينة كانت مركزًا قديمًا ذا بنية إدارية وتجارية قوية، وقريبة من طرق الأناضول والجزيرة والعراق وفلسطين، كما كانت مرتبطة بمناطق زراعية واسعة تؤمن موارد للدولة.

وأصبحت دمشق مقر الخليفة والدواوين والقيادات العسكرية، وبدأت فيها مشاريع عمرانية كبيرة غيّرت شكل المدينة.

عبد الملك بن مروان وتعريب الدولة

شهد عهد الخليفة عبد الملك بن مروان تحولًا إداريًا بالغ الأهمية. فقد اتجه إلى تعريب دواوين الدولة، وأصبحت العربية اللغة الأساسية للإدارة بدل اليونانية في بلاد الشام والفارسية في العراق والمناطق الشرقية. ولم يكن التعريب مجرد تغيير في لغة المراسلات، بل كان جزءًا من بناء جهاز دولة أكثر توحيدًا. وفي عهده أيضًا ضُربت العملة الإسلامية المستقلة، وأصبحت للدولة رموزها النقدية والإدارية الخاصة.

الجامع الأموي

من أعظم آثار العصر الأموي في الشام الجامع الأموي في دمشق. كان الموقع قبل الإسلام مرتبطًا بمجمع ديني قديم، ثم أصبح في العصر الروماني معبدًا، وبعد انتشار المسيحية أقيمت فيه كنيسة يوحنا المعمدان. وبعد الفتح الإسلامي استُخدم الموقع بطريقة مشتركة لفترة، قبل أن يُضم الجزء المسيحي إلى المسجد في عهد الوليد بن عبد الملك. بدأ بناء الجامع الأموي في عهد الوليد، واكتمل في أوائل القرن الثامن. ولم يكن المسجد مجرد مكان للصلاة؛ فقد أصبح رمزًا لعاصمة الدولة، ومركزًا دينيًا وعمرانيًا وفنيًا، وزُين بالفسيفساء والنقوش والعمارة التي جمعت عناصر من تقاليد شامية وبيزنطية وإسلامية. وبقي الجامع أحد أبرز معالم دمشق حتى العصر الحديث.

الوليد بن عبد الملك واتساع العمران

شهد عهد الوليد بن عبد الملك توسعًا عمرانيًا كبيرًا في بلاد الشام. فلم يقتصر الاهتمام على دمشق، بل ظهرت مشاريع في مدن ومناطق مختلفة، وأنشئت الطرق والمنشآت والمرافق المرتبطة بحركة الدولة والجيوش.

كما ازدهرت المدن المرتبطة بالطريق بين دمشق والبادية، وازدادت أهمية بعض المواقع الصحراوية التي استخدمها الأمويون مراكز للإقامة والإدارة.

ومن أشهر الآثار المرتبطة بهذه المرحلة قصر الحير الشرقي والغربي في بادية الشام، إضافة إلى عدد من القصور والمنشآت التي عُرفت اليوم باسم العمارة الأموية الصحراوية.

المسيحيون في العصر الأموي

استمر المسيحيون في العيش في مدن الشام وقراها خلال العصر الأموي، ولم يؤدِّ انتقال العاصمة إلى دمشق إلى اختفائهم.

وكانت الطوائف المسيحية متعددة، واستمرت الأديرة والكنائس في مناطق مختلفة. كما دخل بعض المسيحيين في أجهزة الدولة، واشتهرت أسر مسيحية تولت أعمالًا إدارية وطبية وترجمية.

ومن أبرز الشخصيات يوحنا الدمشقي، الذي عاش في دمشق في بدايات العصر العباسي بعد أن كانت أسرته مرتبطة بالإدارة الأموية، ثم أصبح من أشهر اللاهوتيين المسيحيين في الشرق.

وفي الوقت نفسه، بدأت العربية تتحول تدريجيًا إلى لغة مشتركة بين السكان، وإن بقيت السريانية واليونانية ولغات أخرى مستخدمة في البيئات الدينية والمحلية.

نهاية الحكم الأموي في الشام

بلغت الدولة الأموية أوسع امتداد لها في النصف الأول من القرن الثامن، لكن الصراعات السياسية والثورات وتعدد مراكز المعارضة أضعفتها.

وفي سنة ٧٥٠م انتهى الحكم الأموي بعد انتصار العباسيين، وانتقل مركز الخلافة إلى العراق، وأصبحت بغداد لاحقًا العاصمة الرئيسية للدولة الجديدة.

كان سقوط الأمويين نهاية عصر كانت فيه دمشق عاصمة العالم الإسلامي، لكنه لم يكن نهاية أهمية الشام. فقد بقيت دمشق وحلب وحمص والقدس وأنطاكية وغيرها من المدن مراكز مهمة، واستمرت الشام منطقة ذات ثقل اقتصادي وديني وثقافي، وإن لم تعد مركز الخلافة السياسي.

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ أديان الشام حيث الشام في العصر العباسي وما بعده، وتطور الحياة الدينية المسيحية واليهودية والإسلامية داخل مدن أصبحت تتغير لغويًا وسياسيًا وثقافيًا.

الشام في العصر العباسي والتحولات الدينية

بعد سقوط الدولة الأموية سنة ٧٥٠م انتقل مركز الخلافة إلى العراق، وتراجعت دمشق عن مكانتها عاصمةً للدولة، لكن الحياة الدينية في الشام لم تتوقف، بل دخلت مرحلة جديدة اتسمت بتعدد المراكز السياسية والدينية وازدياد التفاعل بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

لم تعد دمشق وحدها صاحبة الدور الأبرز؛ فقد احتفظت حلب وحمص والقدس وأنطاكية بأهميتها، بينما أصبحت مدن أخرى مرتبطة بالطرق التجارية والعسكرية التي تصل العراق بالبحر المتوسط.

المسيحيون في العصر العباسي

ظل المسيحيون من أكبر الجماعات الدينية في بلاد الشام، وخصوصًا في المناطق التي احتفظت فيها المجتمعات القديمة ببنيتها المحلية.

واستمرت الكنائس والأديرة في أداء وظائفها الدينية، وبقيت البطريركيات والمراكز الكنسية مرتبطة بمدن الشام الكبرى. كما واصل المسيحيون استخدام السريانية في عدد من البيئات الدينية، في حين أخذت العربية تنتشر بينهم تدريجيًا.

ولم يكن انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين يعني انتهاء وجود المسيحيين في الإدارة أو الثقافة. فقد ظل عدد من المسيحيين يعملون في الطب والكتابة والإدارة، وازدادت أهمية بعض الأسر المسيحية في المجال الطبي والعلمي.

وكانت معرفة اللغات المتعددة ميزة مهمة في هذه البيئة؛ فالسريانية كانت وسيطًا رئيسيًا في نقل كثير من المؤلفات اليونانية إلى العربية، ولا سيما في الطب والفلسفة والعلوم.

يوحنا الدمشقي

من أبرز الشخصيات المسيحية التي عاشت في هذه المرحلة يوحنا الدمشقي، الذي ولد في دمشق في النصف الثاني من القرن السابع، ونشأ في بيئة إدارية مسيحية.

ترك العمل الإداري واتجه إلى الحياة الدينية في دير مار سابا قرب القدس، وأصبح لاحقًا من أهم المدافعين عن العقيدة المسيحية الشرقية، خصوصًا في الجدل المتعلق بالصور والأيقونات.

وكانت كتاباته مهمة في تاريخ اللاهوت المسيحي الشرقي، كما أنه يمثل مرحلة مهمة انتقل فيها الفكر المسيحي في الشام إلى التعبير بصورة متزايدة باللغة العربية إلى جانب اليونانية والسريانية.

اليهود في العصر العباسي

استمرت الجماعات اليهودية في عدد من مدن الشام، وخصوصًا في المراكز التجارية الكبرى. وكان وجود اليهود في المنطقة أقدم بكثير من العصر الإسلامي، ولذلك لم تختفِ مجتمعاتهم مع تغير الدول. عاشوا في أحياء ومجتمعات خاصة، وأقاموا المعابد والمدارس، وشاركوا في التجارة والحرف وبعض المهن. وكانت القدس ذات مكانة خاصة بالنسبة إليهم، بينما ارتبطت جماعات يهودية أخرى بدمشق وحلب ومدن الساحل.

واستمر إنتاج الأدب الديني اليهودي، كما بقيت التقاليد الحاخامية أساس الحياة الدينية للجماعات اليهودية، مع ازدياد استخدام العربية في الحياة اليومية والفكرية.

القدس ومكانتها الدينية

احتفظت القدس بمكانتها لدى الديانات الثلاث. فبالنسبة إلى المسلمين ارتبطت بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة وبحادثة الإسراء والمعراج، وبقيت المدينة مقصدًا للحجاج والزوار.

أما المسيحيون فكانت القدس مركزًا للحج إلى الأماكن المرتبطة بحياة المسيح وموته وقيامته، وفي مقدمتها كنيسة القيامة.

وظلت المدينة كذلك ذات مكانة مركزية في الذاكرة الدينية اليهودية، باعتبارها موقع الهيكل القديم.

وهكذا بقيت القدس واحدة من أكثر مدن العالم كثافة في الرمزية الدينية، رغم تغير القوى السياسية التي حكمتها.

المدارس والأديرة والمراكز الدينية

مع مرور الزمن أصبحت المدن الشامية مراكز للتعليم الديني. ظهرت حلقات العلم في المساجد، وتطورت لاحقًا المؤسسات التعليمية الإسلامية، بينما حافظت الكنائس والأديرة على مدارسها الدينية، واستمرت المؤسسات اليهودية في تعليم النصوص والتقاليد الدينية.

ولم تكن الأديرة المسيحية أماكن للعبادة فقط، بل كانت في بعض المناطق مراكز للنسخ والتعليم وحفظ الكتب. وكان هذا الدور مهمًا في الحفاظ على التراث السرياني واليوناني ونقله إلى الأجيال اللاحقة.

وفي البيئة الإسلامية ازدهرت حلقات الفقه والحديث واللغة، وظهرت مدارس واتجاهات فكرية متعددة، فأصبحت الشام جزءًا من الحياة العلمية الواسعة للعالم الإسلامي.

التصوف في بلاد الشام

ظهر التصوف الإسلامي وتطور في الشام ضمن الحركة الصوفية الأوسع في العالم الإسلامي. وكانت دمشق والقدس وحلب من المدن التي عرفت العلماء والزهاد والمتصوفة، ثم ازداد حضور الطرق الصوفية في العصور اللاحقة.

واعتمد التصوف على الزهد والعبادة والذكر والتربية الروحية، وظهرت حول بعض الشيوخ حلقات من المريدين، ثم تطورت هذه التقاليد لاحقًا إلى طرق ومؤسسات أكثر تنظيمًا.

التفاعل بين الأديان

لم تكن الحياة الدينية في الشام قائمة على جزر منفصلة تمامًا. فالمسلمون والمسيحيون واليهود عاشوا في المدن نفسها، وتعاملوا في الأسواق والوظائف والمهن، كما حدث تبادل ثقافي ولغوي واسع.

وفي المجال الفكري كان تأثير التراث المسيحي والسرياني مهمًا في حركة الترجمة التي ازدهرت في الدولة العباسية، بينما استفاد علماء من مختلف الخلفيات من البيئة العلمية المشتركة.

لكن هذا التعايش لم يكن يعني المساواة القانونية الكاملة بين الجماعات، إذ كان غير المسلمين يعيشون ضمن نظام قانوني مختلف عن المسلمين، مع اختلاف تطبيق القيود والامتيازات بحسب الفترة والحاكم والمدينة.

كما شهدت بعض العصور توترات وقيودًا واضطهادات، في حين اتسمت فترات أخرى بقدر أكبر من الاستقرار. لذلك لا يصح وصف العصر العباسي كله بأنه عصر تسامح مطلق، ولا بأنه عصر اضطهاد دائم؛ فقد تغيرت الظروف من زمن إلى آخر.

من العباسيين إلى القوى الإقليمية

مع ضعف السلطة العباسية في بلاد الشام، دخلت المنطقة في مراحل من التنافس بين قوى مختلفة، من الطولونيين والإخشيديين إلى الفاطميين ثم السلاجقة وغيرهم. وكان لهذا التغير السياسي أثر مباشر في المدن والمراكز الدينية، خصوصًا القدس ودمشق وحلب وأنطاكية. ثم جاءت الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر لتفتح مرحلة جديدة تمامًا، إذ تحولت

بلاد الشام إلى ساحة صراع بين قوى إسلامية ومسيحية، وأصبحت المدن المقدسة والأماكن الدينية في قلب هذا الصراع.

ومن هنا نصل إلى مرحلة ستشهد تغيرًا كبيرًا في خريطة الأديان والقوى السياسية في الشام العصر الصليبي، ثم الأيوبي والمملوكي، وما تركته هذه المراحل من أثر في المسلمين والمسيحيين واليهود وأماكنهم المقدسة.

الحروب الصليبية وأثرها الديني في بلاد الشام

في نهاية القرن الحادي عشر دخلت بلاد الشام مرحلة جديدة مع انطلاق الحملات الصليبية من أوروبا الغربية. وكان العامل الديني حاضرًا بقوة في الخطاب الذي رافق هذه الحملات، إذ دعت البابوية إلى استعادة الأراضي المقدسة، وعلى رأسها القدس.

لكن وصول الصليبيين إلى الشام جرى داخل عالم إسلامي منقسم سياسيًا بين قوى وسلالات متعددة، في حين كانت الإمبراطورية البيزنطية تسعى إلى استعادة بعض المناطق التي فقدتها. لذلك لم يكن الصراع بسيطًا بين المسيحيين والمسلمين فقط، بل تداخلت فيه مصالح بيزنطية وصليبية وإسلامية ومحلية.

سقوط القدس سنة ١٠٩٩

وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام بعد أن سيطرت على عدد من المدن والحصون، ثم اتجهت نحو القدس. وفي تموز/يوليو سنة ١٠٩٩ تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة بعد حصار استمر أسابيع. رافق سقوط القدس قتل أعداد كبيرة من سكانها، وكان المسلمون واليهود من أبرز ضحايا المجزرة، كما تعرضت المدينة لاضطراب شديد.

وبعد السيطرة عليها أقام الصليبيون مملكة القدس، وأصبحت الأماكن المقدسة جزءًا من النظام السياسي والديني الجديد.

أعيد تنظيم المؤسسات الكنسية في المدينة، وعادت البطريركية اللاتينية إلى القدس، وأصبحت كنيسة القيامة مركزًا رئيسيًا للحياة الدينية الصليبية.

وفي المقابل بقيت آثار الوجود المسيحي الشرقي في المدينة، وإن أصبحت مكانته مختلفة تحت الحكم اللاتيني.

أنطاكية وقيام الإمارات الصليبية

لم تقتصر السيطرة الصليبية على القدس. ففي شمال الشام تأسست إمارة أنطاكية بعد سقوط المدينة سنة ١٠٩٨، وأصبحت واحدة من أهم الكيانات الصليبية.

وكانت أنطاكية مدينة مسيحية قديمة ذات مكانة كبيرة، لكن الصليبيين اللاتين دخلوا إلى مدينة كان يعيش فيها مسيحيون شرقيون من تقاليد مختلفة، إضافة إلى المسلمين واليهود.

وهنا ظهر اختلاف واضح بين المسيحية اللاتينية القادمة من أوروبا وبين الكنائس الشرقية التي كانت متجذرة في المنطقة منذ القرون الأولى للمسيحية وفي الساحل قامت كيانات صليبية أخرى، أبرزها كونتية طرابلس، بينما بقيت مناطق أخرى من الشام تحت الحكم الإسلامي.

الحياة الدينية في المدن الصليبية

أعاد الصليبيون تنظيم عدد من الأماكن المقدسة بما يتوافق مع التقليد الكنسي اللاتيني. في القدس أصبحت كنيسة القيامة مركزًا للبطريركية اللاتينية،

وأنشئت الأديرة والكنائس، ووصلت جماعات دينية وعسكرية من أوروبا، مثل فرسان الهيكل وفرسان الإسبتارية.

وفي الوقت نفسه استمر وجود المسيحيين الشرقيين، لكنهم لم يكونوا دائمًا أصحاب السلطة الكنسية والسياسية التي كانت لهم قبل السيطرة اللاتينية.

أما المسلمون واليهود فقد تعرضوا في المناطق التي سيطر عليها الصليبيون إلى تغيرات كبيرة في وضعهم، وغادر كثير منهم بعض المدن، بينما استمر آخرون في مناطق مختلفة بحسب الظروف.

مواجهة نور الدين زنكي

بدأ ميزان القوى يتغير في القرن الثاني عشر مع صعود نور الدين محمود زنكي. كان نور الدين حاكمًا مسلمًا جعل من مواجهة الإمارات الصليبية مشروعًا سياسيًا وعسكريًا، لكنه ربط ذلك أيضًا بخطاب ديني واضح يدعو إلى توحيد المسلمين ومقاومة الصليبيين. أصبحت حلب ودمشق مركزين أساسيين في مشروعه.

وفي سنة ١١٥٤ تمكن نور الدين من السيطرة على دمشق، فأصبحت المدينتان، حلب ودمشق، تحت سلطة واحدة، وهو ما وفر قاعدة أقوى لمواجهة الممالك الصليبية. كما اهتم نور الدين ببناء المدارس والمساجد والمنشآت الدينية، وربط مشروعه السياسي بتعزيز المؤسسات السنية.

صلاح الدين واستعادة القدس

بعد وفاة نور الدين برز صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي أسس الدولة الأيوبية. تمكن صلاح الدين من توحيد مناطق واسعة من مصر والشام، ثم

واجه الجيش الصليبي في معركة حطين سنة ١١٨٧. وانتهت المعركة بانتصار حاسم لصلاح الدين، وانفتح الطريق أمام استعادة القدس.

وفي تشرين الأول/أكتوبر ١١٨٧ دخل المسلمون القدس بعد اتفاق على تسليم المدينة. وعلى خلاف ما حدث عند سقوط القدس سنة ١٠٩٩، لم تقع مجزرة عامة بالسكان، وسُمح لكثير من سكان المدينة بالخروج مقابل الفدية، بينما بقي بعضهم فيها. وعادت القدس إلى الحكم الإسلامي، وأعيد تنظيم بعض الأماكن المقدسة وفق التقاليد الإسلامية.

المسجد الأقصى وقبة الصخرة

بعد استعادة القدس أعاد صلاح الدين وأتباعه ترتيب عدد من المؤسسات الدينية في المدينة. أزيلت الرموز والوظائف المرتبطة بالسيطرة اللاتينية من المسجد الأقصى، وعادت الصلاة الإسلامية إليه، بينما أعيد تنظيم قبة الصخرة ضمن الحياة الدينية الإسلامية.

كما أعيدت القدس إلى موقعها السابق في شبكة المدن الإسلامية، وأصبحت المدارس الدينية والمؤسسات الوقفية جزءًا أساسيًا من الحياة فيها.

ومع ذلك لم تختفِ المسيحية من القدس، فقد بقيت الطوائف المسيحية المختلفة، واستمر وجود الحجاج والكنائس، وإن تغيرت السيطرة السياسية.

استمرار الوجود الصليبي

لم يؤدِّ سقوط القدس إلى نهاية الوجود الصليبي في الشام. استمرت مملكة القدس بقاعدة ساحلية جديدة، وظلت مدن مثل عكا وصور وطرابلس مرتبطة بالقوى الصليبية لفترات متفاوتة.

كما وقعت حملات صليبية أخرى، وتمكن الصليبيون أحيانًا من استعادة بعض المواقع، لكنهم لم يتمكنوا من استعادة القدس بصورة دائمة.

وفي المقابل استمر الصراع بين القوى الإسلامية والصليبية، وأصبحت مدن الساحل والموانئ نقاطًا أساسية في المواجهة.

اليهود في زمن الحروب الصليبية

تأثرت الجماعات اليهودية أيضًا بالحروب الصليبية. فقد تعرض اليهود في بعض المدن الأوروبية لمجازر واضطهادات أثناء انطلاق الحملات، كما تأثرت المجتمعات اليهودية في بلاد الشام بالأحداث العسكرية.

وعندما سيطر الصليبيون على القدس سنة ١٠٩٩ تعرض سكانها اليهود للقتل أو الطرد، ثم عاد الوجود اليهودي إلى المدينة في فترات لاحقة بحسب الظروف السياسية. وكانت القدس وحلب ودمشق وغيرها من مدن المنطقة مراكز للجماعات اليهودية، التي استمرت رغم التغيرات السياسية المتلاحقة.

نهاية الإمارات الصليبية

خلال القرن الثالث عشر أخذت القوى الإسلامية تستعيد ما بقي من المناطق الصليبية. وجاء المماليك لاحقًا ليكملوا هذا المسار، فسقطت المدن الساحلية تباعًا، وكانت عكا سنة ١٢٩١ آخر المعاقل الصليبية الكبرى في بلاد الشام. وبسقوط عكا انتهى الوجود السياسي الصليبي الرئيسي في الشام.

لكن آثار هذه المرحلة لم تختفِ بانتهاء الممالك الصليبية؛ فقد تركت أثرًا في عمارة المدن والحصون والكنائس والأديرة، كما أثرت في علاقة الطوائف المسيحية المختلفة بعضها ببعض، وفي ذاكرة المسلمين والمسيحيين واليهود

للقدس والأماكن المقدسة. وبذلك انتقلت بلاد الشام إلى مرحلة جديدة تحت الحكم الأيوبي ثم المملوكي، حيث أصبحت حماية المدن المقدسة وتنظيم المؤسسات الدينية جزءًا أساسيًا من شرعية الحكم.

العصر الأيوبي

بعد انتصار صلاح الدين في حطين واستعادة القدس سنة ١١٨٧م، أصبحت بلاد الشام مركز الدولة الأيوبية التي أسسها وأفراد أسرته من بعده.

ولم تستقر البلاد سياسيًا بصورة كاملة؛ فقد انقسمت الدولة الأيوبية بين أفراد الأسرة، وتنافس حكام دمشق وحلب ومصر ومناطق أخرى، بينما بقي الصليبيون مسيطرين على أجزاء من الساحل.

لكن هذه المرحلة شهدت تحولًا مهمًا في الحياة الدينية، إذ ازداد بناء المدارس السنية، وخصوصًا المدارس المرتبطة بالمذاهب الفقهية المختلفة.

المدارس الأيوبية

اهتم الأيوبيون ببناء المدارس في دمشق والقدس وحلب وغيرها من المدن. وكان الهدف منها تعليم الفقه والحديث واللغة والعلوم الدينية، كما ساعدت في ترسيخ المذهب السني بعد فترة طويلة من التنافس السياسي والمذهبي.

وفي دمشق ازداد عدد المدارس، وأصبحت المدينة من أهم مراكز التعليم السني في العالم الإسلامي. أما القدس، فاستعاد المسجد الأقصى وقبة الصخرة مكانتهما في الحياة الإسلامية، وأقيمت حولهما المؤسسات التعليمية والوقفية.

القدس في العصر الأيوبي

لم تكن استعادة القدس مجرد انتصار عسكري؛ فقد عمل الأيوبيون على إعادة تنظيم الحياة الدينية فيها. وأُنشئت المدارس والزوايا والأوقاف، وأعيد تأكيد مكانة المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

وفي الوقت نفسه استمر وجود المسيحيين في المدينة، وعادت جماعات مسيحية شرقية إلى القدس بعد مغادرة أو طرد عدد من السكان في مراحل الحرب. كما بقيت كنيسة القيامة مركزًا أساسيًا للمسيحيين، واستمر الحج المسيحي إلى المدينة. وهكذا أصبحت القدس مرة أخرى مدينة متعددة الأديان، لكن ضمن سلطة إسلامية.

المماليك وبلاد الشام

في منتصف القرن الثالث عشر انتقلت السلطة في مصر والشام إلى المماليك، وأصبحت بلاد الشام جزءًا أساسيًا من دولتهم. وكان المماليك قوة عسكرية تشكلت أساسًا من جنود مملوكين، ثم أصبحوا أصحاب السلطة السياسية في مصر والشام. واجه المماليك بقايا الوجود الصليبي على الساحل، كما واجهوا الخطر المغولي الذي وصل إلى قلب المنطقة. وكان انتصارهم على المغول في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م نقطة مهمة في تثبيت سيطرتهم على بلاد الشام.

القضاء على الوجود الصليبي

واصل المماليك حملاتهم ضد المدن الساحلية التي بقيت تحت سيطرة الصليبيين. سقطت أنطاكية سنة ١٢٦٨م، ثم سقطت طرابلس سنة ١٢٨٩م، وأخيرًا عكا سنة ١٢٩١م. وبذلك انتهى الوجود الصليبي السياسي الرئيسي

في بلاد الشام. وأصبحت المدن المقدسة والساحلية والداخلية كلها تقريبًا ضمن الدولة المملوكية، باستثناء فترات محدودة من التغيرات العسكرية.

العمارة الدينية المملوكية

شهدت دمشق والقدس وحلب ومدن أخرى ازدهارًا عمرانيًا كبيرًا خلال العصر المملوكي بُنيت المساجد والمدارس والخانات (الفنادق) والأسبلة (سبيل للمياه) والأضرحة، وأصبحت هذه المنشآت جزءًا من المشهد الحضري للمدن

وفي القدس خصوصًا كثرت المدارس المملوكية حول الحرم الشريف، حتى أصبحت المنطقة المحيطة به واحدة من أهم مراكز التعليم الإسلامي.

أما في دمشق فقد ازدادت المدارس والمساجد المرتبطة بالفقهاء والعلماء، وأصبحت المدينة مركزًا علميًا كبيرًا.

وفي حلب ظهرت منشآت دينية وعمرانية مميزة، وكان الجامع الكبير ومحيطه من أبرز مراكز الحياة الدينية في المدينة.

الأوقاف

كان نظام الوقف من أهم المؤسسات التي دعمت الحياة الدينية في العصرين الأيوبي والمملوكي. فقد كان الحكام والأمراء والأثرياء يخصصون العقارات والأراضي والأسواق والمنشآت لتوفير دخل دائم للمساجد والمدارس والأضرحة والأعمال الخيرية. وساعد ذلك على استمرار المؤسسات الدينية حتى عندما تغير الحكام. كما امتلكت الكنائس والأديرة المسيحية أوقافًا وممتلكات مرتبطة بها، وإن كان وضعها القانوني مختلفًا عن المؤسسات الإسلامية.

المسيحيون في العصر المملوكي

استمر وجود المسيحيين في بلاد الشام، لكن وضعهم تأثر بالحروب الطويلة مع القوى الصليبية. كان هناك فرق واضح بين المسيحيين المحليين الذين عاشوا في الشام منذ قرون وبين الجيوش الصليبية القادمة من أوروبا، ولم يكن من الصحيح اعتبار الاثنين جماعة واحدة.

استمرت الكنائس الشرقية، ومنها الكنائس السريانية والأرمنية واليونانية، في مدن مختلفة. كما حافظت الأديرة على وجودها، خصوصًا في المناطق الجبلية والريفية.

لكن بعض الفترات شهدت قيودًا واضطرابات ضد المسيحيين، وازدادت هذه الضغوط في أوقات التوتر السياسي والعسكري، ثم خفت في فترات أخرى. لذلك بقي الوضع متغيرًا بحسب الحاكم والمدينة والمرحلة.

اليهود في العصر المملوكي

استمرت الجماعات اليهودية في مدن الشام، وخاصة دمشق وحلب والقدس. عمل اليهود في التجارة والحرف وبعض المهن، واحتفظوا بمعابدهم ومؤسساتهم الدينية. وكانت القدس مركزًا مهمًا للعلماء والحاخامات والزوار اليهود، وإن كان عدد سكانها أقل من فترات تاريخية أخرى.

كما ظلت حلب ودمشق مرتبطتين بالشبكات التجارية اليهودية التي وصلت بلاد الشام بالمناطق المجاورة.

التصوف والزوايا

ازداد حضور التصوف في العصر المملوكي، وانتشرت الزوايا والخانقاهات في المدن. كانت الخانقاه مؤسسات مخصصة لإقامة المتصوفة وتعليمهم وممارسة العبادة، وأصبحت بعض هذه المؤسسات مدعومة بالأوقاف.

وكانت دمشق والقدس وحلب من المراكز المهمة للتصوف، وبرز عدد من الشيوخ الذين أصبح لهم أتباع ومريدون.

وفي هذه الفترة أيضًا عاش محيي الدين ابن عربي في دمشق في الجزء الأول من العصر الأيوبي، ودُفن فيها سنة ١٢٤٠م. وأصبح قبره لاحقًا من الأماكن المرتبطة بالذاكرة الصوفية للمدينة.

المدارس الفقهية

أصبح المذهب الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي حاضرًا في الحياة العلمية الشامية، وإن اختلف نفوذ كل مذهب من مدينة إلى أخرى.

وأدى وجود المدارس المتعددة إلى نشوء بيئة علمية تناقش الفقه والحديث والتفسير واللغة، وأصبحت دمشق خصوصًا مركزًا للعلماء والطلاب القادمين من مناطق مختلفة.

وكان هذا النشاط العلمي جزءًا من التحول الأكبر الذي جعل مدن الشام مراكز دينية لا تعتمد على وجود مقام أو مسجد واحد، بل على شبكة واسعة من المدارس والمساجد والزوايا والأوقاف.

نهاية العصر المملوكي

استمر الحكم المملوكي في الشام حتى بداية القرن السادس عشر. وفي سنة ١٥١٦م هزم العثمانيون المماليك في معركة مرج دابق شمال حلب، ثم دخلوا دمشق، وتتابع سقوط بقية بلاد الشام. وبذلك انتقلت المنطقة إلى الحكم العثماني، وبدأ فصل جديد امتد قرابة أربعة قرون.

ولم يكن الانتقال مجرد تغيير في السلطة؛ فقد أصبحت بلاد الشام جزءًا من إمبراطورية واسعة متعددة الأديان، وهو ما سيؤثر بصورة كبيرة في تنظيم المسلمين والمسيحيين واليهود ومؤسساتهم الدينية خلال العصر العثماني.

بلاد الشام في العصر العثماني

دخلت بلاد الشام تحت الحكم العثماني سنة ١٥١٦م بعد انتصار السلطان سليم الأول على المماليك في معركة مرج دابق شمال حلب. وفي العام التالي دخل العثمانيون مصر، فأصبحت الشام ومصر جزءًا من إمبراطورية واحدة امتدت عبر مناطق واسعة من الشرق الأوسط.

لم يُلغِ الحكم العثماني البنية الدينية التي تشكلت خلال القرون السابقة، بل أعاد تنظيمها ضمن نظام إداري وقانوني جديد. وظلت المدن الشامية مراكز للمساجد والمدارس والزوايا والكنائس والمعابد، كما استمرت الطوائف الدينية المختلفة في الوجود.

تنظيم الولايات والمدن

أُعيد تنظيم بلاد الشام إداريًا ضمن ولايات وسناجق، وكان من أبرز المراكز دمشق وحلب وطرابلس وصيدا والقدس.

واحتفظت دمشق بمكانتها الدينية، خصوصًا بسبب ارتباطها بطريق الحج إلى مكة، بينما أصبحت حلب مركزًا تجاريًا مهمًا يصل الأناضول والعراق وبلاد فارس بالبحر المتوسط.

أما القدس فاحتفظت بمكانتها الاستثنائية باعتبارها مدينة مقدسة للمسلمين والمسيحيين واليهود.

المسلمون ومؤسساتهم الدينية

كان الإسلام الدين الغالب في معظم مناطق بلاد الشام، وظلت المساجد والمدارس والأوقاف أساسًا للحياة الدينية.

واستمر وجود المذاهب السنية الأربعة، مع تفاوت نفوذها بين المدن. وكان الفقهاء والقضاة والأئمة جزءًا من الإدارة الدينية والاجتماعية. كما استمر التصوف، وازداد انتشار الطرق الصوفية والزوايا في عدد من المدن والقرى.

وكانت الأوقاف ذات أهمية كبيرة؛ فقد خُصصت العقارات والأسواق والأراضي لتمويل المساجد والمدارس والمطابخ الخيرية والأضرحة وغيرها من المؤسسات.

الطرق الصوفية

انتشرت في الشام طرق صوفية متعددة، من بينها القادرية والنقشبندية والمولوية والشاذلية وغيرها. ولم تكن الزوايا أماكن للذكر والعبادة فقط، بل كانت في بعض الحالات مراكز للتعليم واستقبال المسافرين وإطعام الفقراء.

وفي المدن الكبرى أصبح لبعض الشيوخ نفوذ اجتماعي واسع، خصوصًا عندما ارتبطت الزوايا بالأوقاف والأسر الدينية.

المسيحيون في الدولة العثمانية

كان المسيحيون جزءًا أساسيًا من المجتمع الشامي. وضمت بلاد الشام جماعات تنتمي إلى تقاليد كنسية متعددة، منها الأرثوذكس اليونانيون، والسريان، والأرمن، والموارنة، والكاثوليك الشرقيون، إلى جانب جماعات لاتينية في بعض المدن. وكان لكل جماعة مؤسساتها الدينية وكنائسها ورجال دينها.

ومن أهم التطورات في العصر العثماني ازدياد التواصل بين الكنائس الشرقية والكنيسة الكاثوليكية الأوروبية، وهو ما أدى في مراحل مختلفة إلى نشوء أو ترسيخ كنائس شرقية كاثوليكية، مع احتفاظها بطقوسها وتقاليدها الشرقية.

المسيحيون والسلطات المحلية

لم يكن وضع المسيحيين واحدًا في جميع أنحاء الدولة أو في جميع الفترات. فالنظام العثماني اعترف بجماعات دينية غير مسلمة ومنح مؤسساتها الدينية قدرًا من التنظيم الذاتي، خصوصًا في مسائل الأحوال الشخصية والتعليم والشؤون الكنسية.

وفي المقابل بقي غير المسلمين خاضعين لضرائب وقواعد قانونية مختلفة عن المسلمين، كما اختلف مستوى القيود أو الحماية بحسب الفترة والمنطقة والسلطة المحلية.

وكانت العلاقة بين الطوائف والسلطات تعتمد أحيانًا على التوازن بين الدولة وزعماء الطوائف والأعيان المحليين.

اليهود في العصر العثماني

استمرت الجماعات اليهودية في دمشق وحلب والقدس وصفد ومدن أخرى.

وشهدت الدولة العثمانية نفسها وصول أعداد كبيرة من اليهود الذين غادروا شبه الجزيرة الإيبيرية بعد طرد اليهود من إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر، فاستقرت جماعات منهم في مدن عثمانية عديدة، ومنها مدن في بلاد الشام.

أضاف هؤلاء إلى التنوع اليهودي الموجود أصلًا، وانتشرت بينهم اللغة اليهودية-الإسبانية المعروفة باللادينو، إلى جانب العربية والعبرية ولغات أخرى.

وأصبحت صفد في القرن السادس عشر مركزًا مهمًا للتصوف اليهودي، وبرز فيها عدد من كبار علماء القبالة، ومن أشهرهم إسحاق لوريا، الذي ارتبط اسمه بتطور القبالة الصفدية.

القدس في العصر العثماني

احتفظت القدس بمكانتها الدينية، واهتم العثمانيون بإعادة تنظيم المدينة وترميم منشآتها. ومن أبرز آثار السلطان سليمان القانوني أسوار القدس التي بُنيت في القرن السادس عشر، وما زالت تحيط بالمدينة القديمة حتى اليوم.

واستمر المسجد الأقصى وقبة الصخرة مركزين للحياة الإسلامية، بينما بقيت كنيسة القيامة والأماكن المسيحية مقصدًا للحجاج، واستمر الوجود اليهودي في المدينة. وبذلك ظلت القدس مدينة تتجاور فيها المؤسسات الدينية الثلاث، وإن كانت أعداد السكان ونسب الجماعات تتغير من فترة إلى أخرى.

المدارس والكتب

استمرت المدارس الدينية الإسلامية في أداء دورها، وأصبحت دمشق وحلب والقدس مراكز لتدريس الفقه والحديث والتفسير واللغة العربية.

وفي الجانب المسيحي استمرت الأديرة والمدارس الكنسية، وازداد لاحقًا استعمال الطباعة في نشر الكتب الدينية.

أما الجماعات اليهودية فحافظت على المدارس الدينية والتقاليد الحاخامية، وظهرت مراكز للعلم اليهودي في القدس وصفد وحلب وغيرها.

وهكذا حافظت بلاد الشام على تقليدها القديم بوصفها منطقة تتجاور فيها مراكز دينية متعددة، لكن ضمن إطار الدولة العثمانية.

الإصلاحات العثمانية والتحول في القرن التاسع عشر

بدأ الوضع يتغير بصورة واضحة في القرن التاسع عشر، خصوصًا مع إصلاحات الدولة العثمانية.

أصدرت الدولة مراسيم إصلاحية، أبرزها خط كلخانة سنة ١٨٣٩ والخط الهمايوني سنة ١٨٥٦، وسعت من خلالها إلى إعادة تنظيم الدولة والتأكيد على حقوق رعاياها.

أثرت هذه الإصلاحات في العلاقة بين الدولة والطوائف الدينية، كما جاءت في وقت ازداد فيه التدخل الأوروبي في شؤون الدولة العثمانية، وازداد معه حضور المدارس والإرساليات والبعثات الأجنبية في بلاد الشام.

الإرساليات والمدارس المسيحية

شهد القرن التاسع عشر توسعًا كبيرًا في المدارس المسيحية والأجنبية. وصلت الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية إلى مدن مختلفة، وأنشأت مدارس ومستشفيات ومؤسسات تعليمية.

وفي لبنان وسوريا وفلسطين ازداد عدد المدارس المرتبطة بالمؤسسات المسيحية، وأسهمت هذه المؤسسات في نشر التعليم الحديث واللغات الأجنبية والطباعة. كما ساهمت المدارس المسيحية في ظهور نخبة متعلمة كان لها دور لاحق في الصحافة والأدب والسياسة.

الطباعة والنشر الديني

أحدثت الطباعة تحولًا كبيرًا في الحياة الدينية والفكرية. بدأت الكتب العربية المطبوعة بالانتشار بصورة أوسع، وأصبحت النصوص الدينية والتعليمية أكثر سهولة في التداول. وكان للمسيحيين الشوام دور بارز في تطوير الطباعة العربية والنشر، كما استخدمت المؤسسات الإسلامية واليهودية الطباعة لنشر الكتب الدينية. وهكذا بدأت المعرفة الدينية تنتقل تدريجيًا من عالم المخطوطات والمدارس التقليدية إلى عالم الكتب المطبوعة والصحف والمجلات.

نهاية الحكم العثماني

استمر الحكم العثماني في بلاد الشام حتى الحرب العالمية الأولى. وفي السنوات الأخيرة من الحكم العثماني تصاعدت النزاعات السياسية والقومية، وازدادت المنافسة بين الدولة والقوى المحلية، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى لتضع حدًا للنظام العثماني في المنطقة.

وفي سنة ١٩١٨م خرجت معظم بلاد الشام من الحكم العثماني، ودخلت المنطقة مرحلة الانتدابات الأوروبية وقيام الدول والكيانات الحديثة.

وبذلك انتهى عصر استمر نحو أربعة قرون، لكن المؤسسات والطرق الصوفية والمدارس والكنائس والمعابد والأوقاف التي تشكلت خلاله بقيت جزءًا من الحياة الدينية في بلاد الشام إلى العصر الحديث.

الأديان في بلاد الشام في العصر الحديث

أدت الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانية إلى تغيير جذري في الخريطة السياسية لبلاد الشام. فدخلت المنطقة مرحلة الانتدابات الأوروبية، ثم نشأت دول وحدود سياسية جديدة، وانقسمت بلاد الشام إلى كيانات أصبحت لاحقًا سوريا ولبنان وفلسطين والأردن.

ولم تتغير الحدود السياسية وحدها؛ فقد بدأت علاقة الدين بالدولة والمجتمع تتخذ أشكالًا جديدة، وظهرت قوانين ومؤسسات حديثة، وتزايد تأثير التعليم والصحافة والأحزاب والهجرة.

الدين في ظل الدول الحديثة

مع قيام الدول الحديثة أصبحت المؤسسات الدينية مرتبطة بصورة أكبر بالدولة. في سوريا والأردن وفلسطين ولبنان تشكلت وزارات ومحاكم ومؤسسات تنظم جوانب من الحياة الدينية، بينما احتفظت الطوائف المسيحية واليهودية بمؤسساتها الخاصة في مجالات معينة، وخصوصًا الأحوال الشخصية والتعليم. وفي الوقت نفسه ظهرت تيارات فكرية جديدة، منها القومية والعلمانية والإسلامية والمسيحية السياسية، وتفاوت تأثيرها من بلد إلى آخر.

المسيحية في بلاد الشام الحديثة

دخل المسيحيون العصر الحديث وهم يشكلون مكونًا تاريخيًا أساسيًا من سكان بلاد الشام. في لبنان بقي المسيحيون، ولا سيما الموارنة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك وغيرهم، عنصرًا رئيسيًا في الحياة السياسية والاجتماعية. وفي سوريا استمرت المجتمعات المسيحية في دمشق وحلب وحمص والجزيرة ومناطق أخرى، واحتفظت الكنائس المختلفة بمؤسساتها ومدارسها. وفي الأردن وفلسطين استمر الوجود المسيحي، خصوصًا في القدس وبيت لحم والناصرة ومناطق أخرى. وظلت الكنائس والأديرة ومراكز الحج مرتبطة بالهوية الدينية والتاريخية للمنطقة.

اليهود في فلسطين

كان الوجود اليهودي في فلسطين قديمًا، لكنه شهد تحولًا كبيرًا خلال أواخر العهد العثماني وبدايات القرن العشرين مع ازدياد الهجرة اليهودية من أوروبا ومناطق أخرى. ارتبطت هذه الهجرات بتطور الحركة الصهيونية التي سعت إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وخلال فترة الانتداب البريطاني ازداد عدد السكان اليهود وتوسعت المؤسسات السياسية والعسكرية والاقتصادية التابعة للحركة الصهيونية، في وقت كان فيه المجتمع العربي الفلسطيني يشهد بدوره تحولات سياسية واجتماعية متسارعة. وأدى الصراع بين المشروع الصهيوني والحركة الوطنية العربية الفلسطينية إلى تصاعد التوتر والعنف، وصولًا إلى حرب ١٩٤٨ وقيام دولة إسرائيل وتهجير أعداد كبيرة من الفلسطينيين. وكانت لهذه الأحداث آثار دينية مباشرة، خصوصًا في القدس، التي أصبحت مركزًا للصراع حول الأماكن المقدسة والهوية الدينية والتاريخية.

القدس في العصر الحديث

ظلت القدس إحدى أكثر مدن العالم حساسية دينيًا. ففيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وكنيسة القيامة، ومواقع مقدسة مرتبطة باليهودية.

بعد حرب ١٩٤٨ انقسمت المدينة بين الجزء الغربي الذي أصبح تحت سيطرة إسرائيل والجزء الشرقي، بما فيه البلدة القديمة، الذي أصبح تحت الإدارة الأردنية.

وفي حرب ١٩٦٧ سيطرت إسرائيل على القدس الشرقية والبلدة القديمة، وأصبح وضع المدينة والأماكن المقدسة قضية سياسية ودينية دولية مستمرة

وظلت إدارة الحرم الشريف مرتبطة بالأوقاف الإسلامية، بينما استمرت المؤسسات المسيحية واليهودية في إدارة مواقعها الدينية وفق أوضاع معقدة نشأت عبر مراحل تاريخية مختلفة.

الحركات الإسلامية الحديثة

شهد القرن العشرون ظهور حركات إسلامية جديدة في بلاد الشام. لم تعد الحياة الإسلامية مقتصرة على المساجد والمدارس التقليدية، بل ظهرت جمعيات وأحزاب وحركات فكرية وسياسية دعت إلى إعادة تنظيم المجتمع وفق رؤى إسلامية مختلفة.

وفي سوريا والأردن وفلسطين ولبنان ظهرت تيارات متعددة، اختلفت في مواقفها من الدولة والقومية والعلمانية والسياسة.

كما ازداد تأثير التيارات السلفية والإخوانية والصوفية وغيرها، مع اختلاف حضور كل منها بحسب البلد والمرحلة.

الإسلام والمؤسسات الدينية

عملت الدول الحديثة على تنظيم المؤسسات الإسلامية الرسمية. فأنشئت وزارات للأوقاف، ونُظمت المساجد والخطابة والتعليم الديني، وأصبحت الدولة في كثير من الحالات مسؤولة عن تعيين الأئمة والإشراف على المؤسسات الدينية. وفي المقابل استمرت المؤسسات غير الحكومية والمدارس الدينية والجمعيات الخيرية في أداء أدوارها. وهذا خلق علاقة جديدة بين الدين والدولة لم تكن موجودة بالشكل نفسه في العصور السابقة.

الطوائف المسيحية والتغيرات الحديثة

شهدت الكنائس الشامية أيضًا تغيرات كبيرة. انتشرت المدارس والجامعات والمستشفيات المسيحية، وازداد ارتباط بعض الكنائس بالمؤسسات العالمية التابعة لها. وفي الوقت نفسه بدأت الهجرة المسيحية من بلاد الشام تتسع، خصوصًا خلال القرن العشرين، نتيجة الحروب والأزمات السياسية والاقتصادية. وأدى ذلك إلى ظهور جاليات مسيحية شامية كبيرة في أوروبا والأمريكيتين وأستراليا، مع استمرار ارتباط كثير منها بكنائسها وتراثها الشرقي.

اليهود خارج فلسطين

أما المجتمعات اليهودية التاريخية في سوريا ولبنان وغيرها من مناطق الشام، فقد تقلص حجمها بصورة كبيرة خلال القرن العشرين.

وكان قيام إسرائيل وحرب ١٩٤٨ ثم الصراع العربي الإسرائيلي من العوامل الأساسية التي أثرت في يهود المنطقة، إضافة إلى عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة.

غادرت أعداد كبيرة من اليهود مدنًا مثل دمشق وحلب وبيروت، واتجهوا إلى إسرائيل وأمريكا وأوروبا وغيرها. وبذلك اختفت تقريبًا مجتمعات يهودية كانت موجودة في بلاد الشام منذ قرون طويلة، وإن بقيت آثارها في الأحياء والبيوت والمعابد والمخطوطات والمقابر.

الدين والحروب في الشام المعاصر

شهد النصف الثاني من القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين حروبًا وأزمات تركت آثارًا عميقة على الجماعات الدينية.

كان للصراع العربي الإسرائيلي أثر خاص في فلسطين ولبنان وسوريا، ثم جاءت الحرب اللبنانية، والحروب في العراق المجاور، والصراعات الداخلية في سوريا، لتؤثر في التركيبة السكانية والدينية للمنطقة. أدت الهجرة والنزوح إلى انتقال جماعات كاملة من مناطقها التاريخية.

وتعرضت بعض الكنائس والأديرة والمساجد والمعابد والمقامات للتدمير أو الضرر، بينما أُفرغت بعض المناطق من سكانها الأصليين.

تراجع التنوع الديني

كان من أبرز نتائج هذه التحولات تراجع التنوع الديني في عدد من مناطق الشام. فبعض المدن التي كانت تضم المسلمين والمسيحيين واليهود بأعداد مهمة لم تعد تحتفظ بالتركيبة نفسها. اختفت تقريبًا مجتمعات يهودية تاريخية من معظم بلدان الشام، بينما انخفض عدد المسيحيين في بعض المناطق بسبب الهجرة والحروب. ومع ذلك لا تزال بلاد الشام تضم جماعات دينية متعددة، وتبقى المساجد والكنائس والأديرة والمعابد والمقامات شاهدة على تاريخ طويل من التعدد الديني.

القرآن الكريم والحديث

كان القرآن الكريم أساس الحياة الدينية للمسلمين، وأصبح تعليمه وحفظه وقراءته جزءًا من الحياة اليومية. وانتشرت الكتاتيب لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن، ثم تطورت حلقات العلم في المساجد والمدارس. كما ازداد الاهتمام بالحديث النبوي، وبرز علماء من بلاد الشام في جمع الحديث وروايته وشرحه. وكان لدمشق مكانة خاصة في علم الحديث، كما أصبحت القدس وحلب وحمص مراكز للعلماء والطلاب.

الفقه والمذاهب

استقرت في بلاد الشام المذاهب السنية الأربعة الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي. واختلف حضورها بحسب المدينة والعصر؛ فكان للمذهب الشافعي حضور قوي في مناطق، وللحنفي مكانة بارزة خصوصًا مع الإدارة العثمانية، بينما بقيت المذاهب الأخرى حاضرة في المؤسسات العلمية.

وأدى وجود هذه المذاهب إلى نشوء مدارس فقهية متعددة، ولم يكن الاختلاف بينها يعني بالضرورة وجود أديان مختلفة، بل مذاهب داخل الإسلام السني.

الشيعة في بلاد الشام

عرفت بلاد الشام وجودًا شيعيًا منذ القرون الإسلامية الأولى، وإن كان حضور الشيعة متفاوتًا من منطقة إلى أخرى. برز التشيع بصورة خاصة في أجزاء من لبنان، كما وجدت جماعات شيعية في مناطق أخرى من الشام.

وفي دمشق ارتبطت بعض المواقع بالذاكرة الشيعية، ومن أبرزها السيدة زينب جنوب المدينة، حيث أصبح مقامها مركزًا دينيًا مهمًا للزوار الشيعة.

كما ارتبطت دمشق بمقامات وأماكن أخرى ذات أهمية في الذاكرة الشيعية، خصوصًا ما يتصل بأحداث كربلاء وأهل البيت.

العلويون

ظهر العلويون، أو النصيريون كما عُرفوا تاريخيًا، في البيئة الإسلامية الشيعية في القرون الوسطى، وتمركز وجودهم بصورة خاصة في المناطق الجبلية من الساحل السوري. وتطورت لديهم تقاليد دينية خاصة، مع ارتباط تاريخي بالفكر الشيعي وبشخصية علي بن أبي طالب.

وكان وجودهم الجغرافي في الجبال أحد العوامل التي ساعدت على الحفاظ على مجتمعهم وتقاليدهم عبر قرون من التغير السياسي.

وفي العصر الحديث أصبح العلويون مكوّنًا أساسيًا من المجتمع السوري، مع اختلاف الدراسات في تفسير بعض تفاصيل عقائدهم وتاريخ تشكلها.

الدروز

تعود نشأة العقيدة الدرزية إلى القرن الحادي عشر في سياق الدولة الفاطمية، وظهرت الدعوة الدرزية في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله.

انتشرت الجماعة بصورة خاصة في مناطق جبلية من بلاد الشام، ولا سيما جبل الدروز في جنوب سوريا، وجبل لبنان ومناطق من فلسطين.

وللدروز عقيدة خاصة تميزهم عن المذاهب الإسلامية الأخرى، كما أن دعوتهم أغلقت باب التحول إليها بعد فترة الدعوة الأولى، فأصبح الانتماء إليها مرتبطًا بالجماعة نفسها. وتُعد كتب الحكمة، أو رسائل الحكمة، من أهم النصوص الدينية لدى الدروز.

الإسماعيلية

الإسماعيلية مذهب شيعي ظهر في القرن الثاني الهجري، وارتبط اسمه بالخلاف حول تسلسل الإمامة بعد الإمام جعفر الصادق، إذ اتبع الإسماعيليون خطًّا من الإمامة ينسب إلى ابنه إسماعيل بن جعفر وذريته. وتميّز الفكر الإسماعيلي باهتمامه الكبير بالمعاني الباطنة للنصوص الدينية إلى جانب ظاهرها، وبناء منظومة دينية وفكرية تقوم على الإمامة والتأويل والمعرفة الروحية.

برز للإسماعيلية حضور سياسي وديني واسع في العصر الفاطمي، عندما أقام الفاطميون دولتهم في شمال أفريقيا ثم انتقل مركزها إلى مصر، وأسسوا القاهرة وجعلوها عاصمة لهم. ووصل نفوذ الدعوة الإسماعيلية إلى بلاد الشام، حيث ظهرت لها مراكز ومجتمعات في مناطق مختلفة، واستمر وجودها في بعض المناطق حتى العصور اللاحقة.

وفي بلاد الشام ارتبط اسم الإسماعيلية خصوصًا بمدينتي سلمية ومصياف، وأصبحت المنطقة المحيطة بمصياف أحد أبرز مراكز الإسماعيليين في العصر الوسيط. وفي القرن السادس الهجري برزت الجماعة الإسماعيلية النزارية في قلعة مصياف وغيرها من قلاع الجبال، وكان لها حضور سياسي وعسكري في المنطقة خلال الصراع بين القوى الإسلامية والصليبيين والممالك المحلية.

ولا تزال جماعات إسماعيلية تعيش في بلاد الشام إلى اليوم، ولا سيما في بعض مناطق سوريا، محافظةً على تقاليدها الدينية وتراثها الخاص ضمن التنوع التاريخي للمجتمعات الإسلامية في المنطقة.

المرشدية

ظهرت المرشدية في سوريا خلال القرن العشرين، وارتبط نشوء هذا التيار بسلمان المرشد في منطقة الساحل السوري، ثم تطورت أفكاره الدينية بعد إعدامه سنة ١٩٤٦ واستمر أتباعه، ولا سيما ابنه مجيب المرشد في تطوير هذا التيار و الحفاظ على خصوصيته الدينية. وقد حملت المرشدية تصورًا دينيًا خاصًا، واختلفت في عدد من تعاليمها وممارساتها عن المذاهب الإسلامية المعروفة، ولذلك بقي تصنيفها الديني موضع نقاش، بينما يرى أتباعها أنهم ينتمون إلى الإسلام. وانتشرت الجماعة بصورة خاصة في بعض قرى الساحل السوري، وحافظت على خصوصيتها الدينية والاجتماعية، مع تعرضها خلال تاريخها لظروف سياسية واجتماعية صعبة. وتمثل المرشدية إحدى الحركات الدينية الحديثة التي ظهرت في البيئة السورية، وتكشف عن تعدد التيارات والتجارب الدينية التي نشأت داخل المجتمع الإسلامي في بلاد الشام.

البهائية

ظهرت البهائية في القرن التاسع عشر في إيران، ثم انتقلت دعوتها إلى مناطق أخرى من الشرق الأوسط، وكان لبلاد الشام حضور مهم في تاريخها، ولا سيما عكا وحيفا، حيث عاش بهاء الله في أواخر حياته ودُفن في عكا، وأصبح مقامه هناك من أقدس الأماكن لدى البهائيين. نشأت البهائية في سياق ديني إسلامي، ثم تطورت إلى ديانة مستقلة ذات تعاليم خاصة، من أبرزها وحدة الجنس البشري، ووحدة الأديان في أصلها الروحي، والدعوة إلى السلام ونبذ التعصب. وانتشرت لاحقًا في بلدان مختلفة خارج الشرق الأوسط، وأصبحت من الديانات العالمية الحديثة.

الأولياء والمقامات

انتشرت في بلاد الشام مقامات نُسبت إلى الأنبياء والصحابة وأهل البيت والعلماء والأولياء. وكانت بعض هذه المواقع مراكز للزيارة والدعاء، وأقيمت حول بعضها المساجد أو الأضرحة والزوايا.

ومن أشهر المواقع ذات المكانة الدينية مقام السيدة زينب قرب دمشق، ومقام خالد بن الوليد في حمص، إضافة إلى مقامات كثيرة في المدن والقرى.

لكن نسب بعض المقامات وتاريخها ليس دائمًا مؤكدًا من الناحية التاريخية، إذ اختلطت الروايات الدينية بالتقاليد المحلية عبر القرون.

الحج والزيارة

كان طريق الحج إلى مكة من أهم العناصر التي ربطت بلاد الشام ببقية العالم الإسلامي. وكانت دمشق محطة رئيسية لقافلة الحج الشامي، التي تجمع الحجاج من مناطق واسعة وتتجه جنوبًا نحو الحجاز.

ولهذا اكتسبت دمشق أهمية دينية تتجاوز كونها عاصمة سياسية سابقة؛ فقد أصبحت نقطة تجمع للحجاج، وارتبطت بها مؤسسات وأسواق ومنشآت لخدمة القوافل. واستمر هذا الدور في العهدين المملوكي والعثماني، وتطورت حوله منشآت ومؤسسات خاصة بخدمة الحجاج.

رمضان والأعياد

أصبحت المناسبات الإسلامية جزءًا أساسيًا من الحياة الاجتماعية في المدن الشامية. وكان شهر رمضان يرتبط بالصيام وصلاة التراويح وقراءة القرآن والإفطار الجماعي والصدقات.

كما أصبحت الأسواق والمساجد أكثر نشاطًا خلال الشهر، وظهرت تقاليد محلية تختلف من مدينة إلى أخرى. ويحتفل المسلمون بعيد الفطر بعد نهاية شهر رمضان، وعيد الأضحى المرتبط بموسم الحج، إضافة إلى مناسبات دينية أخرى تختلف مكانتها بحسب المذهب والتقاليد المحلية.

وفي المجتمعات الشيعية اكتسبت عاشوراء مكانة خاصة بوصفها ذكرى مقتل الحسين بن علي في كربلاء، بينما تطورت لدى المجتمعات الصوفية تقاليد ومناسبات خاصة بها.

المرأة والحياة الدينية

شاركت النساء في الحياة الدينية الإسلامية بطرق متعددة عبر تاريخ الشام. فقد وُجدت عالمات ومحدّثات وناسخات للكتب، وشاركت النساء في بعض حلقات العلم، كما ارتبطت نساء من الأسر الحاكمة والثرية بإنشاء الأوقاف والمدارس والمساجد. وتكشف سجلات الأوقاف عن مساهمات نسائية في تمويل المؤسسات الدينية والخيرية، خصوصًا في العصور المملوكية والعثمانية. ولذلك لم تكن المرأة غائبة عن المؤسسات الدينية، وإن كانت طبيعة مشاركتها تختلف بحسب العصر والمجتمع.

منح الإسلام المرأة حقوقًا دينية ومالية واجتماعية واضحة، وجعل لها ذمة مالية مستقلة عن زوجها؛ فما تملكه من مال أو عقار أو تجارة يبقى ملكًا لها بعد الزواج، ولها أن تتصرف في مالها بالبيع والشراء والهبة والإنفاق وفق الأحكام الشرعية، ولا يصبح مالها ملكًا لزوجها بمجرد عقد الزواج. كما جعل المهر حقًا خالصًا لها، لا لأبيها ولا لأهلها، وأقر لها حقها في الميراث بنصوص محددة، تختلف أنصبتها بحسب درجة القرابة والحالة.

وفي الحياة الزوجية، جعل الإسلام النفقة مسؤولية الزوج، وتشمل ما تحتاج إليه الأسرة من طعام وكسوة ومسكن بحسب المعروف والقدرة. أما مال الزوجة فليس الزوج شريكًا فيه لمجرد الزواج، وهي غير مُلزَمة شرعًا بالإنفاق من مالها الخاص على زوجها أو أسرتها، فإن أنفقت منه باختيارها كان ذلك تبرعًا منها وأجرًا لها، وليس واجبًا عليها لمجرد كونها زوجة. وبذلك فرّق التشريع بين ملكية المرأة الخاصة وبين مسؤولية الزوج عن النفقة.

ولم يحصر الإسلام حضور المرأة في الحياة المنزلية، فقد عُرفت نساء مارسن التجارة، وامتلكن الأموال والعقارات، وأوقفن الممتلكات في وجوه الخير، وشاركن في الحياة العلمية. وبرزت نساء في رواية الحديث وتعليمه، وفي الفقه والأدب والمعرفة، حتى أصبحت بعضهن مرجعًا للعلماء والطلاب في عصور مختلفة.

كما جعل الإسلام للمرأة حضورًا دينيًا مستقلًا؛ فهي مكلفة بالعبادات كالصلاة والصيام والحج والزكاة وفق أحكامها، ولها حق التعلم والتعليم في حدود ما أتاحته المجتمعات والظروف التاريخية. وتظهر في التراث الإسلامي أسماء نساء عالمات ومحدّثات وفقيهات، إلى جانب نساء عُرفن بالتجارة والعمل الخيري ورعاية الأوقاف.

وهكذا لم تكن صورة المرأة في الإسلام مقتصرة على دور واحد؛ فقد اجتمعت لها الحقوق المالية، وحق التملك والميراث، وحق المهر، والاستقلال في مالها، والحماية بالنفقة الزوجية، إلى جانب حضورها في العبادة والعلم والحياة الاجتماعية، مع اختلاف صور تطبيق هذه الحقوق وممارستها بين العصور والمجتمعات الإسلامية.

المساجد بوصفها مراكز للمجتمع

لم يكن المسجد مكانًا للصلاة فقط. ففي كثير من الفترات كان المسجد مركزًا للتعليم، وإلقاء الخطب، وعقد حلقات الحديث والفقه، والإعلان عن بعض الأمور العامة. ومن أشهر مساجد الشام الجامع الأموي في دمشق، والجامع الأموي في حلب، والمسجد الأقصى في القدس. وتحوّل بعضها إلى رموز للمدن نفسها، فأصبح تاريخ المدينة الديني مرتبطًا بتاريخ مسجدها الرئيسي.

الإسلام الشعبي والتقاليد المحلية

إلى جانب الدين الرسمي والمؤسسات الفقهية، نشأت في المجتمعات الشامية أشكال من التدين الشعبي. ارتبط بعضها بزيارة الأضرحة والمقامات، والنذور، والموالد، وطلب البركة، وقراءة الأدعية والأوراد. وقد اختلف العلماء في تقييم بعض هذه الممارسات؛ فبعضها قُبل باعتباره من العادات الدينية أو الاجتماعية، بينما رفض علماء آخرون بعضها وعدّوه من البدع. وهذا الخلاف نفسه أصبح جزءًا من تاريخ الحياة الدينية الإسلامية في الشام.

التنوع داخل الإسلام

وهكذا لم يكن الإسلام في بلاد الشام كتلة واحدة متطابقة. فإلى جانب الأغلبية السنية، وجدت جماعات شيعية وعلوية وإسماعيلية والمرشدية ودرزية، إضافة إلى طرق صوفية واتجاهات فقهية وفكرية متعددة. وقد عاش أتباع هذه الاتجاهات أحيانًا في أحياء ومناطق متجاورة، وأحيانًا في مجتمعات أكثر انغلاقًا جغرافيًا. وتغير حجم كل جماعة ونفوذها بحسب العصر والسلطة والهجرة والظروف السياسية. ولهذا فإن دراسة الإسلام في بلاد الشام تحتاج

إلى النظر إليه بوصفه تاريخًا متنوعًا داخل دين واحد، لا مجرد انتشار عقيدة واحدة بالصورة نفسها في كل المدن والمناطق.

أثر الإسلام في هوية الشام

مع مرور القرون أصبحت العربية والإسلام عنصرين أساسيين في هوية معظم المجتمعات الشامية، لكن ذلك لم يمحُ الطبقات الأقدم من تاريخ المنطقة. فأسماء المدن القديمة بقيت، والآثار المسيحية واليهودية استمرت، كما بقيت بعض العادات والتقاليد التي تعود جذورها إلى عصور سابقة.

وهذا التراكم هو الذي صنع الشخصية الدينية والتاريخية المعقدة لبلاد الشام مدن إسلامية تضم كنائس قديمة، وقرى مسيحية تحمل آثارًا رومانية وبيزنطية، وأحياء يهودية اندثرت أو بقيت آثارها، ومقامات ومساجد نشأت فوق أرض شهدت عبادات أقدم بقرون. وبذلك لم يكن الإسلام خاتمة التاريخ الديني للشام، بل أصبح إحدى أهم طبقاته، وتفاعل مع كل ما سبقه، ثم تطور داخله هو نفسه إلى مذاهب ومدارس وطرق وتقاليد متعددة.

أماكن العبادة والمواقع المقدسة في بلاد الشام

القدس

تأتي القدس في مقدمة المدن المقدسة في بلاد الشام، إذ ترتبط بالديانات الثلاث الكبرى.

المسجد الأقصى وقبة الصخرة

يقع المسجد الأقصى وقبة الصخرة في الحرم الشريف، الذي يُعد أقدس المواقع الإسلامية في القدس. بُنيت قبة الصخرة في العصر الأموي في عهد

عبد الملك بن مروان، واكتمل بناؤها سنة ٦٩١م تقريبًا، بينما خضع المسجد الأقصى لعمليات بناء وترميم متعددة عبر العصور.

وترتبط القدس في الذاكرة الإسلامية بحادثة الإسراء والمعراج، ولذلك أصبحت المدينة جزءًا أساسيًا من الجغرافيا الدينية الإسلامية.

كنيسة القيامة

تُعد كنيسة القيامة من أهم المواقع المقدسة في المسيحية، وترتبط وفق التقليد المسيحي بمكان صلب المسيح ودفنه وقيامته.

بدأ بناء الكنيسة في العصر البيزنطي، ثم تعرضت للدمار وإعادة البناء والتوسعة مرات متعددة نتيجة الحروب والزلازل والتغيرات السياسية.

وتتقاسم مسؤولية المكان اليوم طوائف مسيحية مختلفة، وفق ترتيبات تاريخية دقيقة نشأت عبر قرون.

حائط البراق والحائط الغربي

يرتبط الحائط الغربي لدى اليهود بذكرى الهيكل القديم وموقعه، وأصبح أحد أهم أماكن الصلاة اليهودية في القدس.

أما في الذاكرة الإسلامية فيرتبط المكان بحائط البراق، الذي يُنسب إليه ربط الدابة التي حملت النبي محمد في حادثة الإسراء وفق التقليد الإسلامي.

وهكذا أصبح الموقع نفسه جزءًا من الذاكرة الدينية لأكثر من جماعة، وهو ما جعل القدس مركزًا مستمرًا للتداخل بين المقدس والسياسة.

بيت لحم

تقع بيت لحم جنوب القدس، وتحتل مكانة مركزية في المسيحية بسبب ارتباطها بميلاد المسيح وفق الأناجيل. وتُعد كنيسة المهد من أقدم الكنائس المسيحية التي استمر استخدامها بصورة متواصلة تقريبًا منذ العصور القديمة، وقد مرت بعمليات ترميم وتوسعة عبر تاريخها. كما ارتبطت المنطقة المحيطة بالمدينة بأديرة ومواقع مسيحية عديدة.

الناصرة

ترتبط الناصرة في التقليد المسيحي بطفولة المسيح ونشأته، ولذلك أصبحت من أهم المدن المسيحية في فلسطين. وتضم المدينة مواقع وكنائس مرتبطة بحياة المسيح، وأبرزها بازيليكا البشارة. وقد حافظت الناصرة على حضور مسيحي بارز، إلى جانب سكان من أديان أخرى، وأصبحت من أبرز المدن التي يظهر فيها التنوع الديني الحديث.

دمشق

تُعد دمشق من أهم المدن الدينية في تاريخ الشام، ليس فقط بسبب الجامع الأموي، وإنما بسبب تراكم طبقات دينية مختلفة داخل المدينة.

الجامع الأموي

يقع الجامع الأموي في قلب دمشق القديمة. وكان الموقع قبل الإسلام جزءًا من مجمع ديني قديم؛ فقد ارتبط أولًا بمعبد للإله جوبيتر في العصر الروماني، ثم أصبحت في الموقع كنيسة مسيحية كبرى عُرفت بكنيسة يوحنا المعمدان. بعد الفتح الإسلامي استُخدم الموقع فترة بصورة مشتركة، ثم أُقيم الجامع

الأموي في العصر الأموي في عهد الوليد بن عبد الملك. ويُعد الجامع من أبرز نماذج العمارة الإسلامية المبكرة، كما ارتبط بالهوية الدينية والتاريخية لدمشق.

مقام السيدة زينب

يقع مقام السيدة زينب جنوب دمشق، وأصبح أحد أهم مراكز الزيارة الشيعية في سوريا. وترتبط زينب بنت علي بن أبي طالب في الذاكرة الشيعية بأحداث كربلاء وما تلاها، إلا أن نسبة موضع قبرها إلى دمشق ليست محل اتفاق تاريخي؛ فهناك تقاليد أخرى تحدد موضع دفنها في أماكن مختلفة.

ولهذا ينبغي التفريق بين أهمية المقام الدينية وبين الجزم بأنه مكان دفن تاريخي مؤكد.

مقامات دمشق

تضم دمشق ومحيطها عددًا من المقامات المنسوبة إلى شخصيات دينية وتاريخية، بعضها ثابت تاريخيًا بدرجات مختلفة، وبعضها قائم على تقاليد محلية متوارثة. وهذا جعل المدينة مركزًا للزيارات الدينية الإسلامية، إلى جانب دورها في التعليم والفقه والتصوف.

حلب

الجامع الأموي في حلب

يقع الجامع الكبير قرب قلعة حلب، ويعود تأسيسه إلى العصر الأموي، ثم تعرض لإعادة البناء والترميم عدة مرات. ويُعد من أهم المساجد التاريخية في

شمال الشام، ويمثل استمرارًا للدور الديني الذي لعبته حلب بعد دخولها في العالم الإسلامي.

الكنائس القديمة

احتفظت حلب كذلك بوجود مسيحي تاريخي عريق، وخصوصًا في أحيائها القديمة. وتضم المدينة كنائس تنتمي إلى تقاليد سريانية وأرمنية وملكية وغيرها، وهو ما يعكس التنوع المسيحي الذي حافظت عليه المدينة لقرون طويلة.

أنطاكية

تحتل أنطاكية مكانة استثنائية في تاريخ المسيحية. فبحسب سفر أعمال الرسل، كان في أنطاكية أول استعمال معروف لتسمية «المسيحيين» لأتباع المسيح. وأصبحت المدينة مركزًا رئيسيًا للمسيحية المبكرة، وارتبطت بالرسل وبالكنيسة الأنطاكية. وتضم المدينة تقليدًا مسيحيًا قديمًا مرتبطًا بكنيسة القديس بطرس، التي يُنسب تقليديًا إليها ارتباطها ببطرس الرسول. وعلى الرغم من التغيرات السياسية والدينية التي مرت بها أنطاكية، بقي اسمها حاضرًا في تاريخ الكنائس الشرقية والغربية.

حمص

ارتبطت حمص بتاريخ ديني متنوع. ومن أبرز معالمها جامع خالد بن الوليد، الذي أصبح من أشهر مساجد المدينة. كما احتفظت حمص ومحيطها بوجود مسيحي قديم، وتوجد فيها كنائس مرتبطة بالطوائف المختلفة. وتكشف المدينة بذلك عن استمرار التداخل بين التراث الإسلامي والمسيحي في مدن الداخل الشامي.

الساحل اللبناني

تضم المدن الساحلية اللبنانية مواقع دينية تعكس تاريخًا طويلًا من التعدد.

في بيروت استمرت المساجد والكنائس في الوجود، كما ارتبطت المدينة بتاريخ مسيحي قديم ومؤسسات دينية حديثة. وفي طرابلس تظهر المساجد والمدارس الدينية المملوكية والعثمانية بصورة واضحة في المدينة القديمة. أما الجبال اللبنانية، فقد أصبحت عبر القرون موطنًا مهمًا للأديرة والكنائس، وخصوصًا في المناطق المرتبطة بالتقاليد المارونية.

الأديرة في بلاد الشام

لا يمكن دراسة أماكن العبادة في الشام من خلال المدن وحدها.

فالأديرة المسيحية انتشرت في الجبال والوديان والصحارى منذ القرون الأولى للمسيحية. وكانت مناطق مثل وادي النطرون خارج الشام الجغرافية المباشرة، بينما اشتهرت داخل بلاد الشام مناطق جبلية وصحراوية بالأديرة، ومنها مناطق فلسطين وسوريا ولبنان. ومن أشهر المواقع دير مار سابا قرب القدس، الذي ارتبط بتاريخ الرهبنة المسيحية الشرقية، وعاش فيه يوحنا الدمشقي. كما عرفت جبال لبنان وسوريا أديرة قديمة استمرت في أداء دور ديني وثقافي، وحافظ بعضها على مخطوطات وتقاليد لغوية قديمة.

المعابد اليهودية

رغم تراجع أعداد اليهود في معظم بلدان الشام خلال العصر الحديث، بقيت آثار معابدهم شاهدة على وجود تاريخي طويل. ومن أبرزها كنيس جوبر قرب دمشق، الذي ارتبط بتقاليد يهودية قديمة جدًا، رغم أن تفاصيل تاريخ بنائه

وتطوره لا يمكن إثباتها كلها من الروايات المتأخرة. وفي حلب اشتهر الكنيس المركزي، المعروف بكنيس حلب، الذي ارتبط بالمجتمع اليهودي الحلبي وبمخطوط حلب الشهير للكتاب المقدس.

أما في القدس فبقيت المعابد اليهودية جزءًا أساسيًا من الحياة الدينية في المدينة القديمة.

التصورات الأخروية وعلامات الساعة في الإسلام

احتلت أخبار آخر الزمان والتصورات المتعلقة بنهاية العالم مكانًا بارزًا في التراث الإسلامي، إلى جانب الإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار. وقد تناول القرآن عددًا من مشاهد القيامة والبعث والنشور والحساب، بينما توسعت كتب الحديث في رواية أشراط الساعة والعلامات التي تسبق قيام الساعة، مع اختلاف العلماء في درجات الأحاديث ومكانة بعض الروايات.

وتتضمن هذه الأخبار علامات وأحداثًا كبرى تسبق نهاية العالم، ومن أشهرها في التراث الإسلامي ظهور المهدي في عدد من الروايات الحديثية، وخروج المسيح الدجال، ثم نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان. كما ترد أخبار يأجوج ومأجوج وما يرتبط بخروجهم من أحداث، إلى جانب علامات أخرى وردت في روايات متعددة، بعضها يُصنَّف من العلامات الصغرى وبعضها من العلامات الكبرى.

ويرتبط آخر الزمان في التصور الإسلامي كذلك بوقوع أحداث كونية عظيمة، ثم النفخ في الصور، وقيام الناس من قبورهم، والحشر، والعرض والحساب، ثم الجزاء. ويظهر في القرآن وصف متكرر لانشقاق السماء، وتبدل الأرض،

وخروج الموتى من القبور، ووقوف الناس للحساب، وهي صور جعلت يوم القيامة حاضرًا بقوة في الوعي الديني الإسلامي.

أما تفاصيل علامات الساعة وتسلسلها، فقد وصلت بصورة أساسية من كتب الحديث والتفسير وكتب الفتن والملاحم، ولذلك تختلف درجة ثبوت الروايات من خبر إلى آخر. فهناك أحاديث صححها علماء الحديث واعتمدوها، وأخرى اختلفوا في صحتها، وأخبار ضعيفة أو موضوعة لم يعتمدها أهل الاختصاص. ولهذا فإن دراسة هذه المادة في تاريخ الأديان تقتضي التمييز بين النص القرآني، والحديث المقبول عند المحدثين، والروايات التي اختلف العلماء في درجتها، والتفسيرات الشعبية التي تراكمت حولها عبر العصور.

وهكذا أصبحت تصورات آخر الزمان جزءًا مهمًا من التراث الإسلامي، لا بوصفها سردًا للمستقبل فحسب، بل باعتبارها تعبيرًا عن الإيمان بعدالة الله، وقيام الموتى، والحساب، وانتهاء العالم الدنيوي، وبدء الحياة الأخروية.

أديان تتبدل وأرض لا تنسى

ومن رحم هذه الأرض خرجت معتقدات قديمة، ومنها انتشرت المسيحية، وعلى طرقها تحرك الإسلام، وفي مدنها تشكلت مدارس ومذاهب وكنائس وطوائف تركت أثرها في تاريخ المنطقة والعالم.

وإذا كانت بلاد الشام قد تغيرت مرارًا، فإن ذاكرتها الدينية بقيت حاضرة في حجارتها ونصوصها ومدنها وطقوس أهلها.

وهكذا لا تنتهي حكاية أديان الشام عند دينٍ أخير، بل تبقى الشام نفسها شاهدةً على آلاف السنين التي آمن فيها الإنسان، واختلف، وصلّى، وبنى معبده، ثم ترك وراءه أثرًا لتأتي أجيال أخرى وتروي الحكاية من جديد.

ليست بلاد الشام أرضًا مرّت عليها الأديان، ثم مضى كل دين تاركًا مكانه لغيره؛ بل هي أرضٌ بقيت فيها طبقات الإيمان متراكمة، تحفظ كل واحدة منها شيئًا من ذاكرة ما سبقها، وتضيف إليها شيئًا من ذاكرتها الخاصة.

هنا، في هذه الأرض الصغيرة الممتدة بين البحر والبادية والجبال والأنهار، ظهرت معابد قديمة، وارتفعت مذابح للآلهة، وترددت أسماء الآلهة الكنعانية والسورية في صلوات البشر ونذورهم. ثم جاءت اليهودية بكتبها وأنبيائها وذاكرتها الممتدة بين أورشليم والقرى والمدن المحيطة بها. ومن قلب البيئة اليهودية خرجت المسيحية، لتجعل من القدس وبيت لحم والناصرة وأنطاكية ودمشق محطات أساسية في تاريخها الأول. ثم جاء الإسلام، فدخلت الشام مرحلة جديدة، أصبحت فيها دمشق عاصمة لإمبراطورية واسعة، وبقيت القدس مدينة مقدسة، وظلت المدن والقرى والأديرة والكنائس والمعابد والمساجد تحمل آثار القرون التي سبقتها.

لكن تاريخ الأديان في الشام لم يكن تاريخ العقائد وحدها. كان تاريخ الإنسان أيضًا.

كان في امرأةٍ تشعل قنديلًا أمام مذبح، وفي رجلٍ يقطع مسافة طويلة ليزور مقامًا مقدسًا، وفي طفلٍ يحفظ نصًا دينيًا على يد معلّمه، وفي راهبٍ يختار العزلة على سفح جبل، وفي حاخامٍ يدرّس تلاميذه، وفي فقيهٍ يجلس في مسجد دمشق، وفي حاجٍّ يغادر الشام في قافلة طويلة نحو مكة. كان في الأعياد والصيام والصلوات والجنائز والنذور، وفي الخوف من المجهول، والرجاء في الرحمة، والبحث الدائم عن معنى للحياة والموت وما بعدهما.

ولهذا فإن اختزال تاريخ الشام الديني في الحروب وحدها يظلم هذه الأرض وأهلها. نعم، عرفت الشام صراعات دينية، واضطهادات، ومذابح، وفتنًا، وتهجيرًا، وتبدلًا في موازين القوى. لكنها عرفت أيضًا قرونًا عاش فيها المسلم والمسيحي واليهودي إلى جوار بعضهم، وتداخلت فيها اللغات والعادات والأسواق والمهن والمدن، وانتقلت فيها الكتب والأفكار والعلوم من جماعة إلى أخرى.

ولم تكن الأديان في الشام دائمًا كيانات مغلقة. فقد خرجت منها تقاليد دينية وفكرية، واستقبلت في الوقت نفسه جماعات وأفكارًا جاءت من خارجها. ولهذا نجد في تاريخها اليهودي والمسيحي والإسلامي مذاهب واتجاهات متعددة، ونجد إلى جانبها جماعات دينية حافظت على خصوصيتها، مثل السامريين والدروز وغيرهم، لكل جماعة ذاكرتها ونصوصها وأماكنها المقدسة وحكايتها الخاصة مع هذه الأرض.

أما الأماكن المقدسة، فهي ربما أكثر ما يكشف لنا هذه الحقيقة. ففي القدس يمكن أن يقف المرء أمام مواقع تحمل في ذاكرتها أكثر من ألف عام من

التاريخ، وفي دمشق يمكن أن يرى كيف تحوّل المكان المقدس من معبد قديم إلى كنيسة ثم إلى مسجد، وفي أنطاكية يلتقي بتاريخ المسيحية الأولى، وفي بيت لحم والناصرة تبقى ذاكرة المسيحية حاضرة، وفي جبل جرزيم تستمر ذاكرة السامريين، وفي مدن الشام وريفها تنتشر المساجد والكنائس والأديرة والمقامات والمعابد القديمة كأنها صفحات متجاورة من كتاب واحد. وربما لهذا السبب تحديدًا يصعب أن تُقرأ أديان الشام كلٌّ على حدة.

فاليهودية في الشام لا يمكن فهم تاريخها من دون القدس، والمسيحية لا يمكن فهم بداياتها من دون أورشليم وأنطاكية ودمشق، والإسلام لا يمكن فهم حضوره في الشام من دون دمشق والقدس ومدنها القديمة. وحتى الجماعات الصغيرة التي بقيت قرونًا في هذه البلاد، حملت معها ذاكرة أماكنها المقدسة، وحافظت من خلالها على صلتها بالأرض.

ومع مرور الزمن تبدلت أسماء الدول والحدود، وسقطت إمبراطوريات وقامت أخرى، وانتقلت عواصم، وتغيرت اللغات والإدارات، وتراجعت جماعات دينية وازداد حضور جماعات أخرى. لكن شيئًا واحدًا بقي ثابتًا أن الشام لم تتوقف يومًا عن إنتاج الذاكرة الدينية.

إنها أرضٌ تستطيع أن تمشي فيها بين طبقات التاريخ من دون أن تغادر المكان نفسه.

قد تقف في القدس فتجد أثر مملكة قديمة، ثم معبدًا، ثم كنيسة، ثم مسجدًا، ثم سورًا عثمانيًا؛ وقد تسير في دمشق فتلتقي بآثار مدينة آرامية ورومانية، ثم بكنيسة قديمة، ثم بمسجد أموي، ثم بأحياء حملت ذاكرة المسيحيين واليهود والمسلمين قرونًا طويلة. وفي كل مدينة تقريبًا ستجد شيئًا من هذا التراكم، حتى لو لم يعد ظاهرًا للعين. وهنا تكمن قوة الشام الحقيقية.

فهي ليست مجرد أرضٍ شهدت ولادة حضارات، ولا مجرد ممرٍ بين القارات، ولا مجرد مسرحٍ للحروب والإمبراطوريات. إنها واحدة من أقدم المساحات التي عاش فيها الإنسان وهو يحاول أن يفهم علاقته بالسماء والأرض والموت والحياة. ولهذا بقيت أسئلته القديمة حاضرة، حتى عندما تغيرت الأسماء وتبدلت العقائد واللغات والسلطات.

قد تتغير المدن، وقد تُهدم المعابد والكنائس والمساجد، وقد تهجر جماعات بأكملها، وقد تضيع مخطوطات وتختفي لغات، لكن الذاكرة لا تختفي بسهولة. تبقى في حجرٍ قديم، وفي اسم قرية، وفي مقام، وفي كنيسة، وفي مسجد، وفي مخطوطةٍ، وفي حكاية تتناقلها الأجيال.

ولهذا، حين نقرأ تاريخ أديان الشام، فإننا لا نقرأ فقط تاريخ ما آمن به الناس.

نحن نقرأ تاريخ ما أحبوه، وما خافوه، وما قدّسوه، وما تمنوه، وما تركوه وراءهم لأبنائهم.

وهكذا تبقى بلاد الشام، بعد آلاف السنين، أرضًا لم يكتب تاريخها دين واحد، ولا شعب واحد، ولا إمبراطورية واحدة.

كتبته أجيال متعاقبة، ترك كل جيل منها أثره، ثم مضى. أما الأرض، فبقيت.

وبقيت معها الحكاية. حكاية الشام، التي كلما ظننا أننا وصلنا إلى آخر صفحاتها، اكتشفنا أن في ترابها صفحةً أخرى لم تُقرأ بعد.

المراجع والمصادر

١. The Cambridge History of Religions in the Ancient World، Cambridge University Press.

مرجع أساسي للأديان في الشرق الأدنى القديم، بما فيها أديان سورية-كنعان واليهودية والمسيحية المبكرة.

٢. The Oxford History of the Holy Land، Oxford University Press.

يغطي تاريخ المنطقة الديني من نشأة إسرائيل واليهودية، مرورًا بالمسيحية والإسلام، حتى نهاية العهد العثماني.

٣. Jonathan P. Berkey, The Formation of Islam: Religion and Society in the Near East, 600–1800، Cambridge University Press.

من أهم المراجع لفهم نشأة الإسلام وتطوره وعلاقته باليهودية والمسيحية وأديان الشرق الأدنى.

٤. Fred M. Donner, The Early Islamic Conquests، Princeton University Press.

مرجع أساسي للفتوحات الإسلامية المبكرة ودخول بلاد الشام في الدولة الإسلامية.

٥. Robert G. Hoyland, In God's Path: The Arab Conquests and the Creation of an Islamic Empire، Oxford University Press.

للفتوحات وبدايات الدولة الإسلامية والتحولات الدينية والاجتماعية في المنطقة.

٦. Sebastian P. Brock, The Hidden Pearl: The Syrian Orthodox Church and Its Ancient Aramaic Heritage.

مرجع مهم لتاريخ المسيحية السريانية والكنائس الشرقية في بلاد الشام.

٧. Nicholas de Lange, An Introduction to Judaism، Cambridge University Press.

مرجع مركز لليهودية وتطور عقائدها وممارساتها وتقاليدها.

٨. Josephus, The Jewish War. مصدر تاريخي قديم مهم لفترة اليهودية في العصر الروماني وتاريخ اليهود والقدس.

٩. القرآن الكريم، إلى جانب الكتاب المقدس العهد القديم والعهد الجديد.

المصادر الدينية الأساسية التي استُخدمت في عرض النصوص والمعتقدات والقصص والنبوءات.

١٠. Encyclopaedia of Islam، Brill.

مرجع موسوعي مساعد للمصطلحات والشخصيات والأحداث المتعلقة بالإسلام وتاريخ المجتمعات الإسلامية في بلاد الشام.

مصادر النصوص والنقوش القديمة

أرشيف ماري، رسائل النبوءات الملكية؛ مسلّة زكّور؛ نقش دير علا؛ تقرير ون آمون؛ نصوص أوغاريت؛ مخطوطات قمران؛ الأوعية السحرية الآرامية؛ وغيرها

الكاتبة أماني سليمان

سوريا محافظة الحسكة مدينة القامشلي مواليد ٢/٨/١٩٨٨

درست في كلية العلوم قسم الكيمياء

أول مؤلفاتها كتاب خواطر بعنوان همسات النسمات

الثاني كتاب خواطر بعنوان صدى الأفكار

الثالث رواية بعنوان يضمدها الأمل

الرابع كتاب خواطر بعنوان عندما تتحدث الروح

الخامس رواية بعنوان أرواح تتأرجح على كفوف السحر

السادس كتاب خواطر بعنوان يا حزني السعيد

السابع رواية بعنوان قبل أن يراها

الثامن قصة بعنوان وكانت الصدمة

التاسع رواية بعنوان ترتيب القدر

العاشر مسرحية بعنوان النبوءة

الحادي عشر كتاب خواطر بعنوان كِلانا يبحث عني

الثاني عشر رواية بعنوان حين تكلم الموت

الثالث عشر رواية بعنوان نالت مرادها

الرابع عشر رواية بعنوان سلام فوق رماد الماضي

الخامس عشر خواطر بعنوان انا امرأة لا يعبرها الزمن

السادس عشر خواطر بعنوان على مائدة الوجدان

السابع عشر سكتشات مسرحية بعنوان من رحم المعاناة

الثامن عشر مونولوجات مسرحية بعنوان القوة تنبع من الداخل

التاسع عشر مونولوجات مسرحية بعنوان أنا والحياة

العشرون مونولوجات مسرحية بعنوان علمتني الحياة

الحادي والعشرون رواية بعنوان لم نخرج سالمين

الثاني والعشرون مسرحية بعنوان مقهى النصائح المجّانية

الثالث والعشرون مسرحية غنائية بعنوان ساحة المطر

الرابع والعشرون مسرحية بعنوان مكتب تصليح القدر

الخامس و العشرون مسرحية بعنوان مقهى الرسائل غير المرسلة

السادس و العشرون مسرحية بعنوان شركة ضائعة بين القرارات

السابع و العشرون مسرحية غنائية بعنوان قناديل المنى

الثامن و العشرون خمس سكتشات مسرحية بعنوان مجرات مضيئة

التاسع و العشرون مسرحية بعنوان صندوق الاصوات القديمة

الثلاثون كتاب خواطر بعنوان مسافة نجاة

الحادي و الثلاثون كتاب خواطر بعنوان ألوان قلبي

الثاني و الثلاثون رواية بعنوان على هامش القرار

الثالث و الثلاثون مسرحية بعنوان يوميات عريس مفلس

الرابع و الثلاثون مسرحية بعنوان عريس بالغلط

الخامس و الثلاثون مسرحية مزاد العرسان

السادس و الثلاثون مسرحية يوم بدون تمثيل

السابع و الثلاثون مسرحية غلط بغلط

الثامن و الثلاثون قصة بعنوان أجساد من كلمات

التاسع والثلاثون مسرحية حلم ع السريع

الاربعون مسرحية غنائية للأطفال المدينة التي تضحك

الواحد و الاربعون مسرحية غنائية بعنوان مدينة تزهر حين نحب

الثاني و الاربعون مسرحية بعنوان كل الطرق تؤدي إلي

الثالث و الاربعون مسرحية بعنوان آخر بث

الرابع و الاربعون مسرحية بعنوان محكمة الضمير

الخامس و الاربعون مسرحية بعنوان العريس الضايع

السادس والاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بدون تجميل

السابع و الاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بقايا انسان

الثامن و الاربعون مسرحية بعنوان مدينة الكذب

التاسع و الاربعون مسرحية بعنوان معجب سبع نجوم

الخمسون مسرحية بعنوان الجلسة الأخيرة

الواحد و الخمسون كتاب خواطر بعنوان قيد من حرير

الثاني والخمسون كتاب بعنوان من المجد إلى الطين(١)الحضارة السومرية

الثالث و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٢)الحضارة الأكدية

الرابع و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٣)الحضارة البابلية

الخامس والخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٤)الحضارة الآشورية

السادس والخمسون كتاب بعنوان وصفات الحب

السابع و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(١)حضارتي إيبلا وماري

الثامن و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٢)اوغاريت والآراميون

التاسع والخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٣)الكنعانيون والفينيقيون

الستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٤) الحوريون، العمونيون،

المؤابيون، الأدوميون، الأنباط

الوحد والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٥)الفلستيون والحثيون

الثاني والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٦)العبرانيون والأسرائيليون

الثالث و الستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٧)من حلب إلى حوض العاصي والممالك المحيطة

الرابع والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٨) من المدن الساحلية إلى ممالك الداخل

الخامس والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٩) الأديان و التحولات الدينية في بلاد الشام